مجلة إسلامية شهرية جامعة

# البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٨٢ . صفر ١٤٣٢ هـ . يناير ٢٠١١ م

## تسريبات ويكيليكس... مؤامرة، أم فضيحة؟

## هل ستغفو الصحوة؟

## السلفية بين تهمة التشدد وواقع الغربة

## التسرُّبات الفكرية

# الدراما والعبث بالتاريخ

# مستشفى أبها الخاص

## الراعي الطبي لمهرجان أبها للتسوق

إتفاقية التعاون الطبي مع جامعة ماكجيل بكندا ومركز ديترويت الطبي العالمي

## استشاريون سعوديون في جميع التخصصات

مجمع خاص ومتكامل للنساء

كفاءات طبية متميزة

تجهيزات طبية حديثة

## وحدات متخصصة في خدمتكم

وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
وحدة الجراحة العامة والمناظير
وحدة الأنف والأذن والحنجرة
وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
وحدة أمراض الشرج والمستقيم

وحدة طب وجراحة العيون
وحدة النساء والولادة
وحدة الأطفال وحديثي الولادة
وحدة جراحة الأطفال
وحدة الجلدية والتناسلية
وحدة الأمراض الصدرية
وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل

وحدة أمراض الكلى
وحدة السمنة والسكر
وحدة الطب النفسي
وحدة أمراض القلب والشرايين
وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
وحدة طب وجراحة الأسنان
وحدة العناية المركزة

**وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث على مدار ٢٤ ساعة**

جهاز الليزر الأخضر KTP
لاستئصال تضخم البروستاتا

المنظار الجراحي

جهاز الأشعة تحت الحمراء للبواسير

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز الليزر الكربوني للعناية بالبشرة

جهاز قياس جهد القلب

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام


أبها - شمال الخطوط السعودية -هاتف: ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤
البريد الإليكتروني : info@aph.med.sa www.aph.med.sa



ABHA PRIVATE HOSPITAL

للنشر والتوزيع

# دار التدمرية

الجديد

والمخفض

دائماً

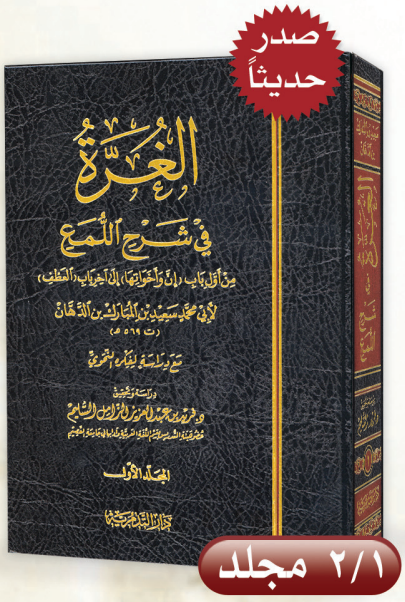


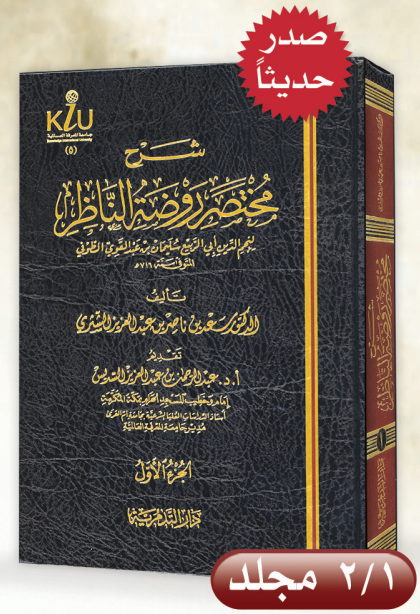


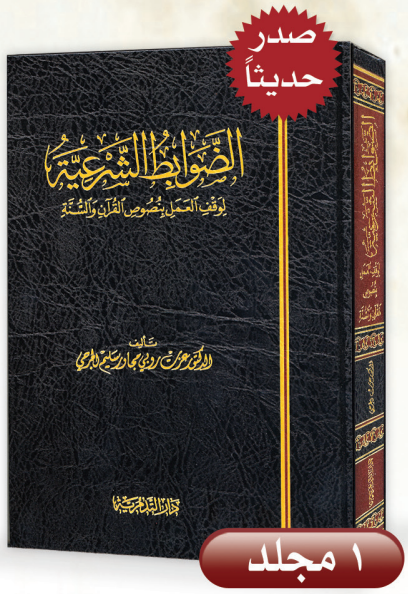


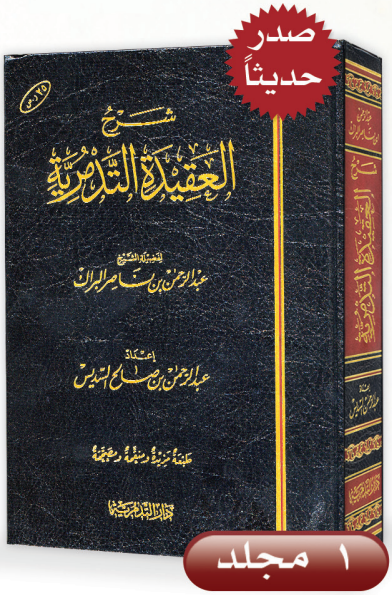


الرياض ـ الدائري الشرقي ـ جنوب مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي

الجديد هاتف: ٤٩٢٥١٩٢/٤٩٢٤٧٠٦ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠

بريدة ـ طريق الشاحنات ـ حي الصفرا ـ هاتف ٣٢٦٢٢٦٢

tadmoria@hotmail.com

الآن

جامع تراث العلامة الألباني في العقيدة

أكبر عمل علمي يخدم تراث العلامة الألباني في العقيدة

في هذا الكتاب:

جمعٌ للمسائل العقدية التي تكلم عليها العلامة الألباني مع ترتيب دقيق للمسائل وتبويب موضوعي شامل

للتواصل: ٠٠٩٦٧٧٣٣٧٠٢٧٩٢

shady_noaman@hotmail.com

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

## الافتتاحية


٦ **مرآة الثقافة وإطلالة أجمل** — التحرير


## العقيدة والشريعة


١٠ **السلفية بين تهمة التشدد وواقع الغربة**
حماد القباج

١٤ **المفتي وتفسير الأحكام الاجتهادية**
د. هاني بن عبد الله الجبير


## السياسة الشرعية


٢٠ **ولاية المظالم** — محمد بن شاكر الشريف


## الغرب: قراءة عقدية


٢٤ **ترجمات المستشرقين لمعاني الكتاب المبين**
فيصل بن علي الكاملي


## قضايا دعوية


٢٦ **مراعاة مقتضى حال المخاطَب في البلاغة النبوية** — د. يوسف بن عبد الله العليوي

٣٤ **هل ستغفو الصحوة؟**
إبراهيم بن عبد العزيز الخميس


## قضايا تربوية


٤٠ **الاستقامة بلا طغيان**
محمد المطري


## الإسلام لعصرنا


٤٦ **اضطراب الملحدين (٣-٤)**
أ. د. جعفر شيخ إدريس


## معركة النَّص


٤٨ **التسرُّبات الفكرية**
فهد بن صالح العجلان


## نص شعري


٥٠ **نداء من امرأة تعشق الحرية**
عبد العزيز بن صالح العسكر



### خدمة العملاء

**السعودية**
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

### للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

### الموزعون

**الأردن:** الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
**الإمارات العربية المتحدة :** شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
**سلطنة عُمان:** مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
**البحرين:** مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
**السعودية :** الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
**السودان:** الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
**قطر:** دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
**الكويت:** شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
**المغرب:** سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
**اليمن:** دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د.أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

### الحسابات

**السعودية:** مصرف الراجحي
**آي بان:** SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

### الاشتراكات

| | | |
|---|---|---|
| السعودية ودول الخليج | ١٢٠ | ريال سعودي |
| بريطانيا وإيرلندا | ٤٧ | يورو |
| أوروبا | ٥٥ | يورو |
| البلاد العربية وإفريقيا | ٤٥ | يورو |
| أمريكا وبقية دول العالم | ٥٥ | يورو |
| المؤسسات الرسمية | ٦٠ | يورو |

المسلمون والعالم

٥٢ تسريبات ويكيليكس... مؤامرة، أم فضيحة؟
ممدوح إسماعيل

٦٠ المرشد الإيراني علي خامنئي في مربَّع تنظيم الحجتية
صباح الموسوي

٦٤ التمييز العنصري في مناهج التعليم الصهيونية
عبد الكريم القلالي

٦٧ حتى لا ننسى أسرى فلسطين
فؤاد الخفش

٦٨ مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٧٣ ذلك الفرق الذي يجعلك (بطلاً) ويجعلني (صفراً)
لبابة أبو صالح

عين على العدو

٧٤ لماذا سيبدو المجتمع الصهيوني «مكشوفاً» في أي حرب قادمة؟
د. عدنان أبو عامر

تحقيقات

٧٦ عملية الخليل في الضفة... دلالات ومعان
فلسطين – مجلة البيان

في دائرة الضوء

٨٠ تسلُّط الأكثرية
إبراهيم الأزرق

إعلام

٨٤ الدراما والعبث بالتاريخ
د. خالد الغيث

قراءة

٨٨ الثوابت والمتغيرات في تاريخ البلاد الإسلامية الاقتصادي
هشام منوِّر

الباب المفتوح

٩٢ الازدواج الفكري
عبد اللطيف بن بريك الشيبتي

الورقة الأخيرة

٩٤ أبو بطين... الفقه والاحتساب
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

## [ كلمة صغيرة ]

### إلى متى يستمر الفقر؟

٣٩ مليون فقير في العالم العربي، منهم ١٧ ٪ يعيشون تحت خط الفقر؛ أي لا يزيد دخلهم اليومي عن دولار وربع. أُعلِن هذا في تقرير التنمية البشرية لعام (٢٠١٠م) الصادر عن الأمم المتحدة قبل شهر واحد، وعنوانه: (الثروة الحقيقية للأمم... مسارات إلى التنمية البشرية). وقد حذر التقرير من زيادة معدلات الفقر في السنوات القادمة.

عندما يأتي الحديث عن الفقر فإننا نتحدث عن بوابة عريضة من المشكلات الكبيرة التي تحاصر البلدان العربية؛ فالفقر يعني: التخلف التقني والحضاري، والبطالة، وانتشار الجهل والأمية، وانتشار الأدواء الاجتماعية: كارتفاع معدلات الجريمة والمخدرات، والرشوة والتفكك الأسري، فضلاً عن انتشار الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية... ونحوها.

تحدث هذه المتوالية المترابطة التي يقود بعضها إلى مزيد من الفقر والتخلف؛ على الرغم من الموارد الاقتصادية العربية الهائلة والمتنوعة.

لقد كُتِبَ في أسباب ذلك كثيرٌ من الدراسات والبحوث، وعُقدَت الندوات والمؤتمرات الدولية والمحلية، لكن شيئاً من ذلك الواقع لم يتغير، بل تزاداد الفجوة ويتسع الخرق يوماً بعد يوم.

والسر وراء ذلك فيما يبدو، هو عجز السياسات المالية والاقتصادية في العالم العربي، وضعف الإرادة السياسية عن معالجة المشكلة من جذورها، والسُّنة الربانية التي تعالج هذه المعضلة هي قول الله – عز وجل –: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وفي قوله – سبحانه وتعالى –: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

# مرآة الثقافة وإطلالة أجمل

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

تُعدُّ معارض الكتاب من المناسبات الثَّقافيَّة التي تُفاخر بتنظيمها أكثر البلدان، ويقام معرِض للكتاب في جميع البلاد العربيَّة باستثناء بلدين اثنين، بسبب اضطراب الأول، وفقر الثاني. والله المسؤول أن يرفع الضَّرَّاء عن جميع بلدان المسلمين، ويعيد لها الأمن والحكم الشَّرعي العادل.

ومع أنَّ عمر بعض المعارض العربيَّة تجاوز أربعين عاماً، وبعضها الآخر يسير على المنوال نفسه، إلاَّ أنَّ المتابع لا يجد فيها إضافات نوعيَّة متميزة في كلِّ مرَّة، وقد يعود ذلك إلى أنَّ غالب اللجان المسؤولة عن المعارض لجان معمِّرة كأكثر السَّاسة العرب، وهي في أحوال كثيرة ذات فكر واحد، وتفتقد التَّنوع الإيجابي؛ فلا يوجد فيها - مثلاً - عالم بالشَّريعة، ولا خبير في التَّربية أو علم الاجتماع، فضلاً عن غياب أرباب صناعة الكتاب، ومن ثَمَّ يَقِلُّ الإبداع. ويكرِّر القائمون على المعرِض التَّجربة الماضية دون إحداث ما يمكن الإشارة إليه من تطوير أو تجديد خشية العناء، وتحاشياً للانصياع إلى رغبات القُرَّاء التي قد تخالف رغبات صُنَّاع القرار، والأصل أن يكون المعرِض مرآة لثقافة المجتمع وقيمه.

ويبدأ المعرِض وينتهي دون أن يعلم روَّاده عن أكثر الكتب مبيعاً، أو أكثر الدُّور نشاطاً، ولا يدري أحد ما هو الكتاب الذي استحوذ على اهتمام الرجال؟ وإلى أيِّ الكتب تنصرف عناية النِّساء؟ وماذا عن مستوى الإقبال على كتب الأطفال؟ وأمَّا الكتب التي صاحب بيعَها اعتراضُ أفراد أو مؤسسات فقضيَّة لم تخطر على بال المنظِّمين. والأسئلة المشروعة كثيرة في هذا الباب، وهي جديرة بأن تكون محلَّ رعاية وإحاطة من قِبَل إدارات المعارض؛ ليتداركوا ما فات في قابل الأيام، وينأوا عن تكرار الأخطاء مرَّة أخرى؛ حتى تكون النُّسخ الجديدة من المعارض أفضل من سابقتها، وحتى يكتسب المسؤولون عنها مهارة متكاملة في صناعة معارضَ باهرة للكتاب والثَّقافة.

وفي مثل هذه الإحصاءات وقوفٌ صريح على الفكر الحي الذي يروم النَّهل منه جمهورُ القُرَّاء والمثقفين، وبيانُ الفكر الذي يترنَّح استعداداً للموت أو الإغماء الطَّويل بسبب هجرانه من القارئ النَّابه؛ لأنَّ ارتقاء وعي جمهور الكتاب أمر يحول دون الانقياد للتَّهويل الإعلامي، أو الوقوع في أسره الشَّنيع وإنْ ملأ ضجيجه ما بين الخافقين؛ فكم من صوت عالٍ وهو نشاز مستقبَح، وكم من صوت هادئ وهو غاية ذوي الألباب ومطلوبهم؟

ويصاحب معارض الكتاب أحياناً أحداثٌ ثقافيَّة مؤسفة، من جنس منع الكتب الدِّينيَّة لأسباب لا تتعلَّق بغلطٍ في علومها، أو عدوان على الشَّـــريعة وأمـــن المجتمع في مضمونها، وإنَّما بسبب أســـماء مؤلفيها وخلفياتهم العقديَّة والفكريَّة، مع أنَّهم - نحسبهم والله حسيبهم - متَّبعون مقتدون غير مبتدعين ولا منحرفين، وإنَّه لأمر جَلَل أن يتجاسر مسؤولٌ على حجب كتب أئمَّة أعلام كابن بـــاز والألباني وابن عثيمن وغيرهم، ويعظُم الخطب علينا ونحن نســـمع جعجعة هذا المســـؤول وموظفيه حول الحرية واحترام الآخرين وآرائهم وفضيلة العقل المفتوح، ويزيد السُّـــوء قبحاً فَتْحُ الباب علـــى مصراعيه لكتب تهدم الدِّيانة والأخلاق الكريمة، وهذا من الاســـتهانة الفجَّة بعقول النَّـــاس، والإزراء الكبير بوعيهم وفهمهم. ومن المضحكات في هـــذا الموضوع أنَّ بعض مَنْ يفحـــص كتب علماء الملَّة ليس له بَصَرٌ بالكتاب والقراءة فضلاً عن العلم والفقه؛ فاللهمَّ لا تجعل أمر المسلمين إلى جهالهم وأسافلهم.

ومن التَّلبيس على العامَّة ما تفعله بعض وسائل الإعلام من التَّرويج لكتبٍ وروايات غاصَّةٍ بالمخالفات الشَّـــرعيَّة؛ فتحظى الرِّوايـــة التـــي لا قيمة لها من النَّاحية الفنيـــة بكمٍّ هائل من المقالات والتَّحليلات واللقاءات، وتُعرَض الكتب المليئة بالدَّس على الشَّريعة ولمز رجالاتها وكأنَّها خالية من الخطأ الفاحش والملاحظة البيِّنة، ومع هذا الغشِّ الثَّقافي فهم لا يفســـحون المجال للـــرَّأي الآخر حول هذه الكتب التـــي يطبِّلون لها في وسائلهم التي أضحت سوقاً لانتقاص عقل المسلم واتِّهام ذائقة القارئ البصير.

ولا تبخـــس هـــذه الملحوظات كونَ تلـــك المعارض فرصة في اجتماع النَّاشـــرين، وفي أســـعار الكتب، ويَحسُن بالقارئ النَّهِم اغتنامها حتى تعود عليه بالمصلحة في أمر دينه ودنياه. ومن الاســـتثمار الأمثل لمعارض الكتاب أن يزورها الواحد بعد إطلاعه على دليل المعرِض إن وُجِد، ويكون قد دوَّن ما يحتاجه مـــن عناوين أو موضوعات، ويضم إليهـــا عناوين الكتب التي راقت له ولم يجدها في مكتبات بلده، ثم يختار أنسب الأيام له لزيـــارة المعرض، وإن اصطحب مَنْ يعتني بتربيته وتقريبه إلى عالم الكتاب فحسن. وعليه أن ينظر في الكتاب نظر الشَّحيح قبل شـــرائه؛ فبعضها لا يخلو من عيوب طباعيَّة، ومنها ما له عنوان جذَّاب ومضمون خراب، وفيها مجرَّد نقولات لا تُسمِن ولا تُغني من جوع، وبعضها كتبُ فتنة في الدِّين بشـــبهاتها أو شهواتها؛ والسَّلامة السَّلامة في الابتعاد عنها إلاَّ ممن كان ذا اختصاص وقدرة على التَّعامل مع باطلها الذي يُشَـــوِّش العقل أحياناً، ويضرم نيران الشَّهوة أحايين أُخَر.

ومن الفرص السَّانحة في معارض الكتاب مزامنة إصدار الكتـــب معها، وأن يتولـــى العلماء والكتَّـــاب التَّعريف بالكتب النَّافعة قبيل ابتداء المعارض، حتى يعلم عنها القُرَّاء والمثقفون؛ ويقتنوا نُسَخَهم منها قبل نفادها، وفي الحديث الصَّحيح عند مســـلم: «من دعا إلى هدى، كان لـــه من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شـــيئاً. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». وفي التَّعريف فوائد أخرى؛ كتسلية المؤلف والثَّناء على جهده مع بيان مواضع الخلل في الكتاب ومواطن الضعف فيه، واقتراح ما يمكـــن إضافته في طَّبعات جديدة. ومما يُتاح في المعارض إصدار بعض الكتب التـــي يجدر ألاَّ يخلو منها بيت بطبعات شعبية يكون سعرها في متناول اليد، وكذلك الالتفات إلى كتب الأطفال تأليفاً وطباعـــة وعَرْضاً؛ لأنَّ ثقافة الطِّفل صارت مرمى لبعـــض أصحاب التَّوجهـــات الفكريَّة المريبة، وحرام علينا ترك أطفال المسلمين في أيدي مَنْ لا يُؤمَن على عقول الكبار وأخلاقهم، بَلْهَ النَّاشئة والصِّغار.

ونَشْـــر الرِّواية الماتعة السَّـــليمة في معارض الكتاب يُعدُّ مجالاً خصباً يمكن اســـتثماره وتفعيلـــه؛ فنحن في زمن أقبل فيه الشَّـــباب فمَنْ فوقهم على قـــراءة الرِّوايات حتى صارت حديث الصُّحف والمجالس، وإنَّ في كتَّاب الرِّواية مَنْ يستطيع المنافســـة بقوة في هذا الحقل الأدبيِّ الجذاب؛ دون مســـاس بثوابت المســـلمين وقيم المجتمعات؛ فتقـــرأ الفتاة في خدرها والشَّـــاب في خلوته هذه الرِّوايـــات دون أدنى وجل من الآباء علـــى عقائد أولادهـــم وأخلاقهم. ومن الكتـــب التي يوصي الخبـــراء بنشـــرها لأثرهـــا المتيَّقن في شـــباب الأمَّة الكتب الثَّقافيـــة العامَّة المنطلقة من وجهـــة نظر أصيلة غير دخيلة؛ فقراؤنا من الجنســـين يتطلعون لاستجلاء النَّظرة الإسلامية عن كثير مـــن القضايا التي تُلِح على أذهانهم: كالاســـتبداد، والحرية، وثقافة الحقوق، وشـــؤون العمل، والمذاهب الفكرية، ومســـائل الإعلام، وقضايا التَّنمية، وبعـــض أبواب الاقتصاد والسياســـة... وغيرها، فيا حبَّذا أن ينهض ذوو الاختصاص لمثل هذا المشروع الثَّقافي الكبير كما نهض أوائلهم لنفع الأمَّة ورفع الجهل عنها، وكم ترك الأول للآخر.

والتَّرجمة إلى اللغة العربية من المجالات التي تفيد أمتنا، وقد نالتها يـد التَّقصير والإهمال، مع كثرة مَنْ يستطيعها من الرِّجال والنِّساء؛ فنحن نحتاج إلى ترجمة كتب الصَّيدلة والطِّب والهندسة والزِّراعة والفلك وعلوم الإدارة والتَّقنية وأيِّ علم يمكن أن يفيد أجيال النَّاطقين بالعربيَّة دون أن يشتمل على آراء تخالف النُّصوص الشَّرعيَّة المقدَّسة، أو خرافات لا يصدِّقها العقل. وإنَّه لأمر مؤسف أن تنصرف همَّة بعض المسلمين لترجمة كتب أدبيَّة وعلوم إنسانيَّة مليئة بالإشكالات المنهجيَّة والقصور في المعلومات؛ فضلاً عن أنَّ تراث أمتنا غني عنها بما حواه واحتواه من كنوز لا يزهد فيها إلاَّ جاهل بها أو متحيِّز إلى فئة بُغيَة العزَّة، ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين. ومن المتعيِّن على المترجمين: الحذر البالغ من تصيير المكتبة الأجنبية مصدراً أعلى للمعرفة في أذهان الشُّبان والشَّابات خاصَّة في الحقول الإنسانية.

ومن الأفكار التي قد ترفع من القيمة الثَّقافية لمعارضنا: تسهيل بيع المكتبات الشخصيَّة؛ فكم من عالم أو أديب ترك بعد وفاته مكتبة حافلة، ولم يوصِ بها لمؤسسة علميَّة، وليس في ورثته مَنْ يعتني بأمر الكتب وشأن الثَّقافة، فتضيع غالباً بسبب الإهمال وعوامل الزَّمن، أو تُباع دون أن يعلم عنها الكثيرون ممن يرغبون في شراء شيء من كتب هذا الكتبي الرَّاحل. ومما يجدِّد في معارضنا وَضْعُ أركان متجاورة لذوي الاحتياجات الخاصَّة الذين ابتلاهم الله بفقد حاسَّة أو أكثر، فلهم حقٌّ ثقافي على مجتمعهم كي لا يُحرموا متعة تصفح الكتب، وقد ساعدت التَّقنية الحديثة في هذا الباب وأبدعت ما يُعيِّن هذه الفئة المتكاثرة عددياً على اللحاق بركب أخوانهم الذين امتنَّ الله عليهم بالمعافاة.

ويستطيع النَّاشرون اهتبال فرصة إقامة المعارض لتقليب أوجه النَّظر في مشكلات النَّشر والتَّسويق، وتداول الحلول المقترَحَة مع أصحاب الشَّأن من ملاَّك المكتبات التِّجارية وجمعيات النَّشر الإقليميَّة وممثلي وزارات الثَّقافة. ومن الأفكار التي يناسب طرحها أثناء الحديث عن معرض الكتاب: إقامةُ معرِض سنوي لكتب العلوم الدِّينية واللغوية والتَّاريخية في مكَّة أو المدينة النَّبوية – حماهما الله – على أن يكون موعده الثَّابت في شهر رمضان أو أشهر الحج، وتتولى رعايته إحدى الجامعات هناك، وكم من الفائدة ستعود على الحجَّاج والمعتمرين والزُّوار، وهم ينعمون بأداء النُّسك، والجوار

**من الأفكار التي قد ترفع من القيمة الثَّقافية لمعارضنا: تسهيل بيع المكتبات الشخصيَّة**

الشَّريف، ويتقلَّبون بين مختلف الفنون والكتب!

والدَّعوة إلى الله على بصيرة من أجلِّ الأعمال وأوجبها، وبما أنَّ كبرى المدن العالميَّة تحتضن معارض ضخمة للكتاب، وقد يكون مجال العرض فيها أرحب من بعض معارضنا العربية؛ فليت أنَّ المنظَّمات الإسلامية الدولية تتعاون مع المكتبات التِّجارية والمؤسسات الدَّعوية لتأليف وطباعة ونشر كتب دعوية بلغات مختلفة، تخاطب الشُّعوب حسب الطَّريقة التي يفهمونها؛ دون تميُّع أو تنازل عن الثَّوابت؛ حتى تكون تلك المعارض فرصة للدَّعوة وإنقاذ الخلق من النَّار، أو تصحيح تصوراتهم المغلوطة عن ديننا وكتاب ربِّنا ونبينا، عليه الصَّلاة والسَّلام، ولعلَّ هذا الأمر لم يغب عن فطنة الفضلاء العاملين للإسلام، ولعلَّهم أن ينشطوا له. وفي المشاركة بالمعارض الدَّولية اكتساب لخبرة متوافرة لدى الآخرين، وفرصة لنقل المناسب من تجاربهم.

وإنَّ سوق الكتاب ومعارضه السَّنوية مناسبة ثقافيَّة رائعة، يهَشُّ إليها أولوا العلم والفكر والمثقفون لإمتاع عقولهم، وزيادة معارفهم، وتقريبهم من تحقيق أهدافهم التي يرومونها في الدُّنيا والآخرة، وكم يتمنَّى النَّاصحون أن تكون هذه المعارض فرصة لإظهار الحق ونشره؛ وليس وسيلة لتمكين الباطل والتَّمادي فيه. ولا بد أن يعيَ مسؤولو المعارض أنَّهم يخاطبون أمَّة لها دين قويم، ولغة ثريَّة، وتاريخ مجيد، ومستقبل مشرق موعود؛ ومن العقوق أن تتجاهل إدارات المعارض مكوِّنات الأمَّة الثَّقافيَّة في سوق العلم والمعرفة، ومن العار أن تنقض بعض معروضاتنا عُرى وحدةِ المجتمع وتماسك أبنائه واجتماع أطرافه التي يأتي على رأسها الدِّين الإسلامي الحنيف.

# مكتبة الرشد ناشرون

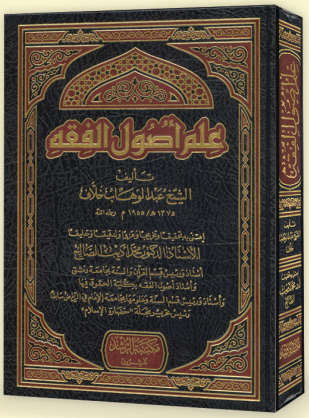


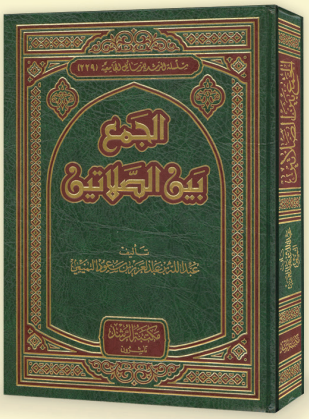


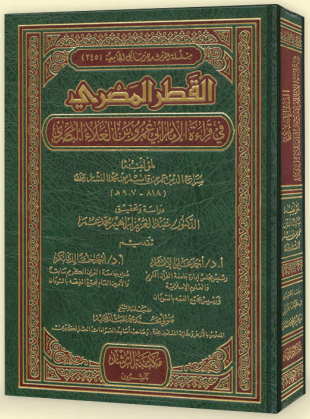


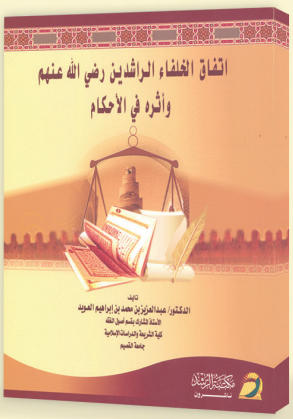

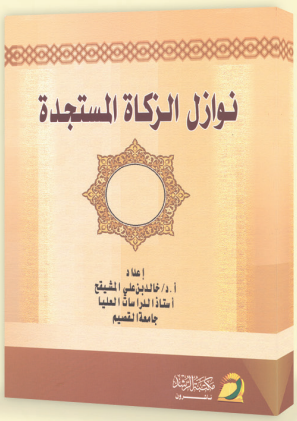


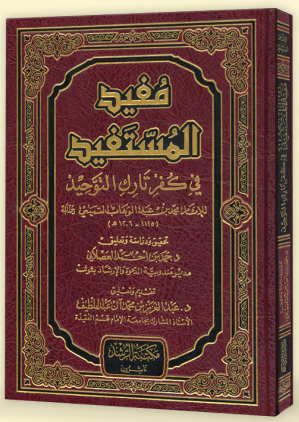


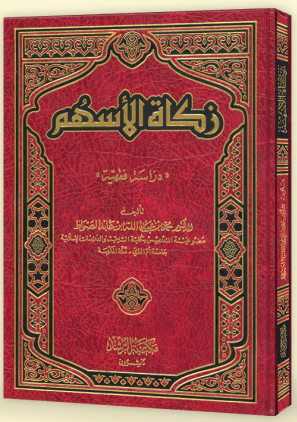


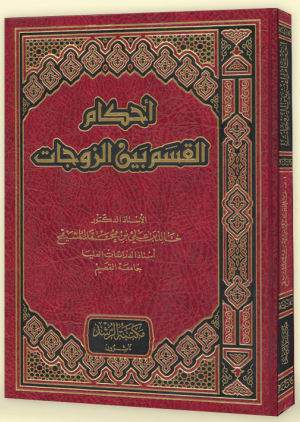


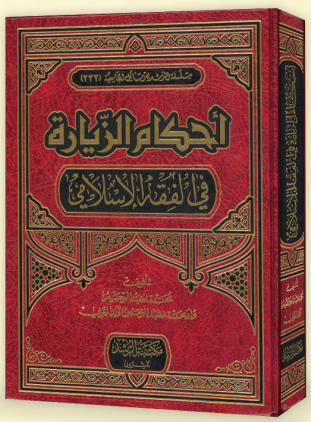


## أحدث الإصدارات

للتواصل

المركز الرئيسي . الرياض طريق الدائري الغربي ( ٤٣٢٩٣٣٢ ) فرع طريق عثمان بن عفان ( ٢٠٥١٥٠٠ )

مكة المكرمة (٥٥٨٥٤٠١) جدة (٦٧٧٦٣٣١) المدينة المنورة ( ٨٣٤٠٦٠٠ ) القصيم (٣٢٤٢٢١٤)

أبها (٢٣١٧٣٠٧) الدمام (٨١٥٠٥٦٦) حائل (٥٣٢٢٢٤٦) الاحساء (٥٨١٣٠١٥) تبوك (٤٢٤١٦٤٠)

# السلفية
## بين تهمة التشدد وواقع الغربة

حمَّـاد القـبَّـاج(*)

تتنامى في الساحة الفكرية والدوائر السياسية قناعة تقضي بأن السلفية (مذهب) إسلامي يرسِّخ الفكر المتشدد والممارسات الدينية المتطرفة.

وقد اتضحت جليّاً الخلفية التي أدت إلى انتشار هذه القناعة؛ إنها خلفية أطَّرَتْها الدراسات الغربية (القديمة والحديثة) التي تهدف إلى تقييم المذاهب والطوائف الإسلامية من أجل التمكين لأقربها إلى خدمة المشروع الأمريكي، رائد المشاريع المبشِّرة بدين «النظام العالمي الجديد» الذي يريد سدنته فرضَه على البشرية من خلال عولمة اقتصادية واجتماعية خانقتين.

مع ما يكمل ذلك من ضرورة إقصاء كل الدعوات التي تسعى للتمكين «للنظام العالمي الإسلامي»، وتدعو للرجوع إلى الأصول الشرعية الكفيلة بزرع روح العزة والمجد في جسد الأمة المنهَك؛ ومن هنا بات من المتعيِّن محاربة الدعوة السلفية التي تعظِّم النص الشرعي، وتصون دلالته من التلاعبات المفضية إلى تحريف الدين بتأويلات الجاهلين وانتحال المبطلين.

وهذا يفسر لنا ما نشاهده من سياسات وتحالفات تدعم كلَّ المذاهب والتوجهات التي تميل إلى التحلل من الأحكام الشرعية عن طريق التأويل الفاسد وتحريف المعاني – مثلاً – أو عن طريق إحداث مصادرَ تلقٍّ تزاحم النص؛ كالكشف الصوفي، أو عن طريق توظيف علم المقاصد وقواعد المصلحة لتفريغ النصوص من دلالاتها؛ بحيث تصير المقاصد والمصالح فتنة بالعرض وإن كانت في أصلها حكمة بالذات، كما تنبأ بذلك رائد علم المقاصد؛ العلاَّمة أبو إسحاق الشاطبي، رحمه الله.

وهؤلاء المتحللون نوعان:

الأول: لا يؤمن بشيء اسمه حجية النص أو قدسيته، أو طاعة الله ورسوله، ولكن يُظهِر خلاف ما يبطن ليهدم الإسلام من الداخل؛ وهؤلاء هم الباطنية بمختلف فِرَقهم القديمة والحديثة.

والثاني: يُقِر بحجية النص قولاً وادِّعاءً، لكنه يخالف ذلك عملاً وسلوكاً (على تفاوت بين هؤلاء في درجة المخالفة)؛ وبمعنى آخر: يشهد (بقوله) بأن النص قدسي وأن طاعة الله ورسوله واجبة، ولكنه يفرِّغ هذه الحقيقة من معناها؛ بردِّ دلالات بعض النصوص ولو كانت قطعية أو تقوم على غلبة الظن[1]؛ فيتكأ على عدم قطعية الدلالة ليسوغ لنفسه ردَّ الحكم بتأويله، تأويلاً غير شرعي.

وهذا خارج عن سَنَن العلماء الذين اتفقوا على أن ظاهر النص معتبَر، وأن تأويله لا يصح إلا بدليل، وأن حجيَّته لا تُرَدُّ بسبب كون دلالته ظنية غير قطعية، وما اتفقوا عليه مسلك علمي تم إبرازه من خلال علم أصول الفقه، وليس تشدداً ولا انغلاقاً ولا حرفية.

(*) أستاذ باحث في العلوم الشرعية، وكاتب صحافي.

(١) وهو مناط حجية، وأكثر أحكام الشريعة أغلبية الظن وليست قطعيته.

وهذا المسلك هو الطريق إلى الوسطية التي تحقق التوازن بين لفظ النص ومعناه، وبين ظاهره وفحواه، وهي طريقة العلماء السلفيين في العمل بظواهر النصوص عملاً لا ينافي الاستفادة المنضبطة من إشاراتها ومعانيها العميقة ومقاصدها، كما يعلم ذلك من يتأمَّل في أصول السلف في الاستنباط وطرائقهم في الاجتهاد، خلافاً لمن يرميهم بالحرفية والجمود وقصور الفهم.

قال ابن القيم معلِّقاً على قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: (لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه اللـه عبداً في كتابه). قال: «ومعلوم أن هذا الفهم قَدْر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه؛ فإن هذا قَدْر مشترَك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنما هذا فَهْمٌ لوازم المعنى ونظائره ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود كلامه؛ بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد» اهـ[1].

فهذا هو الوسط العدل بين جفاء الحرفية التي تُتَّهم بها السلفية، وميوعة الذين يريدون أن يفهموا من النص ما يريدون هم، لا ما يريده المتكلم به، متذرعين بإعمال المقاصد وتحري المصلحة والتيسير؛ فيتحررون من الضوابط والآداب الشرعية للاستنباط، ويبتدعون طرائق باطلة في ذلك؛ كالكشف والقراءة العقلانية والقراءة العصرانية والتوفيقية والمقاصدية... إلخ.

وها هو ذا الإمام الشاطبي علاَّمة علم المقاصد وخِرِّيتُه يعتبَر من أشد العلماء حرصاً على ظواهر النصوص وتعظيماً لدلالتها الظاهرة.

وقد استهل حديثَه في «موافقاته» ببيان علاقة مقاصد الشارع بنصوصه، وأشار إلى وجود ثلاثة اتجاهات في ذلك:

الاتجاه الظاهري: الذي يَقْصِر مسالك الكشف عن مقاصد الشارع على ما صرَّحت به ظواهر النصوص دون أن يعطيَ كبير اهتمام لعلل الأحكام.

الاتجاه الباطني: الذي يهدر ظواهر النصوص ويسعى إلى التخلص منها بدعوى أنها ليست مقصودة لذاتها، ويجعل عمدتَه في اكتشاف مقاصد الشارع وتقدير المصالح تقديرَه هو.

الاتجاه الثالث: هو منهج التوسط؛ وهو اعتبار ظواهر النصوص ومعانيها في مسلكٍ توافقيٍّ لا يسمح بإهدار أحد الجانبين على حساب الآخر ولا بطغيان أحدهما على الآخر، فيعطي للنص حقَّه وأبعاده التي يكون قد قصدها الشارع، وذلك بعدم إهمال الأدوات المعينة على حُسْن فهم النص وتطبيقه: من علل، وقرائن، وجَمْع النصوص الجزئية بعضها مع بعض لتتضح الصورة الكلية.

إن إغفال هذه الحقائق التي أصَّلها السلف وأخذ بها عامة علماء السلفية - على تفاوت بينهم - جعل كثيرين يتهمون السلفية بالنصوصية الحرفية والتصلب في الفهم، ومن ثَمَّ الحكم عليها بالتشدد والتطرف.

وقد أفرز هذا التصور مواقف وردود أفعال على المستوى الفكري والسياسي والإعلامي؛ حيث برزت أطروحات فكرية تنتقد السلفية بكثير من الظلم والتجنِّي، واتخذت قرارات غير مسَوَّغة بإغلاق مئات المدارس ودور القرآن السلفية، وإغلاق عدد من القنوات الفضائية، والسعي لإقصاء السلفيين عن المنابر... إلخ.

وهذا التوجه المصحوب بمواقف إقصائية عدوانية يجرُّنا إلى التساؤل عن المعيار الذي نعتمده للحكم على مناهج التدين بالسماحة والاعتدال؛ بعد أن نتفق على أنهما صفتان محمودتان، كما يجعلنا نتساءل عن حكم فرض الرأي في هذا الموضوع ومصادرة ما يخالفه، في الوقت الذي ندعو فيه لمد جسور الحوار مع الكفار وربط أواصر المحبة مع المنحرفين؟

إن ادِّعاء الوسطية أو الاتهام بالتطرف من منطلَق نزعات النفس، والقناعات الشخصية سلوك لا يَمُتُّ للعلم ولا للخُلُق بِصِلَة، وكون غيرك يقول بتحريم ما تعتقد حلِّيَته، أو وجوب ما تعتقد استحبابه لا يكفي للحكم عليه بأنه متشدد وبأنك معتدل، لا سيما إذا قال بقوله جمهور أهل العلم؛ فالقول بتحريم الغناء - مثلاً - حكم فقهي قال به جمهور الأئمة؛ وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، والقول بمشروعية النقاب مُجمَع عليه.

فهل نحكم على من تبنَّى هذه الأحكام الشرعية ومثيلاتها بأنه متشدد ونصادر حقه في الدعوة إلى رأيه؟ نعم! لو لم يكن له متمسك في نصوصٍ صريحة أو ظاهرة، وفقهٍ لأئمة مُجْمَع على علمهم وفضلهم؛ لربما كان الحكم عليه بالشذوذ والتشدد صائباً.

فالسؤال المطروح إذن هو: ما هو المعيار المعتمد شرعاً للحكم على سلوك معيَّن أو منهج تدين معيَّن بأنه معتدل أو متطرف؟

ولن يَصِحَّ الجواب على هذا السؤال إلا بتحكيم الشرع وإبعاد الهوى، ولا يَصِحُّ أبداً تحديد الاعتدال بناءً على ما تهواه النفس وتميل إليه. قال الخالق الخبير - سبحانه -: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالاعتدال حق، وقد دلت هذه النصوص على أن الحق لا يُعرَف باتباع الهوى، بل يعرف باتباع الشرع. ومن هنا قال

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٣٠٨).

العلماء: «المعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنَّه الميلُ إلى خلاف الحقِّ».

فالشرع هو الحاكم، وحكمه هو الحق، ومتى أحسَّت النفس بأن حكم الشرع يتنافى مع الاعتدال واليسر فإنما هو لخلل فيها وغلبة الهوى عليها، وقد عُلِمَ أن حب الشيء يُعمي ويصم؛ «فجميعُ المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على الحق الذي شرعه الله ورسوله، وقد وصف اللهُ المشركين باتِّباع الهوى في مواضع من كتابه. قال - تعالى -: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وكذلك البدعُ، إنَّما تنشأ من تقديم الهوى على الشَّرع؛ ولهذا يُسمى أهلُها أهل الأهواء»[1].

وعلاجاً لهذا المرض ورد معنى حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[2]. ومعناه كما قال العلاَّمة ابن رجب: «أنَّ الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعةً لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنَّواهي وغيرها، فيحبُّ ما أُمر به، ويكره ما نُهي عنه.

وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع. قال - تعالى -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]. وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وذمَّ - سبحانه - من كَرِه ما أحبَّه الله، أو أحبَّ ما كرهه الله، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

فالواجب على كلِّ مؤمن أنْ يُحبَّ ما أحبَّه الله محبةً توجبُ له الإتيان بما وجب عليه منه، فإنْ زادت المحبَّةُ حتَّى أتى بما نُدب إليه منه كان ذلك فضلاً، وأنْ يكره ما كرهه الله - تعالى - كراهةً توجبُ له الكفَّ عمَّا حرَّم عليه منه، فإنْ زادت الكراهةُ حتَّى أوجبت الكفَّ عمَّا كرهه تنزيهاً، كان ذلك فضلاً» اهـ[3].

فهذا الاتباع لدلالة النص والامتثال لتوجيهه، هو الحق المحمود، وهو الاعتدال، وما يقابله من تأويل عقلاني أو كشفي أو غيرهما هو الهوى المذموم، وإن أُلبس لبوس الاعتدال أو الروحانية أو العقلانية. قال العلاَّمة الشاطبي: «العقل إذا لم يكن متَّبعاً للشرع لم يبقَ له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى وأنه ضلال مبين؛ ألا ترى إلى قول الله - تعالى -: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]؟ فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده؛ وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجرَّداً؛ إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك. وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، فجعل الأمر محصوراً بين أمرين: اتباع الذكر، واتباع الهوى. وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وهي مثل ما قبلها. وتأمَّلوا هذه الآية؛ فإنها صريحة في أنَّ من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد أضل منه، وهذا شأن المبتدع؛ فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن، وما بينته الشريعة.

وبينت الآية أن اتباع الهوى على ضربين:

أحدهما: أن يكون تابعاً للأمر والنهي، فليس بمذموم ولا صاحبه بضال، كيف وقد قدَّم الهدى واستتار به في طريق هواه؟ وهو شأن المؤمن المتقي.

والآخر: أن يكون هواه هو المقدَّم بالقصد الأول - كان الأمر والنهي تابعين بالنسبة إليه أو غير تابعين - وهو المذموم» اهـ[4].

وبعد هذا أقول: إن أصل التسليم للنص وترك الميول مع هوى النفس؛ وَرد في ترسيخه تنزيلٌ مبارك حكيم: قال - تعالى -: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٤ - ٢٨٦].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقَرَّ بها القوم

(١) جامع العلوم والحكم: (ص ٣٩٧) بتصرف يسير.
(٢) حديث مشهور، لا تصح نسبة لفظه إلى رسول الله ﷺ. انظر المصدر السابق (ص ٣٩٣) فما بعدها.
(٣) جامع العلوم والحكم: (ص ٣٩٥ - ٣٩٦).
(٤) الاعتصام: (١/ ٦٥ - ٦٦).

وذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ...»[1].

فهذا هو الحق الذي يورث الاعتدال والسماحة؛ إنه تعظيم النص والمبادرة إلى العمل به امتثالا للأمر واجتناباً للنهي وإن تبادر منه ما يتنافى مع هوى النفس.

وحقيقة تزكية النفس هو حَمْلها على ذلك، ومجاهدتها حتى تصير مطمئنة به؛ فمن عجز عن العمل بذلك أو ضعف عن تصور أحقيَّته، فلا يصح منه أن يصف المجتهدين بالتشدد والغلو كما يفعل أولئك الذين سلكوا مسلك التأويل الباطل للنصوص من أجل التخلص مما تضمنته من أحكام.

وإذا ظهر لنا المعيار الصحيح لتحديد مفهوم الاعتدال، فلا بد أن نبيِّن هنا أن التطرف قسمان؛ تطرُّف نحو الغلو، وتطرف نحو التمييع والتساهل المذموم.

ولا يمكن أن يوصف سلوك المرء بالاعتدال والوسطية والسماحة إلا إذا سلم من نوعي التطرف؛ وهو ما ينبغي أن يفهمه أولئك الذين يبالغون في ذم الغلو والتشدد والتنطع، وهم غارقون في الميوعة والتهاون والتقصير، الذي يسوِّغونه: إما بمفهوم خاطئ للرجاء، وإما بتأويل باطل للنص، وإما بالإهمال وانعدام المبالاة. وقد شاع هذا التصور مع الأسف حتى صار هؤلاء هم من يوصفون بالسماحة والاعتدال.

وهكذا فشا هذا المعيار الفاسد في الحكم على الشيء بالاعتدال أو التطرف؛ فكلما تخلص المسلم من قيد شرعي كلما اشتد وصفه بالسماحة والاعتدال، وكلما التزم مسلم بقيد شرعي أو أدب مرعي كلما كان أقرب إلى التشدد والتنطع والمبالغة.

أجل! فشا هذا المعيار في مجتمعاتنا وطغى على إعلامنا، وانتقل من حيِّز السلوك والعمل إلى مجال الفكر والتأطير الفلسفي، بل السياسي أيضاً؛ وهو ما يشهد به سيل من التقارير والتصريحات والمواقف.

فما ذنب السلفي إذا اعتقد – مثلاً – حرمة الاستماع إلى الموسيقى وحلق اللحية والإسبال والخلوة وسفر المرأة بغير محرم ومصافحتها إن كانت أجنبية عنه، واعتقد مشروعية النقاب ووجوبَ غضِّ البصر عن المحرَّمات ووجوبَ خصال الفطرة العشرة، ونحو ذلك من الأحكام التي تضيق بها نفوس وتمجُّها طباع، حتى صارت في المجتمع غريبة، وأحياناً محطَّ سخرية واستهزاء؟

إنها أحكام يراها البعض (قشوراً) وجزئيات لا ينبغي الاهتمام بها، مع أن الموجِّه إليها إنما هو رسول الله ﷺ وأئمة الأمة.

وقد حمل هذا الإرهاب الفكري كثيراً من (الإسلاميين) على التقصير في ممارسة تلك الأحكام؛ كوجوب الحجاب على المرأة، الذي تطبقه كثيرات بشكل منحرف: فهذه تحسر عن مقدم شعرها، وهذه تضع مساحيق التجميل، وهذه تتفنن في ارتداء اللباس الجذاب، وكأن شبح تهمة التطرف يعلو رؤوسهن بعصاً مخيفة.

إذن ما ذنب السلفي إذا آمن بقول النبي ﷺ: «أعفوا اللحى»، وقوله: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»، وقوله: «ما أسفل من الكعبين في النار»، وقوله: «يستحلون المعازف»، وقوله: «إني لا أصافح النساء»؟ ما ذنبه إذا عمل بهذه النصوص وهو يوقن بثبوتها؛ إذ هي مروية بالأسانيد الصحيحة ومخرَّجة في أوثق دواوين الرواية (صحيحَي البخاري ومسلم).

ما ذنبه إذا عمل بها وهو موقن بصحة أحكامها التي تَتَابع على تأكيدها العلماء، ولم يُعرَف منهم من خالف دلالتها على التحريم إلا شذَّاذاً في القديم أو متأولين متعسفين في الحديث، يظهر أنهم يعانون – هم بدورهم – من الضغط والإكراه اللذين يحاولون إخفاء وطأتهما – أحياناً – بلبوس المقاصد وفقه المصالح والأولويات.

ومن أدرك المعاني المتقدمة فُتح له باب عظيم في فقه قول النبي ﷺ: «طوبى للغرباء». قيل: «ومن الغرباء يا رسول الله؟» قال: «ناس صالحون قليل، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[2].

وهذا حال السلفيين الصادقين بين عامة المسلمين، كما أنه حال المنهج السلفي بين المناهج المتَّبعة في فهم الدين وتطبيق أحكامه وممارسة آدابه؛ لا سيما تلك التي تُفرَض على المسلمين في زمن الغربة الثانية.

أسأل الله – سبحانه – أن يمكِّن لدينه القويم، ويهدينا جميعاً صراطه المستقيم، وأن يكفينا شرَّ الفتن ويعصمنا من موبقات الزلل، وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق والهدى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٧٧ و٢٢٢) وصححه الألباني؛ انظر: السلسلة الصحيحة (١٦١٩).

(٣) وفي الختام أنصح كل الكتاب والباحثين والصحافيين والسياسيين المهتمين بموضوع السلفية أن يأتوا البيت من بابه، وأن يعتمدوا الموضوعية والنزاهة في تقييم (التوجه) السلفي والحكم عليه: هل هو توجه إصلاحي يخدم الدين والأمة أم فكر دخيل يفسد ويخرب؟ وليس من العلم ولا من الموضوعية أن نحكم على السلفية من خلال تصور جاهل بها أو نظرية معاد لها أو إملاءات من يرى مصلحته في الحد من انتشارها.

# المفتي وتفسير الأحكام الاجتهادية

د. هاني بن عبد الله الجبير(*)
haniagm@gmail.com

من سنن الله - تعالى - الكونية الجارية، أن لا يدوم شيء على حال إلا ريثما يتسلَّط عليه انتقال، وأن شأن الدنيا في أسبابها وتصاريفها أنها مبنية على التغيُّر والتبدُّل؛ فلا يدوم لها حال.

وقد لهج الناس بذكر ذلك؛ فالأدباء والشعراء ينعون أزمان سعدهم، ويتعزَّون بذكر هذه السُّنة الكونية.

وكيف يَصِحُّ للأيام عهدٌ
وشيمتها التغيُّر والفسادُ(١)

والوعاظ والقُصَّاص يذكِّرون الناس بذلك وينبهونهم أنه موجب لتدارُك الإنسانِ أزمان الإمكان والقدرة وتيسُّر الأمور، قبل أن تتغيَّر الأحوال.

وعلماء الاجتماع يبحثون أسباب التغيُّر، ويرصدون آثاره سلباً وإيجاباً، والأطباء يبحثون في تغيُّرات الأبدان أثراً لمرور الأعوام، أو الإصابة بالأمراض.

وقد قال - تعالى -: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. ومن معاني ذلك مرورُه بالشباب والكهولة والشيخوخة، وتعرُّضُه للفقر والغنى والصحة والمرض... وغيرها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية: (حالاً بعد حال)(٢).

وقال بعض السلف: في كل عشرين سنة تُحدِثون أمراً لم تكونوا عليه(٣).

وقد جعل الله - تعالى - التغيُّر دليلاً على ربانيته، وامتنَّ بها على عباده، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. فجعل تغيُّر الأحوال واختلافها دليلاً على قدرة الله - تعالى - وعلمه.

وكما يحصل التغيُّر في الأشياء، والأحوال، والأخلاق، فتتغيَّر الديانات والآراء، وقد جاء في الحديث: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً»(٤).

فالتغيُّر طبيعة الحياة، وسُنة الأشياء، وهذا ما يقرره الآن دارسوا الاجتماع والسياسة؛ فكل شيء عندهم يتطور من حال إلى حال، مهما كان الحال الأول أصلح أو أنسب، أو كان العكس فهذه سُنة الحياة.

ومكلِّفُ الأيام ضد طباعها
متطلِّبٌ في الماءِ جَذوةَ نارِ

والمتأمل للواقع الفقهي يجد أن تغيُّر الرأي الاجتهادي في ما يسوغ فيه الاجتهاد، وتبدُّل الموقف نحو أي قضية اجتهادية صار سُبة لصاحبه، وعيباً يُنبَز ويُتَّهم به؛ مع أنه طبيعة إنسانية أصيلة، ولمَّا سئل الحكيم: كيف عرف ربه؟ قال: بنقض العزائم وفتور الهمم، أو فسخ الهمم.

(*) قاض شرعي في محكمة جدة.
(١) يتيمة الدهر: (٢/١٠٨).
(٢) صحيح البخاري: (٤٩٤٠).
(٣) تفسير ابن كثير: (١٤/٢٩٨) من قول مكحول، رحمه الله.
(٤) صحيح مسلم: (١٦٩) عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

وفقهاء الإسلام العظام تغيَّرت آراؤهم وتبدلت أقوالهم؛ فالشافعي - رحمه الله تعالى - كان يفتي وهو في العراق بفتاوى، ولما ذهب إلى مصر أصبح يفتي بخلافها، وليس ذلك لتغيُّر البيئات واختلافها. بل لتغيُّر موقفه من القول نفسه؛ لأنه كان يقول: (ليس في حلٍّ من روى عني القديم)[1].

والإمام أحمد لما قيل له: ما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحبُّ إليك، أم التي عند المصريين؟ قال: (عليك بالكتب التي وضعها بمصر؛ فإنَّه وضع هذه الكتب بالعراق، ولم يُحكِمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم ذلك)[2].

وكذلك الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - غيَّر كثيراً من آرائه وفتاويه؛ ولذا يُنقَل عنه في المسألة الواحدة أكثر من رأي.

وفي مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي أن الإمام أحمد قال: (بلغني أن إسحاق الكوسج يروي عني مسائل بخراسان، اشهدوا أني قد رجعت عن ذلك كله)[3].

ومن القواعد الفقهية المشتهرة: لا يُنكَر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان[4]، وابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه (إعلام الموقعين) عقد فصلاً طويلاً في تغيُّر الفتوى واختلافها بحسب تغيُّر الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد.

ومع تقرُّر تغيُّر الفتوى واختلاف الأحكام، فإن الواقع أن هذا الباب ولجتْه طائفتان: واحدة تمنع الفتوى أو تعيب مغيِّر رأيه ولو وُجِد مقتضٍ لذلك، والأخرى تُخضِع نصوص الشرع وثوابته لقاعدة التغيُّر، وهو ما يفضي بالانسلاخ عن الشرع.

ولذا فإننا نعرض هنا أنواع تغيُّر الأحكام التي يمكن حصولها عند وجود سببه بياناً لهذه القاعدة بحسب ما أراده واضعوها، والله الموفق.

## أنواع تغيُّر الأحكام:

لتغيُّر الأحكام ثلاثة أنواع باعتبارات، وكل نوع منها يندرج تحته أصناف وأحوال، نُجمِلها في ما يلي:

### أولاً: تغيُّر الحكم بالنسبة للمكلَّف في نفسه:

وهذا أوسع أبواب تغيُّر الحكم، ويسميه بعض الباحثين بتغيُّر الفتوى؛ تحرُّجاً من إطلاق تغيُّر الحكم بالنظر إلى نفس المكلَّف، والمراد به اختلاف الحكم بحسب الشخص أو زمانه أو مكانه. وعليه يُحمَل ما ورد من النصوص التي تبيِّن أفضل الأعمال أو أحبَّها إلى الله تعالى.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ (سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»)[5].

وعن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: (سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»)[6].

فهذه الأحاديث وأمثالها حُمِل اختلاف الجواب فيها على اختلاف حال السائلين أو السامعين[7].

قال ابن تيمية - رحمه الله -: (والتنوع قد يكون في الوجوب تارة وفي الاستحباب أخرى؛ فالأول مثل ما يجب على قوم الجهاد، وعلى قوم الزكاة، وعلى قوم تعليم العلم، وهذا يقع في فروض الأعيان وفي فروض الكفايات).

إلى أن قال: (وأما في الاستحباب فهو أبلغ؛ فإنَّ كل تنوُّع يقع في الوجوب، فإنه يقع مثله في المستحب ويزداد المستحب بأن كل شخص إنما يُستحَب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله - سبحانه وتعالى - ما يقدر عليه ويفعله وينتفع به، والأفضل له من الأعمال ما كان أنفع له، وهذا يتنوع تنوعاً عظيماً، فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً؛ إذ أكثرهم لا يقدرون على الأفضل ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه، وقد لا ينتفعون به، بل قد يتضررون إذا طلبوه مثل مَن لا يمكنه فهم العلم الدقيق إذا طلب ذلك؛ فإنه قد يفسد عقله ودينه، أو من لا يمكنه الصبر على مرارة الفقر ولا يمكنه الصبر على حلاوة الغنى، أو لا يقدر على دفع فتنة الولاية عن نفسه والصبر على حقوقها)[8].

وقال أيضاً: (ومن هذا الباب: صار الذِّكر لبعض الناس في بعض الأوقات خيراً من القراءة، والقراءة لبعضهم في بعض الأوقات خيراً من الصلاة، وأمثال ذلك؛ لكمال انتفاعه به، لا لأنه في جنسه أفضل)[9].

ويمكننا هنا أن نستحضر موقف الإمام مالك لما كتب له العمري يحضه على الانفراد والتعبد وترك العمل الاجتماعي الذي كان يقوم به، فإنه أجابه بقوله: (إن الله - عز وجل - قسم الأعمال كما قسم الأرزاق؛ فرب رجل فُتِح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم... ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد

(١) البحر المحيط للزركشي: (٤/ ٥٨٤).
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي: (١/ ٢٦٣)، وانظر مقالاً بعنوان: خطأ القول بأن الشافعي غيَّر مذهبه مراعاة للفوائد، علوي السقاف، موقع التبصرة:www.tabsera.com
(٣) ص ٢٦٥، وانظر تاريخ بغداد: (٦/ ٣٦٣).
(٤) مجلة الأحكام العدلية المادة رقم ٣٩.
(٥) صحيح البخاري: (١٤٢٢)، وصحيح مسلم: (١١٨).
(٦) صحيح البخاري: (٢٥٧٤)، وصحيح مسلم: (١٢٠).
(٧) فتح الباري لابن حجر: (١/ ١٨).
(٨) مجموع الفتاوى: (١٩/ ١١٩).
(٩) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٩٨).

رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير)[1].

وقال الشاطبي: (ويختص غير المنحتم بوجه آخر، وهو النظر في ما يصلح بكل مكلَّف في نفسه بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص؛ إذ النفوس ليست في قبول الأعمال الخاصة على وزان واحد، كما أنها في العلوم والصنائع كذلك)[2].

والحاصل أن الفقية قد يؤكد أو يوجب أو يستحب فعل شيء في وقت لعموم الناس أو طائفة معيَّنة لاعتبارات، ثم لتغيُّرها بالنسبة للمكلفين أنفسهم يغيِّر ذلك.

ولذا قد يتأكد الجهاد، أو الرد على أهل البدع، أو الإنكار على العصاة، ثم يؤكِّد في حين آخر على إصلاح النفس وتهذيبها والاهتمام بالذكر والتعبدات، ولو على حساب ما سبق؛ لأنه كالطبيب ينظر في كل ما يُصلِح المكلَّفين بالنظر لما يحيط بهم من تفاوت قُدرَتهم أو ظروفهم زماناً ومكاناً ومستوى إيمانهم وانتفاعهم.

ومن الأصناف التي تدخل تحت هذا النوع من تغيُّر الأحكام:

■ **تغيُّر الحكم بالنظر لتحقق شرط الوجوب أو الاستحباب في المكلَّف:** فالزكاة إنما تجب على من ملك نصاباً؛ فإذا نقص ما يملكه بعد ذلك عن النصاب لم يجب عليه، والحج يجب بشرط الاستطاعة؛ فلو لم يستطع لم يجب عليه.

■ **تغيُّر الحكم بالنظر لقدرة المكلَّف:** فالوضوء يجب بالقدرة عليه؛ فإذا لم يقدر على الماء سقط وجوب الوضوء ولزم التيمم، والقيام في الصلاة تجب بالقدرة وتسقط بزوالها؛ فيصلي قاعداً.

■ **تغيُّر الحكم بالنظر لوقوع المكَّف تحت ظرف مخفف موجب للتيسير:** كالاضطرار؛ فالمضطر ينقلب الحرام في حقه حلالاً. قال - تعالى -: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ**﴾ [**الأنعام**: ١٩٩]. فيكون الحرام بالنسبة للمكلَّف المضطر إليه حلالاً؛ فالصيام الواجب إذا لحق المكلَّفَ منه ضرر صار حراماً عليه.

■ **تغيُّر الحكم باعتبار حال الإنسان:** فالقُبْلة للصائم يختلف حكمها باختلاف الفاعل فقد رخَّص النبي ﷺ بها للشيخ ونهى الشاب عنها[3]. وسئل ابن عباس - رضي الله عنه - عن توبة القاتل فقال: لا توبة له. وسأله آخر فقال: له توبة. فلما سُئل قال: أمَّا الأول فرأيت في عينيه إرادة القتل فمنعتُه، وأما الثاني فجاء مستكيناً فلم أقنِّطه من رحمة الله[4].

■ **ومن ذلك كل باب السياسة الشرعية التي يقضي بها الفقيه:** فيقرر حكماً بالنظر لحال الناس أو فئة منهم لا باعتبار اختياره للرأي في كل زمان ومكان، بل في هذه الظروف والأحوال نفسها فحسب.

وقد ناقش العلاَّمة ابن القيم فتوى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في جعل الطلاق: الثلاث بفم واحد ثلاث طلقات، ونقل أن المطلَّق في زمن النبي ﷺ وزمن خليفته أبي بكر، إذا جمع الثلاث، جُعلَت واحدة. قال: (إذا عُرِف هذا، فهذه المسألة مما تغيَّرت الفتوى بها بحسب الأزمنة لِمَا رأته الصحابة من المصلحة؛ لأنهم رأوا مفسدةَ تتبعِ الناس في إيقاع الثلاث لا تندفع إلا بإمضائها عليهم، فرأوا مصلحة الإمضاء أقوى من مفسدة الوقوع)[5].

ويأتي لهذا مزيد بيان.

## ثانياً: تغيُّر الأحكام بالنظر للحكم نفسه:

ويكون بالنظر للحكم لا باعتبار المكلَّف به ولا باعتبار المجتهد، وهذا التغيُّر يحصل بنسخ الحكم. قال - تعالى -: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [**البقرة**: ١٠٦]؛ فالنسخ يغير الحكم، وهو تغيير راعى فيه الشارع الحكيم مصلحة المكلَّف والخيرَ له. وفي القرآن والسُّنة من الشواهد على النسخ ما لا يخفى.

وفي النسخ يتغيَّر الحكم لما هو أخف أو لما هو أغلظ أو لما يساوي الحكم المنسوخ، أو يرتفع الحكم كله إلى غير بدل.

وهذا التغيُّر تغيُّر دائم لا ارتباط له بحال المكلَّف وكما يكون تغيُّر الحكم بالنسخ فهو حاصل بالنسأ على قراءة ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنسَأْهَا**﴾ [**البقرة**: ١٠٦]. قال البيضاوي: (قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ننسأها، أي: نؤخِّرها من النسء. وقرئ: ﴿نُنسِهَا﴾؛ أي نُنَسِّ أحداً إياها)[6].

وهذا التأخير قد يكون في النزول، وقد يكون تأخيراً للحكم إلى أوانٍ مخصوص دون إلغاء له بالكلية؛ فقد ذهب بعض المحققين إلى أنَّ بعض الأحكام التي قيل بنسخها، إنما أُخِّر العمل بها ولم تنسخ بالكلية.

قال الزركشي: (ما أُمر به لسبب ثم يزول السبب؛ كالأمر حين

(١) التمهيد لابن عبد البر: (٧/ ١٨٥).
(٢) الموافقات: (٤/ ٩٨).
(٣) سنن أبي داود: (٢/ ٧٨٠).
(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٣٧).
(٥) إعلام الموقعين: (٢/ ٤١).
(٦) تفسير البيضاوي: (١/ ١٤٥).

الضعـــف والقلة بالصبر والمغفرة للذين يرجون لقاء الله، ونحوه من عـــدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ثم نســـخه إيجابَ ذلك، وهذا ليس بنسخ في الحقيقة وإنما هو نَسْء، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكـــون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا التحقيق تبيَّن ضعف ما رجَّح به كثير من المفســـرين في الآيات الآمـــرة بالتخفيف أنها منســـوخة بآية السيف، وليســـت كذلك؛ بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثالـــه في وقتٍ مَّا لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر وليس بنســـخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً)[1].

وعليه فالنسء للحكم عائد للنوع الأول المتقدم، وإن قيل بأن المراد بالنسء تأخير نزول الناسخ لا تأخير الحكم وإرجاء العمل به.

والحاصل أن النســـخ تغيير للحكم بأمر رباني وتشريع إلهي اقتضته حكمة الله، وهو - سبحانه - إنما شرع الأحكام لمصالح الخلق؛ لأنه الغني عن عبـــاده، كما قال - تعالى -: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا**﴾ [**الأنفال**: ٦٦].

وقال في نســـخ القبلة: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٤٤]

### ثالثاً: تغيُّر الحكم باعتبار اجتهاد المجتهد فيه:

وهذا يتعلـــق بالأحكام الاجتهادية؛ إذ المنصوص عليه لا يمكن تغيُّره إلا بالنســـخ، والنســـخُ لا يمكن بعد انقضاء زمن التشـــريع واكتمال الدين، وإن أمكن تطرُّق النوع الأول من التغيُّر لها لارتباطه بالمكلَّف باعتبار تغيُّر أحواله.

والمجتهد يتغيَّر الحكم بالنســـبة لاختياره وترجيحه لأسباب عديدة؛ فما يندرج تحت هذا النوع من أصناف هي كالتالي:

■ **تغيُّـــر الحكـــم باعتبار أنـــه بُني على العـــرف؛ فإنه متى تغيَّر العرف، تغير ما انبنى عليه:**

ومعلوم أنـــه (بتغير الأزمان تتغير احتياجـــات الناس، وبناءً علـــى هذا التغيُّر يتبـــدل أيضاً العرف والعـــادة؛ وبتغير العرف والعادة تتغيـــر الأحكام؛ بخلاف الأحكام المســـتندة على الأدلة الشـــرعية التي لم تُبْنَ على العرف والعادة فإنها لا تتغير، مثال ذلـــك: جزاء قاتل العمد: القتل، فهذا الحكم الشـــرعي الذي لم يســـتند على العرف والعادة لا يتغير بتغيُّـــر الأزمان، وأما الذي يتغيـــر من الأحكام بتغيُّر الأزمان فإنمـــا هي المبنية على العرف والعادة، ومثال ذلك عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشـــترى أحد داراً اكتفى برؤية بعض بيوتها، وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل بيت منها على حدته، وهذا الاختلاف ناشئ عن اختلاف العرف والعادة في أمر الإنشـــاء والبنـــاء؛ فالعادة قديماً أن تكون جميع البيوت متســـاوية وعلى طراز واحـــد؛ فكانت رؤية بعض البيوت تغني عن رؤية سائرها، وأما بعد ذلك فقد جرت العادة اختلاف البيوت في الشـــكل والحجم؛ فلزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد)[2].

■ **تغيُّـــر الحكم باعتبـــار بناء الحكم علـــى المصلحة التي متى تغيرت تغيَّر الحكم المبني عليها:**

فمتى حرَّم الفقية شـــيئاً لأن مفاســـده غالبة، أو أباحه أو اســـتحبه لغلبة مصالحه ثم تغير الحال فعلاً، فإن الحكم يتغير تبعاً، وقد نقلنا سابقاً ما قرره ابن القيم في طلاق الثلاث.

وهـــذا النظر المصلحي قد يكون فرديـــاً فيعود للنوع الأول؛ كما لو افتى الفقيه بحرمة دخول شـــخص للسوق لكونه يفعل فيـــه ما لا يحل، وقد يكون عامّاً وهو ما يندرج هنا وأمثلته كثيرة لا تحصى، وكثيراً ما يكون ذلك ســـبباً لطعن بعض المخالفين في الفقهاء وقـــد غفلوا عن أن ما بنى عليه الفقيـــه رأيه قد تبدَّل فتبدل رأيه تبعاً لذلك. قال الشاطبي: (إنَّا وجدنا الشارع قاصداً لمصالـــح العباد والأحـــكام العادية تدور معـــه حيثما دار، فترى الشيء الواحد يُمنَع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز)[3].

■ **تغيُّـــر الحكـــم باعتبـــار تغيُّر الترجيح لوقـــوف المجتهد علـــى دليـــل جديـــد، أو مرجِّـــح أو عاضـــد أو لزيـــادة التأمـــل الفقهي المقتضي لتقوية قول كان مرجوحاً في نظره، ونحو ذلك:**

وهـــذا كثير جداً قد وقع للصحابة - رضي الله عنهم - فمن بعدَهـــم، وقصة عمر بن الخطاب - رضـــي الله عنه - في قضية التشـــريك بين الإخوة الأشـــقاء والإخوة لأم في المسألة الحمارية مشـــهودة؛ فإنه قضى بالتشريك ثم تركه فقيل له: ما هكذا حكمت أولاً فقال: (تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي)[4].

وقـــد كتب - رضي الله عنه - إلى أبي موســـى: (لا يمنعنك قضـــاءٌ قضيته بالأمس، ثم راجعت نفســـك فيـــه اليوم فَهُديت لرشـــدك أن تراجع فيه الحق؛ فإن الرجـــوع إلى الحق خيرٌ من

(١) البرهان في علوم القرآن: (٢/ ٤٢).

(٢) درر الحكام شرح مجلة الأحكام، علي حيدر: (١/ ٤٨).

(٣) الموافقات: (٢/ ٣٠٥).

(٤) سنن البيهقي (١٠/ ١٢٠)، باب من اجتهد ثم تغيَّر اجتهاده.

التمادي في الباطل)[1].

■ **تغيُّـر فـي الحكم فـي المسـألة المعيَّنة لموجـب يخصُّها كجريـان العمل - مثلاً - أو دفع لمفسـدة تحصل عند الأخذ بالقول الآخر:** قال في مراقي السعود:

وقـــدِّم الـضـعـيـف إن جـــرى عـمـلٌ
بـــه مـــن أجـــل ســبـب قـــد اتـصـل

ومثال ذلك: النكاح بدون ولي عقد فاســد على الصحيح من أقوال الفقهاء، ومع ذلك قال الشــاطبي: (فمن واقَع منهياً عنه فقـد يكـون في ما يترتب عليـه مـن الأحكـام زائداً على ما ينبغي بحكم التبعيَّة، أو مؤدياً إلى أمر أشــد عليه من مقتضى النهي، فيترَك وما فعل من ذلك، أو نجيز ما وقع من الفســاد على وجه يليــق بالعدل نظراً إلى أن ذلــك... وإن كان مرجوحاً فهو راجح بالنســبة إلى إبقاء الحالة على ما وقعت عليه؛ لأن ذلك أَوْلَى من إزالتها مع دخول ضرر على الفاعل أشــد من مقتضى النهي... فالنكاح المختلَف فيه قد يُراعَى فيه الخلاف فلا تقع فيه الفُرقة إذا عُثِر عليه بعد الدخول)[2].

ويقول الســبكي: (إذا قصد المفتي الأخــذ بالقول المرجوح مصلحة دينيَّة جاز)[3].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: (المسألة الخلافية إذا وقعت فيها الضرورة... جــاز للمفتي أن يأخذ بالقول الآخر من أقوال أهل العلم الذي فيه الرخصة)[4].

وقد قال ابن تيمية - رحمه الله -: (إذا فعل المفضولَ عنده لمصلحــة الموافقة والتأليف التي هــي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة كان جائزاً حسناً)[5].

وقد سبق لنا أن نقلنا قول الشيخ محمد بن عثيمين في جواز الإفتاء بالمرجوح لدفع مفسدة أو تحقيق مصلحة؛ وذلك مشروط بعدم مخالفة نص شرعي[6].

## المقصود من تغيُّر الأحكام:

إن الحكمة البالغة التي اقتضت هذا التغيُّر هي أن الشــرع جاء بمصالح العبــاد؛ ولذا قال ابن القيم: (فصــل في تغيُّر الفتوى واختلافهــا. هذا فصل عظيم النفع جداً وقع بســبب الجهل به غلط عظيم على الشــريعة؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها)[7].

وهذا من أوجه بيان صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان؛ فأحوال العالم وعاداتهم ومصالحهم لا تدوم على وتيرة واحدة؛ ولهذا تتبدل الشــرائع وتتفاوت، وكان ختام الشرائع شريعة الإسلام التي قعَّدت قواطع لا يمكن اختلافها إلا بالنظر لظرف يخص أفرادها فقط.

وأبقت جزئيات يمكن تفاوتها وتغيُّرها وتبدُّلها تبعاً للظروف، وهي مع خضوعها للتفاوت إلا أنها مع تفاوتها في كل حال ترجع إلى أصل شــرعي يُحكَم به عليها ويجتهــد الفقيه في إلحاقها بأنسب الأصول الشرعية. فمعنى التغيُّر انتقال الفرع عن الأصل الذي حكم به عليه إلى أصل شرعي آخر.

وكذلك فــإن النوايا والإرادات والأحــوال تختلف فيختلف الحكم عليها. قال الشــاطبي: (الاقتضاء التبعي هو الواقع على المحل مع اعتبار التوابــع والإضافات: كالحكم بإباحة النكاح لمن لا إرب له في النســاء، ووجوبه على من خشــي العنت، وكراهية الصيــد لمن قصد فيه اللهو، وكراهية الصلاة لمن حضره الطعام أو لمن يدافعه الأخبثان)[8].

ولذلــك كان من أهم مــا يُطلَب من المفتــي علمه بواقعه وإدراكه لأبعاده؛ ليحقق مقصد التشريع في فتواه، ويلحق الصورة المعروضة بالقاعدة الشرعية بأكمل وجه.

وبهــذا التغيُّر يواكب الفقه تغيُّــر المجتمع في أعرافه، وفي اختلاف أحوال المصالح والمفاســد والظــروف، كما أنه يواكب النحو الذهني والقــدرة الاجتهادية والآلة الفقهية لدى المجتهد، وكل ذلك يصب في مراعاة مصالح الخلق التي جاء الشرع بها.

والحقيقة أن من الناس مــن يطعن في الفقيه إذا غيَّر رأيه بأنه لم يبنِه في الأصل على ملحظ مناســب، ومنهم من ينســبه للخضوع للواقع.

وكلاهمــا فيه ظلم للفقيه الذي يبذل جهده للاســتجابة للواقع وظروفه بحسب القواعد والأصول الشرعية حسبما يفهمه من الشرع، ومتى استجاب للظروف وطبَّق عليها قواعد الشرع فهو الفقيه.

ولــذا قال ﷺ في مــن لم يُراعِ حــال المريض عند حصول الجنابة به فأمره بالغسل فمات: «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ إنما شفاء العي السؤال»[9].

دليــل على أن من لم يســتجب للواقع والظروف بحســب القواعــد والأصول، ويعرف أحوال المســتفتين، فهو جاهل ليس بفقيه، والله المستعان.

---

(١) سنن الدار قطني: (٤/٢٠٦)، باب: كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري.
(٢) الموافقات: (٤/٢٠٣).
(٣) الفوائد المدنية، ص ٢٣٦.
(٤) فتاوى ورسائل: (١١/٢٧٢).
(٥) مجموع الفتاوى: (٢٤/١٩٥).
(٦) في مقالنا (تيسير الفتوى ضوابط وصور عملية) المنشور في مجلة البيان.
(٧) إعلام الموقعين: (٢/١).
(٨) الموافقات: (٢/٢٥).
(٩) سنن أبي داود: (٣٣٦) بسند صحيح عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما.

7600 أسير فلسطيني يقبعون في سجون الاحتلال، يعيشون في ظروف قاسية وغير إنسانية

# من حقهم الحياة بحرية..

الحملة الدولية للإفراج عن الأسرى في سجون الاحتلال الصهيوني

www.asra-ps.org

# ولاية المظالم

**محمد بن شاكر الشريف**
alsharif@albayan.co.uk

مما تميزت به جهود الفقهاء في عصور الإسلام الأولى مواجهةُ المستجدات الاجتماعية وغيرها بالحلول المناسبة التي تميزت بأمرين:

الأول: واقعية هذه الحلول وقدرتها على تحقيق المراد على أفضل الوجوه وأحسنها.

الثاني: انبثاق هذه الحلول من نصوص الشريعة وقواعدها وعدم الخروج عليها أو مخالفتها.

وتُعَدُّ ولاية المظالم من تلك الحلول التي واجه بها الفقهاء الحالات التي يكون فيها المعتدي أعلى شأناً وأقوى يداً من المعتدى عليه، وهذا يكون في أوضح صوره عندما يكون المعتدي من أصحاب السلطان أو الوجاهة (الحسب والنسب والثراء)، ويكون المعتدى عليه من عامة الناس، وفي هذه الحالة قد يعجز القاضي العادي عن إنصاف المظلوم (الطرف الضعيف) من الظالم (الطرف الأقوى) وأَخْذ الحق منه، وهذا يكثر عندما يضعف الإيمان في القلوب ويقل الخير في الناس.

وقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – من الخلفاء الذين حضُّوا رعيتهم على التظلُّم من الولاة الظالمين الذين يمنعون الناس حقوقَهم أو يعاقبونهم بالظلم. قال عمر – رضي الله تعالى عنه –: «إني – والله – ما أُرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أُرسِلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسنَّتكم؛ فمن فُعِلَ به شيء سوى ذلك فَلْيرفعه إليَّ؛ فوالذي نفسي بيده إذاً لأقصنَّه منه، فوثب عمرو ابن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين! أوَ رأيت أن كان رجل من المسلمين على رعية فأدَّب بعض رعيته أئنك لمقتصه منه؟ قال: إي، والذي نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمِّروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تُنزلوهم الغياض فتضيعوهم»[1]، فهذا توجيه الخليفة الراشد عمر – رضي الله تعالى عنه – القائم على النصوص الشرعية والسوابق التاريخية في وجوب العدل والإنصاف ومَنْع الظلم في جميع الصور والأحوال.

(١) أخرجه أحمد في مسنده مسند العشرة، رقم ٢٧٣، وأبو داود كتاب الديات، رقم ٣٩٣٣، تجمروهم: تجمير الجيش جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهليهم، الغياض: جمع غَيْضة وهي الشجر المُلْتَفُّ؛ لأنهم إذا نزَلُوها تفرَّقوا فيها فتمكَّن منهم العدوُّ.

## المظالم في التاريخ:

لم تكن المظالم في أول أمرها ولاية من الولايات السلطانية، وإنما كانت مسلكاً وعملاً يقوم به وليُّ الأمر أو المتنفذون في المجتمع، وقد تطور الأمر من مسلك يقوم به ولي الأمر إلى تأسيس ولاية شرعية ومؤسسة نظامية يشرف عليها أمير المؤمنين ولم تعد همَّة شخصية بحسب همة المتولي ونشاطه، عُرِفَت باسم ولاية المظالم.

وأول ما نقابله من المظالم هو ما عُرِف بحلف الفضول قبل الإسلام؛ حيث تعاقد المتحالفون على أن يكونوا يداً للمظلوم على الظالم حَتَّى يُؤَدِّي إِلَيْهِ حقه وسبب ذلك أن رجلاً من بني زبيد قدم مَكَّة بسلعة لَهُ فَبَاعَهَا من الْعَاصِ ابن وَائِل فظلمه ثمنهَا ولم يمكنه أخذ حقِّه منه بعدما طَافَ فِي الأحلاف: عبد الدَّار، وجُمَح وَسَهْم، ومخزوم، فَسَأَلَهُمْ أن يعينوه على الْعَاصِ بن وَائِل فزجروه وتجهموه وَأَبُو أَن يغلبوه على الْعَاصِ. فَلَمَّا نظر إِلَى سِلْعَته قد حيل دونهَا رقي على جبل أبي قبيس عِنْد طُلُوع الشَّمْس وقريش فِي أنديتها فصاح بِأَعْلَى صَوته وأنشد شعراً يستعدي فيه على العاص فَقَالَ الزبير بن عبد الْمطلب: إن هَذَا الأمر مَا يَنْبَغِي لنا أن نمسك عَنهُ فَطَافَ فِي بني هَاشم وزهرة وأسد وتيم فَاجْتمعُوا فِي دَار عبد الله بن جدعَان وتحالفوا على رد المظالم بمكة، وأن لا يُظلَم أحد إلا منعوه وأخذوا للمظلوم حقه، ثمَّ نهضوا إِلَى الْعَاصِ بن وَائِل فنزعوا سِلْعَة الزبيدِيِّ ودفعوها إِلَيْهِ، فَقَالَت قُرَيْش: إِنَّه قد دخل هَؤُلَاءِ فِي فضل من الْأَمر فَسمي حلف الفضول، وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف في الجاهلية، وقال عنه ﷺ: «شَهِدْتُ حِلْفاً فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ: بَنِي هَاشِم، وَزُهْرَةَ، وَتَيْم، وَأَنَا فِيهِمْ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَام لَأَجَبْتُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَخِيسَ بِهِ وَإِنَّ لِي حُمْرَ النَّعَم» قَالَ: وَكَانَ مُحَالَفَتُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوف، وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَر، وَأَنْ لَا يَدَعُوا لِأَحَد عِنْدَ أَحَد فَضْلاً إِلَّا أَخَذُوهُ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَ حِلْفَ الْفُضُول»[1]، وقد عدَّ أهل العلم بعض الأحداث التي حدثت زمن الرسول ﷺ من باب المظالم كقضائه في الشرب الذي كان بين الزبير وأحد الأنصار، لكن المظالم لم تكن في ذلك الوقت ولاية، وكان الأمر على ذلك زمن خلافة الراشدين. قال الماوردي: «ولم ينتدب للمظالم من الخلفاء الأربعة أحد؛ لأنهم في الصدر الأول مع ظهور الدين عليهم بين من يقوده التناصف إلى الحق، أو يزجره الوعظ عن الظلم، وإنما كانت المنازعات تجري بينهم في أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء»[2].

قال الماوردي: «احتاج علي - رضي الله عنه - حين تأخرت إمامته واختلط الناس فيها، وتجوزوا إلى فضل صرامة في السياسة، وزيادة تيقظ في الوصول إلى غوامض الأحكام، فكان أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها، ولم يخرج فيها إلى نظر المظالم المحض لاستغنائه عنه». ثم قال: «ثم انتشر الأمر بعده حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجاذب، فاحتاجوا في ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي يمتزج به قوة السلطنة بنَصَف القضاء، فكان أولُ من أفرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلِّمين من غير مباشرة للنظر عبدَ الملك بنَ مروان... ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة ما لم يكفُّهم عنه إلا أقوى الأيدي وأنفذ الأوامر، فكان عمر ابن عبد العزيز - رحمه الله - أول من ندب نفسه للنظر في المظالم، فردَّها وراعى السنن العادلة وأعادها، وردَّ مظالم بني أمية على أهلها ثم جلس لها من خلفاء بني العباس جماعة فكان أول من جلس المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، ثم المأمون، فآخر من جلس لها المهتدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها»[3]، وأما زمنُ عدِّها ولاية سلطانية فلم أقف على نص محدد في ذلك لكن هناك إشارة واضحة تدل على أن تلك الولاية السلطانية كانت معروفة سنة ١٣٦هـ كما جاء في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم[4].

## ولاية المظالم:

هي ولاية تُعنَى بإقامة العدل وردِّ المظالم على أصحابها فهي ولاية قضائية في الذروة من ولايات القضاء بحسب ما تقضي فيه وبحسب من تقضي عليه وتفصل بينهم.

وقد عرَّف الماوردي ما تقوم به هذه الولاية بقوله: «ونَظَر المظالم هو قَوْد المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة»[5]، ويتبين من التعريف أن ولاية المظالم تفصل في أمرين:

(١) شرح مشكل الآثار للطحاوي: ١٥/ ٢٢١.

(٢) الأحكام السلطانية: ص ٨١.

(٣) الأحكام السلطانية: ص٨١ - ٨٢.

(٤) المنتظم: ٧/ ٣٣٤٠ - ٣٤١.

(٥) الأحكام السلطانية: ص ٨١.

**١ - التظالم:** حيث يدَّعي أحد على آخر أنه ظلمه ويريد حقه منه: ودور والي المظالم أن ينصف أحدهما من الآخر، فإذا كان المتظالمان في رتبة واحدة كان القضاء العادي كفيلاً بإنصاف أحدهما من الآخر. أما إذا كان أحد الطرفين أعلى شأناً وأقوى يداً من الآخر؛ كأن يكون من الولاة - مثلاً - والآخر من العامة احتيج لولاية المظالم فيها لقوة والي المظالم ورهبته.

**٢ - التنازع:** حيث يثور النزاع ويجحد المتنازعان أو أحدهما ما للآخر: فبالرهبة يقود والي المظالم المتظالمين إلى التناصف، وبالهيبة يزجر المتنازعين عن التجاحد.

قال ابن خلدون: «وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السَّلطنة ونَصَفَة القضاء وتحتاج إلى علوِّ يدٍ وعظيم رهبةٍ تقمع الظَّالم من الخصمين وتزجر المتعدِّي وكأنَّه يُمضِي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه»[١].

## شروط والي المظالم:

لما كان جُلُّ عمل والي المظالم النظرَ في أعمال الولاة ورجال الدولة؛ حيث يتترسون أو يتحصنون خلف مراكزهم، وحتى يقوم والي المظالم بما هو مرجوٌّ منه على الوجه اللائق احتاج والي المظالم أن يكون ذا صفات خاصة تؤهِّله للقيام بذلك، وهي صفات القاضي وزيادة؛ وذلك راجع لطبيعة الولاية وقد بيَّنها الماوردي بقوله: « فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليلَ القدر، نافذَ الأمر، عظيمَ الهيبة، ظاهرَ العفة، قليلَ الطمع، كثيرَ الورع؛ لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحُماة وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين»[٢].

فعندما تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجاذب، فاحتاجوا في ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي يمتزج به قوة السلطنة بنَصَفة القضاء.

ويغلب على عمل والي المظالم النظرُ في أعمال الولاة ورجال الدولة في تعاملهم مع عامة الناس؛ لأنهم الطرف الأقوى، وليس هذا قاصراً على الظلامات الشخصية التي تكون من الوالي إزاء أحد الرعية، ولكن أيضاً إذا تجاوز الوالي الأحكام والأنظمة المرعية وانتقل إلى بدل منها بغير مسوِّغ مقبول؛ فإن على والي المظالم أن يردَّه عن ذلك ويبطل تصرُّفَه؛ بحيث لا يترتب عليه أثر؛ وذلك أن الأمير أو الوالي ليس مطلقَ التصرف في ما يأتي ويذر، بل عليه أن يتقيد بأحكام الشريعة ويخضع لها.

## تكوين مجلس والي المظالم:

نظراً لطبيعة الدور الذي يقوم به والي المظالم فإنه يحتاج لفريق عمل حتى ينجز عمله على الوجه الأكمل، وقد بيَّن الماوردي هذا الفريق ودَوْر كل واحد فيه، فقال: «ويستكمل [والي المظالم] مجلس نظره بحضور خمسة أصناف لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم:

أحدهم: الحماة والأعوان لجذب القوي وتقويم الجريء، وقد يكون من تطبيق ذلك أن تكون هناك وحدة من الشرطة تابعة لوالي المظالم تبعية كلِّية.

والصنف الثاني: القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ومعرفة ما يجري في مجالسهم بين الخصوم.

والصنف الثالث: الفقهاء ليرجع إليهم في ما أشكل ويسألهم عما اشتبه وأعضل.

والصنف الرابع: الكتَّاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم، وما توجب لهم أو عليهم من الحقوق.

والصنف الخامس: الشهود ليُشهدَهم على ما أوجبه من حق وأمضاه من حكم، فإذا استُكمِل مجلس المظالم بمن ذكرنا من الأصناف الخمسة شرع حينئذٍ في نظرها»[٣].

وينظر والي المظالم في ما يتعلق بالولاة ورجال الدولة في ما يلي:

١ - في تعدي الولاة على الرعية وأَخْذهم بالعسف في السيرة، فيكون لسيرة الولاة متصفحاً عن أحوالهم مستكشفاً ليقويهم إن أنصفوا، ويكفهم إن عسفوا، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا، فهذا من لوازم النظر في المظالم الذي لا يقف على ظلامة متظلِّم؛ إذ ذلك من طبيعة عمله؛ فهو بمنزلة الرقيب الذي يتابع ويرصد التصرفات، وله صلاحية التصرف في إحقاق الحق وإبطال الباطل

لَمَّا تولى يوسف بن يعقوب سنة ٢٧٧هـ المظالم ببغداد «نودي في الناس: من كانت له مظلمة - ولو عند الأمير الناصر لدين الله الموفق [وهو أخ الخليفة المعتمد وكان ولياً للعهد]، أو عند أحد من الناس -

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/٢٧٦.
(٢) الأحكام السلطانية: ص ٨١.
(٣) الأحكام السلطانية: ص ٨٣ - ٨٤.

فَلْيحضر، وسار [يوسف بن يعقوب] في الناس سيرة حسنة، وأظهر صرامة لم يُرَ مثلها»[1].

ولعل من مظاهر تعدِّي الولاة على الرعية هو سياستهم بمجرد الرأي أو الاجتهاد الشخصي من غير رجوع للأحكام والأنظمة المعتمدة من قِبَل دولة الإسلام أو بالمخالفة لها، ويكون دور ولاية المظالم في هذه الحال هو الحفاظ على تقيد الدولة بالأحكام الشرعية وبالنظام المعتمد، وهو ما يعني خضوع سائر التصرفات والنشاطات للأفراد والجماعات للأحكام الشرعية والنظم المرعية.

٢ – في جور العمال في ما يَجْبُونه من الأموال: فيُرجَع فيه إلى القوانين العادلة في دواوين الأئمة فيحمل الناس عليها، ويأخذ العمال بها وينظر في ما استزادوه، فإن رفعوه إلى بيت المال أمر بردِّه، وإن أخذوه لأنفسهم استرجعه لأربابه، وعاقب العمال لخيانتهم

٣ – في كتَّاب الدواوين؛ لأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم في ما يستوفونه له ويوفونه منه: فيتصفح أحوالهم في ما وُكِل إليهم، من زيادة أو نقصان، وهذه الأقسام الثلاثة لا يحتاج والي المظالم في تصفحها إلى تظلُّم متظلِّم.

٤ – تظلُّم المسترزَقة (الموظفين) من نقص أرزاقهم، أو تأخُّرها عنهم وإجحاف النظر بهم، فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجريهم عليه، وينظر في ما نُقصُوه أو مُنِعوه من قَبْل؛ فإن أخذه ولاة أمورهم استرجعه منهم، وإن لم يأخذوه قضاه من بيت المال.

٥ – في ما اغتصبه الولاة أو أقاربهم من أربابه: فمتى ما علم بذلك ردَّه عليهم، حتى وإن لم يطالب به أصحابه، «ورد رجل من هَراة فرفع قصته إلى عبد الله بن طاهر [وكان أميراً]. فلما قَدِم بين يديه قال: من خصمُك؟ قال: الأمير أيَّده الله. قال: ما الذي تدَّعي عليَّ؟ قال: ضيعةٌ لي بهراة غصبنيها والد الأمير، وهي اليوم في يده. قال: ألك بيِّنة؟ قال: إنما تقام البينة بعد الحكومة إلى القاضي؛ فإن رأى الأمير – أيَّده الله – أن يحملني وإياه على حكم الإسلام. قال: فدعا عبد الله ابن طاهر بالقاضي نصر بن زياد، ثم قال للرجل: ادَّعِ. قال: فادَّعى الرجل مرة بعد أخرى. فلم يلتفت إليه نصر بن زياد، ولم يسمع دعواه. فعلم الأمير أنه قد امتنع عن استماع الدعوى حتى يجلس الخصم مع المدعي، فقام عبد الله بن طاهر من

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٦٧/١١.

مجلسه حتى جلس مع خصمه بين يديه، فقال نصر للمدَّعي: ادَّع. فقال: أدَّعي – أيَّد الله القاضي – أن ضيعة لي بهَراة وذكرها بحدودها وحقوقها، هي لي في يدي الأمير، فقال له الأمير عبد الله بن طاهر: أيها الرجل، قد غيَّرت الدعوى إنما ادَّعيت أولاً على أبي. فقال الرجل: لم أشته أن أفضح والد الأمير في مجلس الحكم، أدَّعي أن والد الأمير قد كان غصبني عليها، وإنها اليوم في يد الأمير، فسأل نصر بن زياد عبد الله ابن طاهر عن دعواه فأنكره، فالتفت إلى الرجل فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فما الذي تريده؟ قال: يمين الأمير بالله الذي لا إله إلا هو. قال: فقام الأمير إلى مكانه وأمر الكاتب ليكتب إلى هَراة بردِّ الضيعة عليه»[2].

٦ – في تنفيذ ما وقف القضاة من أحكامها لضعفهم عن إنفاذها، وعجزهم عن المحكوم عليه؛ لتعزُّزه وقوة يده، أو لعلوِّ قدره وعِظَم خطره، فيكون ناظر المظالم أقوى يداً وأنفذ أمراً، فينفِّذ الحكمَ على من توجه إليه بانتزاع ما في يده، أو بإلزامه الخروج مما في ذمته.

٧ – في ما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة: كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه، والتعدي في طريق عجز عن منعه، والتحيُّف في حق لم يقدر على ردِّه، فيأخذهم بحق الله – تعالى – في جميعه، ويأمر بحملهم على موجبه.

يتبين من ذلك أن ولاية المظالم ولايةُ قضاء هدفها إقامة العدل وإشاعته وكفُّ الظلم ومحاربته، وتستمد قوَّتها وقدرتها على تحقيق الهدف منها من متوليها؛ وهو أمير المؤمنين أو نائبُه أو من يفوِّضه في القيام بذلك، وعندما تعود مثل هذه الولايات لمزاولة أعمالها على الوصف المذكور يعم العدل ويرتفع الظلم ويسود الأمن والسلام مجتمعنا المسلم.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٢٤٧/١١ – ٢٤٨، ومختصر تاريخ دمشق: ٢٢٦/٤.

# ترجمات المستشرقين لمعاني الكتاب المبين(*)

فيصل بن علي الكاملي(**)
popedia@windowslive.com

يرى بعض المؤرخين أن أوَّل ترجمة لمعاني القرآن سجَّلها التاريخ هي ما كان في أثناء الهجرة إلى الحبشة عندما قرأ جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – على النجاشي آيات من سورة مريم ثم تُرجمَت له. ويذكر الإمام السرخسي في «المبسوط» «أن الفرس كتبوا إلى سلمان [الفارسي] – رضي الله عنه – أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية»(١). لكنَّ هذا الخبر «مجهول الأصل لا يُعرَف له سند» كما ذكر الزرقاني في «مناهل العرفان»،(٢) فلا يعوَّل عليه.

ومن بواكير الترجمات في تاريخ الإسلام ترجمة سُريانية قام بها بعض النصارى في زمن الحجاج بن يوسف. وكذلك ترجمة فارسية لمعاني القرآن قام بها موسى بن سيَّار في مستهلِّ القرن الثالث الهجري. كما يشير «ت. و. أرنولد» إلى احتمال وجود ترجمة صينية عتيقة(٣). غير أننا لا نملك ما يثبت أو ينفي هذه الإشارات. وأودُّ الاقتصار في هذا المقال على عرض الترجمات الأوروبية التي قام بها غير المسلمين معرِّفاً ومحذِّراً.

أما أول ترجمة لمعاني القرآن إلى لغة أوروبية فتلك التي قام بها «روبيرتوس ريتنسيس» عام ١١٤٣م. وقد كانت ترجمة إلى اللغة الرومية (اللاتينية) بتكليف من رئيس دير «كلوني» «بطرس المبجل». وكان الهدف منها النَّيل من الإسلام؛ إذ كانت هذه الحقبة تشهد حروباً صليبية طاحنة. وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي طلب «الفونس العاشر» من شخص يدعى «أبراهام الطليطلي» أن يترجم له أجزاء من القرآن إلى الإسبانية فترجم له سبعين سورة(٤).

أما أول ترجمة إلى الإنجليزية فظهرت عام ١٥١٥م، وهي ترجمة جزئية لا تتجاوز إحدى وستين صفحة، كما أنها مجهولة لا يُعرَف من قام بها ولا من نشرها. إلا أنها تُستهَلُّ بعبارةٍ تُنبِئ عن مقصود صاحبها؛ إذ تقول: «هذا مبتدأُ رسالةٍ وجيزة حول الشريعة التركية المسماة بالقرآن. كما أنها تتحدث عن «مَحامِت» الساحر Machamet the Nygromancer(٥) [يعني محمداً ﷺ]»(٦).

أما أول ترجمة مكتملة إلى اللغة الإنجليزية فقام بها «الإسكندر روس» عام ١٦٤٩م، وهي ترجمة كثيرة الأغلاط ترجمها عن النسخة الفرنسية التي كان قد أعدها القنصل الفرنسي في مصر «أندريه دو رييه» ١٦٤٧م. وقدم «روس» لترجمته بقوله «ها أنذا أقدمه لك [يعني القرآن] ولم أبذل في ذلك جهداً سوى ترجمته عن الفرنسية. ولا أرتاب في أن هذا [القرآن] الذي هو سُمٌّ لجزء كبير من أُولِي السُّقم في العالم [يعني المسلمين] قد يكون ترياقاً يثبت صحة

(*) هذا البحث مختصر من كتاب: Qadhi, Y. An Introduction to the Sciences of the Qur'aan (Birmingham, UK: Al-Hidaayah Publishing and Distribution, 1999).

(**) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(١) السرخسي. المبسوط، ج ١، ص ٣٥ (وفق ترقيم المكتبة الشاملة – الإصدار الثاني).

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١١٥ (وفق ترقيم المكتبة الشاملة – الإصدار الثاني).

(3) World Bibliography of the Translations of the Meaning of the Qur'an, quoted in Qadhi, Y. An Introduction to the Sciences of the Qur'aan (Birmingham, UK: Al-Hidaayah Publishing and Distribution, 1999), p. 355–356.

(4) An Introduction to the Sciences of the Qur'aan, p. 357.

(٥) هذه التهجئة القديمة للكلمة الإنجليزية necromancer من اليونانية nekro– manteia وتعني حرفياً: «المتنبئ بالمستقبل عن طريق التواصل مع الأموات» ويقال: «ممارس السحر الأسود».

(6) Ibid.

النصرانيـــة»[1]. ولعل هذا البائـــس لم يقرأ قوله – تعالى – واصفاً كتابه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِـمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقد شـــهد على جهل هذا المتعالـــم الصليبيُ المعروف «صموئيـــل زويمر» قائلاً: «كان عديم الفقه للعربية، ولم يكن من علماء فرنسا المحقِّقين، فجاءت ترجمته بالِغةً في العجز مبلَغَه»[2].

وفي عـــام ١٦٩٨م قـــام الأب الكاثوليكـــي «لودوفيتش ماراتشي» – وقد كان كاهن اعتراف البابا «إنوسنت الحادي عشـــر» – بترجمة معاني القرآن إلـــى اللاتينية، وأصبحت هذه الترجمة أساســـاً لكثير من الترجمات الإنجليزية فيما بعد. وقد جعل «ماراتشـــي» إهداء الترجمة إلى الإمبراطور الرومي «ليوبولد الأول» وقدَّم لها بمجلد كامل أسماه «دحض القرآن». وقد أشـــار «عبد الله يوســـف علـــي» – صاحب الترجمة الإنجليزية الشـــهيرة – في مقدمة ترجمته إلى أن «ماراتشـــي» ضمَّن ترجمته «اقتباســـاتٍ من تفاسيرَ عربيةٍ مختلفة انتقاهـــا بدقة ثم لفَّقها ببعضها ليُحدِث لدى أوروبا أسوأ انطباع عن الإسلام»[3].

وفي عـــام ١٧٣٤م انتهى «جورج ســـيل» مـــن ترجمته التي اعتمد فيها على نســـخة عربيـــة للقرآن الكريم طبعت في هامبورج عام ١٦٩٤م، وهـــي لا تخلو من أخطاء. ولقلة بضاعته في العربية اتكأ على ترجمة «مراتشـــي» اللاتينية آنفـــة الذكر. لكن هـــذه الترجمة ظلت طـــوال قرنين عمدةً لدى الباحثـــين الغربيين، بل ترجمت إلى الهولندية والألمانية والفرنســـية والروســـية والســـويدية والبلغارية، بل أعيدت طباعتها أكثر من مائة وعشـــرين مرة. يقول «جورج ســـيل» مبـــرراً الحاجة إلى ترجمته: «من الضرورة بمكان أن نُخلِّص المخدوعـــين ممن تبنَّـــوا آراء إيجابية تجـــاه النص الأصلي [للقرآن] بسبب الترجمات الجاهلة أو المنحازة التي ظهرت، وأن نمكِّن أنفسنا من كشف الدجل بشكل أكثر فاعلية...»[4]، وكأن تحريف المترجمين قبله لم يكن كافياً، فاستدعى الأمر مزيداً من الافتراء على كتاب الله، عز وجل. هذه الروح التي دوَّن بها ترجمته.

أعقب هذا ترجمةُ القس «ج. م. رودويل» إلى الإنجليزية عـــام ١٨٦١م. وقد تجـــاوز في مقدمتها علـــى مقام النبوة واعتمد في ترتيب الســـور على كتاب Geschichte Des Qorans للمستشـــرق «نولدكه» زاعماً أنه ترتيب النزول. ثم ظهرت بعدها ترجمتان إنجليزيتان: إحداهما قام بها «إدوارد بالمر» عـــام ١٨٨٠م، والأخرى قام بها «ريتشـــارد بيل» عام ١٩٣٧م. وكل هذه الترجمات هي ما ننتظره ممن يحقد على الإسلام ويجهل لغة القرآن.

لكن أشهر ترجمات المستشرقين على الإطلاق هي ترجمة «آرثـــر آربري» التـــي أنجزها عـــام ١٩٥٥م. فالمترجم كان ذا باعٍ طويل في آداب العربية؛ فقد شـــغل منصب رئيس قســـم الكلاســـيكيات بجامعـــة القاهرة كمـــا درَّس العربية بجامعة كامبرج. مـــن أعماله ترجمة كتاب «طوق الحمامة» للإمام ابن حزم – رحمه الله – الـــذي يدل على تمكُّن «آربري» من آداب العربية والإنجليزية على الســـواء؛ إذ ترجم الشعر شعراً، وهو ما لا يستطيعه إلا قلة من المترجمين. فلما ترجم معاني القرآن أعيته بلاغة القرآن، فترجمتُه – في تقديري – لا تعكس تميُّزه الأدبي. لكنه لم يُخفِ عجزه بل اعتذر له قائلاً:

«إنني بتســـميتي هذا العمل «القرآن مفســـراً» لَأَخضع للرأي الإســـلامي الســـائد الذي أَدركه [المترجم الإنجليزي المســـلم] «بيكثال» بأن القرآن لا يمكن أن يُترجَم... فبلاغةُ عربيـــةِ القرآن وإيقاعُها بالِغا التفـــرُّد والقوة والتأثير، حتى إن أي ترجمة مهما كانت لن تكون – بطبيعة الأمر – ســـوى محاكاة هزيلة لبهاء الأصل [العربي] الأخَّاذ»[5].

لكن ترجمته عجزت في مواطن كان حَرِياً بمثله ألا يعجز فيها، لكنه غياب التوفيق الرباني.

أخيراً: هنـــاك ترجمة العراقي اليهـــودي «ن. ج. داود» التي انتهى منها بعد ظهور ترجمة «آربري» بعام واحد. وهي ترجمة تطفح بالأخطاء المتعمَّدة؛ فهو على سبيل المثال يترجم «بني آدم» بـ «بني الله» وهو تحريف بيِّن، وعلى مثله فَقِس.

ختاماً أؤكد: أن هذا العرض الذي قصرتُه على ترجمات المستشرقين لا يعني أن مجرد كون المرء مسلماً يتحدث لساناً أعجمياً إلى جانب لغة القرآن يخوِّله ذلك الشروعَ في ترجمة معانـــي القرآن التي هي في حقيقتها تفســـير وجيز للقرآن بلغـــة أخرى؛ فلا ينبغي أن يتصدى له إلا مَنْ جمع بين العلم الشرعي واستيعاب دقائق العربية، وامتلك قلماً أدبياً يعكس به بعض جوانب الجمال في لغة القرآن.

(1) Arberry, A. The Koran Interpreted (New York: The MacMi – lan Company, 1955), p. 8.

(2) Kidwai, A. R. English Translations of the Holy Qur'an: An Annotated Bibliography, p. 19.

(3) Yusuf Ali, A. The Holy Qur'an: Translation and Comme – tary, p. xv.

(4) Sale, George. The Koran (London: Frederick Warne and Co., 1887).

(٥) Arberry, A. The Koran Interpreted, p. 26.

# مراعاة مقتضى حال المخاطَب في البلاغة النبوية

د. يوسف بن عبد الله العليوي(*)

إذا كان الداعية إلى الله مأموراً ببلاغة القول، وقد قال الله - عز وجل - لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، فإن البلاغة مدارها على رعاية المتكلم في كلامه الفصيح لمقتضى الحال.

و (الحال) هي مجموعة الأمور التي تحيط بالكلام وتؤثِّر فيه، فتدعو إلى التكلم على وجه مخصوص؛ بحيث يكون للكلام خصوصية زائدة على أصل المراد، وهذه الخصوصية هي (مقتضى الحال)؛ فـ (الحال) في المخاطَب هي الإنكار، و (مقتضى الحال) هو تأكيد الكلام.

وللعرب وأهل العلم والبلاغة والأدب مقالات في شأن رعاية مقتضى الحال، من ذلك المقولة المشهورة عن العرب: (لكل مقام مقال)، وفيها قال الحطيئة لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

تَحنَّنْ عَلَيَّ هداك المليكُ
فإنَّ لكلِّ مقامٍ مقالاً

وكلما كان المرء مراعياً في مخاطَباته وكتاباته لبلاغة الكلام ومقتضيات الأحوال كان أسَدَّ قولاً، وأكثر تأثيراً، وأقوى إقناعاً، وأقدر على التواصل، وأقرب للقبول، وأبعد عن عثرات الكلام وسقطاته. مع التنبيه إلى أن مطابقة مقتضى الحال أمر نسبي؛ فلا يمكن لبشر أن يحيط بالأحوال جميعها، بل لا يمكن في الحال الواحدة أن يحيط بها ويدرك تمامها؛ فإن هذا لا يكون إلا لله الخبير القدير.

قال - تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (بالحكمة؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفَهْمِه وقوله وانقياده)(١).

ويُلحَظ في خطاب النبي ﷺ لغيره مراعاته للعوامل المؤثرة في شخصية المخاطَب، ويَبرز منها: ديانته، ومستوى تديُّنه، وبيئته التي عاش فيها واكتسب طباعها، ومنزلته الاجتماعية أو الوظيفية التي تضفي عليه طابعاً معيَّناً، وجنسه (ذكراً أو أنثى) وعُمُره (كهلاً أو شاباً أو طفلاً) وصفاته السلوكية التي يتصف بها.

(*) أستاذ مساعد بجامعة الإمام بن سعود بن محمد الإسلامية - الرياض.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

### ١ - مستوى التدين:

كان النبـــي ﷺ يُلين القـــول للأعراب، ثم هو قد يشـــتد في القول على بعض أصحابه الأقربين، ومن ذلك حديث أســـامة - رضي اللـــه عنه - الذي يقول فيه: بعثَنَا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة فصبَّحنا القوم، فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشـــيناه قال: لا إله إلا اللـــه، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قَدِمنا بلغ النبيَّ ﷺ فقال: «يَا أُسَـــامَةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلا الله؟» قلـــت: كان متعوذاً. وفي رواية قـــال النبي ﷺ: «أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليـــوم[١]. قال القرطبي: (وتكـــرار ذلك القول إنكار شـــديد، وزَجْر وَكِيْـــد، وإعراض عن قبول عذر أسامة)[٢]

ومـــن ذلك مـــا رواه جابر - رضي اللـــه عنه - أن معاذاً - رضي الله عنـــه - كان يصلي مع النبي ﷺ ثم يأتي قومه فيصلي بهـــم الصلاة. فصلى ليلة مع النبي ﷺ العشـــاء، ثم أتى قومه فأمَّهم، فافتتح بسورة البقرة فانحرف رجل فسلَّم، ثم صلى وحدَه صلاة خفيفة، فبلغ ذلـــك معاذاً، فقال: إنه منافـــق، فبلغ ذلك الرجلَ فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رســـول اللـــه! إنا قوم نعمل بأيدينا، ونســـقي بنواضحنا، وإن معاذاً صلى بنا البارحة، فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق، فأقبل رســـول الله ﷺ على معاذ، فقال: «يَا مُعَاذُ! أَفَتَّانٌ أَنْت؟ أَوْ: «أَفَاتِنٌ؟» ثَلاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَـــبِّحِ اسْـــمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَـــى»[٣]. ولعل توجيه الخطاب إلـــى معاذ - رضي اللـــه عنه - مع تقـــديم النداء في مقام الإنكار، واختيار صيغة المبالغة (فَتَّان) في الرواية المشـــهورة، وتكرار القول ثلاث مـــرات، لعله ليوقع في نفس معاذ - رضي الله عنه - عِظَم ما ارتكبه، مع أمْـــنِ جانب معـــاذ - رضي الله عنه - أن يرتد أو يتردد، وهو من خاصة أصحاب الرسول ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٦٩ و٦٨٧٢)، ومسلم: (٩٦).
(٢) المفهم لما أشكل من كتاب مسلم.
(٣) أخرجه البخاري: (٧٠٥ و٦١٠٦)، ومسلم: (٤٦٥).

### ٢ - نوع الديانة:

يتـأثر الخطـاب بديانة المخاطَب التي يدين بهـا، ويظهـر - مثلاً - فـــي خطـابه لليهـود تعظيـمُ الله - عز وجل - وتنزيهُـه، والتأكيـد على نبوته ﷺ وصِدْق رســـالته، وهذه المعاني يبرز خلافُها لدى يهود؛ فهم ينسبون النقائص والقبائح إلى الله - عز وجل - كقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء... وغيرها، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً. كما يراعي ﷺ ما عليه يهود من صفات الكذب والمكر والخداع، التي صارت فيهم كالجبِلَّة والديانة، ويأتي الخطاب مع اليهود يحمل معه قوة الحق وقوة الأسلوب؛ لأن اليهود أهل عناد واستكبار.

ومن أمثلة ذلك: أن النبي ﷺ لـمَّا دخل خيبر غازياً، وكان أهلها يهوداً قال لـمَّا رآهم: «اللهُ أَكْبَـــرُ، اللهُ أَكْبَرُ. خَرِبَتْ خَيْبَرُ...»[٤] وجملة التكبير المكررة بهذه الصيغة الموجَزة التي تقدَّم فيها لفظ الجلالة (الله) لتُشـــعر بكمال التنزيه لله - ســـبحانه وتعالى - وتأكيده. ومن ذلك حديث البراء ابن عازب - رضي الله عنه - قال: (مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحمَّماً مجلـــوداً فدعاهم ﷺ فقال: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَـــدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قالوا: نعم! فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أَنْشُـــدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَـــى؛ أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قال: لا. ولولا أنك نشدتني بهذا لم أُخبرك، نجده الرجم...) الحديث[٥].

ويُلحظ هنا الاختلاف بين خطاب العامة والعالِم؛ فالعالم سأله النبي ﷺ كما ســـأل العامة؛ لكنه قدَّم بين يدي سؤاله له استشاداً بالله - عز وجل - تذكيراً له ووعظاً، أما العامة فلم يستشـــدهم؛ لأن العالم يردعه علمه عما يسوء إذا ذُكِّر ووُعِظ، خصوصاً أن علماء اليهود يدركون صدق النبي ﷺ فإذا اجتمع هذا وذاك في مثل هذا الموقف؛ فإنه يغلب أن هذا العالم سيرتدع عن الكذب، وقد حصل، فأجاب بالصدق.

(٤) أخرجه البخاري: (٦١٠)، ومسلم: (١٣٦٥).
(٥) أخرجه مسلم: (١٧٠٠).

أما في خطابه للنصارى؛ فنجد النبي ﷺ يدعوهم إلى العبودية ويؤكد لهم وحدانية الله وألوهيته، وعدم الإشراك به. وخطابه لهم فيه رقة لا تكون مع يهود، وقد يكون ذلك لِمَا قاله الله - سبحانه - فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

ومن خطاب النبي ﷺ للنصارى الذي تظهر فيه تلك الخصائص كتابه ﷺ إلى هرقل وقومه، وفيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ...»[1].

### ٣ - البيئة:

للبيئة تأثير كبير في تكوين شخصية المرء، وتظهر رعاية النبي ﷺ لهذا العامل المؤثِّر في اختياره ﷺ الدعاء على كفار مكة في الحرم؛ لما للحرم من مكانة خاصة في نفوس أهل الجاهلية، ويرون أن الدعوة فيه لا تُرَدُّ، كما روى عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ وَضَعَه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئاً، لو كان لي منعة! قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسه، ثم قال: «اللَّهُمَّ! عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثلاث مرات، فشق عليهم؛ إذ دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة.

ومنذ أن بعث الله - عز وجل - رسوله ﷺ والمشركون يعادونه ويسبُّونه ومن معه من المسلمين؛ فما كان منه ﷺ إلا أن اختار أشد الكلام عليهم وقعاً وأنفذه ذِكراً وسَيراً بين العرب؛ فدعا شعراء المسلمين وخاصة الأنصار إلى هجائهم، كما روت عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «اهْجُوا قُرَيْشاً؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» قال حسان: والذي بعثك بالحق! لأَفْرِيَنَّهم بلساني فري الأديم... قالت

(١) أخرجه البخاري: (٧ و٢٩٤١ و٤٥٥٣)، ومسلم: (١٧٧٣).

عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ» وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ، فَشَفَى وَاشْتَفَى»[2].

ولعله أَمَر الأنصار بهذه المهمة؛ لأنه لا يربطهم بقريش نَسَب فيضعفوا في هجائهم، كما أنهم هم الذين آووا الرسول ﷺ واستماتوا في نصرته؛ فنصروه بأيديهم؛ فحق لهم نصره بألسنتهم.

ومن مراعاة البيئة اختيار الألفاظ والتعبيرات منها؛ ويظهر هذا جلياً في الصور البيانية التي لا تخرج عن عناصر البيئة التي يعيش فيها المخاطَبون، ومن أمثلة ذلك:

تصوير حدود العبد في الحلال والحرام وما بينهما من المشتبهات بصورة الراعي مع الحمى، وتصوير القائم على حدود الله أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، والواقع فيها بصورة قوم في سفينة في البحر، والتصوير بجبل أُحُد في أكثر من صورة لبيان عِظَم الشيء، والتشبيه بالإبل.

ومن ذلك تخصيص المخاطَب ببعض المنهيات؛ لكونها مما اعتاده وكَثُر تعاطيه لها في بيئته التي يعيش فيها، ومن ذلك مبايعته ﷺ لرهط قال لهم فيها: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ»[3].

ولما نزل قول الله - عز وجل -: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يَا صَبَاحَاهْ!»[4]. وصعود الجبل والنداء بمثل: (يا صباحاه!) عادة اعتادوها في الأمر الجلل، فصنع النبي

(٢) أخرجه مسلم: (٢٤٩٠).
(٣) أخرجه البخاري: (١٨ و٦٨٠١)، ومسلم (١٧٠٩).
(٤) أخرجه البخاري: (٤٧٧٠ و٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

ﷺ مثل ما اعتـــادوه في بيئتهم، إشـــعاراً بخطر ما يريده ويدعوهم إليه؛ ولذا أقبلوا عليه واجتمعوا إليه. ومما يُلحظ مراعـــاةً للبيئة أيضاً: أن النبي ﷺ يراعي في خطابه طبيعة اللين والرِّقة لدى الأنصار، وطبيعة الغلظة والجفاء والجهل لدى الأعراب.

**٤ - المنزلة:**

منزلة المخاطَب - ســـواء أكانت سياســـية أم وظيفية أم اجتماعية أم غيرها - لها أثر في رعاية المتكلم له في خطابه، وهذا جانب قرر القرآن الكريم رعايته. قال - سبحانه -: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ومن ذلك ما قاله الله - عز وجل - لموسى وهارون - عليهما السلام - حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤]، فبيَّن الله - عز وجل - لهما حاله، وكيف يخاطبانه بما يناسب هذه الحال.

وفي رســـائله ﷺ إلى الملوك والرؤســـاء نلحـــظ تأثير هذا الجانـــب جلياً في وصفه للمرسَـــل إليهم، كما في رســـالته إلى هرقل: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»[(١)]، وفي رسالته إلى المقوقس قال: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ». قال النووي في رسالة هرقل: (لم يقل: إلى هرقل فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة، فقال: «عظيم الروم» أي الـــذي يعظمونه ويقدِّمونه، وقد أمر اللـــه - تعالى - بإلانة القول لمن يُدعى إلى الإســـلام، فقال - تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال - تعالى -: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وغير ذلك)[(٢)]، وقال ابن حجر: (لم يخلِّه من إكرام لمصلحة التألُّف)[(٣)].

ويختار النبي ﷺ في رســـائله إلى الملـــوك الألفاظ التي تُشـــعرهم بالاطمئنان على مُلْكهم إذا أسلموا ترغيباً لهم في الإسلام، ويظهر ذلك في رســـالة النبي ﷺ إلى هرقل؛ حيث نلحظ معنى (السلام) يتكرر في نص الرسالة ست مرات بدءاً من مطلعها إلى ختامها (ســـلام، الإسلام، أسلم، تسلم، أسلم، مســـلمون) وهذه الكلمات تصرِّح وتلمِّح وتوحي إلى هرقل بأن المقصود هو الإسلام، وأما مُلْكه فباق إن أسلم.

(١) أخرجه البخاري: (٧)، ومسلم: (١٧٧٣).
(٢) شرح صحيح مسلم: ١٢/ ١٠٨.
(٣) فتح الباري: ١/ ٣٨.

ومن ملاطفته ﷺ ما خاطب به ثمامة بن أثال ســـيد أهل اليمامة حينما جيء به أسيراً إلى النبي ﷺ ورُبط في المسجد؛ فكان النبي ﷺ يمرُّ به ويقول له: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» كرر ذلك ثلاث مـــرار في ثلاثة أيام، فلمـــا كان اليوم الثالث قال رســـول الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَـــةَ» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد[(٤)]. قال النووي: (قوله ﷺ: «مَـــا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» وكـــرر ذلك ثلاثة أيام، هذا من تأليف القلـــوب، وملاطفة لمن يرجى إســـلامه من الأشـــراف الذين يتبعهم على إسلامهم خَلْق كثير)[(٥)].

**٥ - الجنس والعمر:**

ومن ذلك: أنه حينما يخاطب النساء؛ فإنه يناديهن ويصفهن بما يـــدل على وَصْف الأنثـــى إذا كان الخطاب مختصاً بهن، من مثل قوله: «يا معشر النســـاء!... يا نساء المسلمات!...». ولما طلب النســـاء منه أن يجعل لهُنَّ يوماً يخصهن بالحديث، وَعَدَهُـــنَّ يوماً لقيهُنَّ فيه، فوعظهـــن وأمرهُنَّ، فكان مما قال لهن: «مَا مِنْكُـــنَّ مِن امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إلا كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِن النَّارِ»[(٦)]، وهذا الحديث خاطب النبي ﷺ بمثله المسلمين عامة، والرجال خاصة؛ ففي البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِن النَّاسِ مِنْ مُسْـــلِمٍ يُتَوَفَّى لَـــهُ ثَـــلاثٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إلا أَدْخَلَـــهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ»[(٧)]، قال ابن حجر في حديث النســـاء: (إنما خص المرأة بالذكر؛ لأن الخطاب حينئذٍ كان للنساء، وليس له مفهوم لما في بقية الطرق)[(٨)].

ويراعـــي النبي ﷺ في خطابه حـــال الأنثى حين يحصل لها ما يختص به النســـاء من الحيض وما يصحبه من تغيُّرات واضطرابات لدى الأنثى، ومن ذلك ما ورد في حديث عائشـــة - رضـــي الله عنها - قالت: خرجنا لا نرى إلا الحج، فلما كنا بسَـــرِف حضت، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: «مَا يُبْكِيكِ؟» فقلـــت: والله! لوددت أني لم أكن خرجت العام. قال: «مَا لَكِ أَنَفِسْـــتِ؟» وفي رواية: «مَا لَكِ؟ لَعَلَّكِ نَفِسْـــتِ» قلت: نعـم! قـــال: «إِنَّ هَـذَا أَمْرٌ كَتَبَـهُ اللـــهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاقْضِـي مَـــا يَقْضِي الْحَاجُّ، غَيْـــرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى

(٤) أخرجه البخاري: (٤٦٢ و٤٣٧٢)، ومسلم: (١٧٦٤).
(٥) شرح صحيح مسلم: ١٢/ ٨٩.
(٦) أخرجه البخاري: (١٠١ و١٠٢ و٧٣١٠)، ومسلم: (٢٦٣٤).
(٧) أخرجه البخاري: (١٢٤٨).
(٨) فتح الباري: ٣/ ١٢١.

تَطْهُرِي»[1]، وفي حديث أم سلمة قالت: بينما أنا مع رسول الله ﷺ مضطجعة في الخميلة، إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي، فقال: «مَا لَكِ أَنَفِسْتِ؟» قلت: نعم! فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة[2].

في قوله ﷺ: «نَفِسْتِ» عدول عن التعبير بـ (الحيض) إلى التعبير بـ (النفاس) مع أن التعبير المعدول عنه هو الأشهر عند المخاطبة في التعبير عن حالها، وهو تعبير القرآن أيضاً، وعبَّر به أيضاً النبي ﷺ في أحاديث أُخرى؛ لكنّ فَرْق بين خطاب موجَّه إلى امرأة حصل لها الحيض، وأخرى لم يحصل لها ويبيَّن لها أحكام الحيض مجردة عن أي حالة نفسية تقع فيها. أما التي حصل لها الحيض فهي تعيش حالة من التغيرات والاضطرابات النفسية والعقلية والجسدية تؤدي إلى هبوط نفسيٍّ وعقليٍّ دون المستوى الطبعي، تكون المرأة فيه أشبه بالمريضة؛ فتحتاج إلى رعاية وعَطْف وحنان، وهذا الذي حصل من النبي ﷺ حيث خاطب زوجتيه بخطاب رقيق، فيستفهم بهمزة الاستفهام قائلاً: «أَنَفِسْتِ؟» أو تأتي العبارة بصورة الترجي توقعاً لحصول الأمر: «لَعَلَّكِ نَفِسْتِ» واختار لفظة تؤدي المعنى لكن من مادة أخرى تناسب الحال؛ إذ المادة (ن ف س) تتكون من حروف أسهل مخرجاً ونطقاً من حروف مادة (ح ي ض) فخروج اللفظة سيكون هادئاً رقيقاً، يُشعِر باللين واللطف، وربما كان لهذه اللفظة إيحاء بمعانٍ أخرى تشاركها في المادة كالتنفس والتنفيس... وغيرهما، وهي معاني إيجابية، لا توحي بها لفظة (الحيض) التي صارت لها دلالة مشهورة تأنف منها الأنثى كثيراً.

ويُتْبِع النبي ﷺ استفهامه لعائشة - رضي الله عنها - بخبر مؤَكَّد يريد به تسليتها وتخفيف مصابها، فيقول: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ؛ فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي»، ومن الألفاظ التي اختارها النبي ﷺ قوله: «بَنَاتِ آدَمَ»: أما (بنات) فلعله لأجل إضافتها إلى (آدم) أو لكون عائشة - رضي الله عنها - لا زالت شابة صغيرة، ولعل إضافة (بنات) بصيغة الجمع إلى (آدم) ليشمل جميع الخلق من النساء بلا استثناء نساء قوم أو دين، وهذا فيه تسلية لها؛ لأن النفس البشرية تتعزى وتتسلى حينما ترى من يشاركها مصابها وهمومها؛ فلا تكون وحيدة المصاب حينئذٍ.

ومع أن الغرض من خطاب النبي ﷺ لزوجيه - رضي الله عنهما - هو تسليتهما والتخفيف عنهما مما وقعتا فيه، إلا أنه يُلحظ أن النبي ﷺ اختلف أسلوبه بين خطاب عائشة وخطاب أم سلمة، رضي الله عنهما؛ ولعل ذلك لأن أم سلمة لم يظهر منها جزع وبكاء كما حصل لعائشة، ولعل لفارق العمر بين الاثنتين أثراً في ذلك، لكن النبي ﷺ يُتْبِع قوله الرقيق لأم سلمة بفعل رقيق؛ فيدعوها لتضطجع معه في الخميلة، ويكفي هذا تسلية ولطفاً، والله أعلم.

ومن المعاني التي خاطب النبي ﷺ بها النساء: النهي عن التطيب إذا أرادت المرأة الخروج إلى الصلاة في المسجد، وخاصة في صلاة العشاء؛ ومع أن النهي عن خروج المرأة متطيبةً عامٌّ في كل الأوقات، إلا أن النبي ﷺ خص العشاء الآخرة بمزيد من النهي؛ ولعل ذلك لأن العطر يستثير الشهوة، ويستميل إلى المرأة، والليل وقت الظلمة وخُلوِّ الطريق؛ فكان الخوف عليهن في الليل أكثر، وقيل: لأن عادتهن استعمال البخور في الليل لأزواجهن، والله أعلم[3].

ومن تأثير عُمُرِ المخاطَب في أساليب النبي ﷺ ما ورد في خطابه مع الأطفال، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير؛ فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: «أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» نَغَر كان يلعب به، وفي رواية: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ!»[4].

وفي هذا الموقف ما راعى فيه النبي ﷺ حال المخاطب وعُمُره وحاجته، ومن ذلك:

١ - أن موت النَّغَر قد لا يعني شيئاً للكبار، لكنه بالنسبة لهذا الصغير شيء محزن؛ فهو يرى لعبته جزءاً من حياته؛ فيحزن لفقدها. وحينما يحزن؛ فإننا ينبغي أن نعامله ونخاطبه من منطلق نظرته هو، لا من نظرتنا نحن؛ فنخضع لمشاعره ونحترم أحاسيسه ونشاركه عواطفه، ومن هنا كان خطاب النبي ﷺ لهذا الفطيم الذي قد لا يدرك من كلام النبي ﷺ إلا أنه يُحِس بحزنه، ويشاركه ألمه، ويضفي عليه عَطْفه

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٤)، ومسلم: (١٢١١). وسَرِف: بفتح السين، وكسر الراء، موضع قرب مكة، بين وادي فاطمة والتنعيم.
(٢) أخرجه البخاري: (٢٩٨)، ومسلم: (٢٩٦).
(٣) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٣/ ٣٠، وفيض القدير: ٣/ ١٧٣، وحاشية السندي على سنن النسائي: ٨/ ١٥٤و١٥٥، ومرقاة المفاتيح: ٣/ ١٣٥.
(٤) أخرجه البخاري: (٦١٢٩ و٦٢٠٣)، ومسلم: (٢١٥٠).

وحنانه. وبهذا نفسر نداء النبي ﷺ للطفل: «أَبَا عُمَيْرٍ»: إما بحذف حرف النداء، وإما - في الرواية الأخرى - بذكره وهو (يا) وقد يكون الحذف الأقرب إلى المقام ملاطفة للمخاطَب، وإشعاراً له بسرعة الاستجابة لمشاعره والقرب منه وزوال الحواجز النفسية بينهما، وهذان (الملاطفة والتقريب) من الأغراض التي يُحذَف لها حرف النداء[1].

٢ - أن تصغير الأسماء (عمير) و(نغير) وهذا يتلاءم مع خطاب طفل صغير، ويأتي التصغير أيضاً ليحقق السجع، الذي يُحدِث تأثيراً في النفس؛ إذ هو يخاطب الوجدان والمشاعر أكثر مما يخاطب العقول.

٣ - ومما يلائم الصغير في هذا الخطاب: الإيجاز في التركيب مع وضوح الألفاظ؛ فخطاب النبي ﷺ مكوَّن من جملتين: ندائية «أَبَا عُمَيْرٍ» واستفهامية «مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» وكلتاهما موجزتان واضحتان، لم يتعدَّ النبي ﷺ فيهما الألفاظ التي يفهمها الطفل؛ لأن الطفل في مثل هذا السِّن لا يستوعب كل ما يقال له، وثروته اللفظية محدودة[2].

ومن مراعاة حال العُمُر في الخطاب النبوي البليغ، أَمْرُ الشباب بالزواج، أو ما يخفف حدَّة الشهوة، والنهي عن إتيان دواعيها، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي ﷺ شباباً لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَن اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[3]، قال ابن حجر: (خص الشباب بالخطاب؛ لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ)[4].

والأمر بالزواج هنا - لمن استطاع مؤنته - مقدَّم على الأمر بالصيام لمن لم يستطعها، تنبيهاً إلى أن الأصل في الشاب أن يُشبِع رغبته، لا أن يحسم مادتها، وأن الزواج هو الذي يُشبِع هذه الرغبة؛ فإذا بلغ الزواجَ فعليه أن يعْجَل به ويبادر إليه؛ ولذا جاء الأمر به في جواب الشرط مقروناً بالفاء، وجاءت صيغتا (الغضِّ والإحصان) في تعليل الأمر على أفعل التفضيل.

(١) ينظر: الكشاف: ٢/٤٤٤، وخصائص التعبير القرآني: ٢/٧، وعلم المعاني لبسيوني فيود: ٢/١٤٦.
(٢) ينظر: من أساليب الرسول ﷺ في التربية.
(٣) أخرجه البخاري: (١٩٠٥ و٥٠٦٦)، ومسلم: (١٤٠٠).
(٤) فتح الباري.

### ٦ - الصفات السلوكية:

في خطاب النبي ﷺ ما يراعي مقتضى هذه الصفات والحالات التي تؤثر في الصفات، ومن شواهد ذلك ما رواه أبو هريرة من أن رجلاً دخل المسجد فصلى، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد، فجاء فسلم عليه، فردَّ رسول الله ﷺ السلام، وقال له: «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ!» فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم، فرد عليه السلام، وقال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ!» فقال: والذي بعثك بالحق! ما أُحْسِن غيره، فعلِّمني! فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، وَاقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِن الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً، ثُمَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِماً، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ وَتَطْمَئِنَّ جَالِساً، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِماً، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا»[5].

قال النووي في فوائد الحديث: (وفيه الرفق بالمتعلم والجاهل وملاطفته، وإيضاح المسألة، وتلخيص المقاصد، والاقتصار في حقه على المهم دون المكملات التي لا يحتمل حاله حفظها والقيام بها)[6].

وقد يقول قائل: إذا كان المخاطَب افتقد الطمأنينة في أفعال الصلاة عن جهل، وكان مقتضى حاله أن يوجز معه في ما يحتاج إليه؛ فلِمَ أطنب النبي ﷺ فذكر إسباغ الوضوء واستقبال القبلة، وليسا من الصلاة؟

والجواب: إن هذا من الأسلوب الحكيم، وقد أشار إليه النووي؛ حيث قال في فوائد الحديث: (فيه أن المفتي إذا سئل عن شيء، وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل ولم يسأله عنه،

(٥) أخرجه البخاري: (٧٥٧ و٧٩٣ و٦٦٦٧)، ومسلم: (٣٩٧).
(٦) شرح صحيح مسلم.

يُستحَب له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة لا من الكلام في ما لا يعني، وموضع الدلالة أنه قال: (علمني يا رسول الله!) أي علمني الصلاة، فعلمه الصلاة، واستقبال القبلة والوضوء، وليسا من الصلاة، لكنهما شرطان لها)[1].

ولعل النبي ﷺ لـمَّا رأى استعجاله في الصلاة، ظن أنه يستعجل في غيرها مما هو شرْط لها، فلا يأتي به على ما ينبغي؛ ولذا جاء الأمر بـ (إسباغ الوضوء) لا مجرد الوضوء.

إن النبي ﷺ لو كان يريد أن يعلم الرجل ترتيب الأفعال لربما اكتفى بقوله: اركع، فقم، فاسجد، فارفع، فاسجد فقم، لكنه ﷺ أراد أن يعلمه الطمأنينة في أداء صلاته، ولم يكن تعليمه إياها ابتداءً؛ وإنما عن خطأ ناشئ من جَهْل، واستعجال قد يكون طبعاً في المخاطَب؛ ولذا لم يكتفِ النبي ﷺ بدلالة (ثم) وحدها وإلا قال: اركع ثم قم ثم اسجد ثم ارفع ثم اسجد... ولا بدلالة (حتى) وحدها وإلا قال: اركع حتى تقوم، فقم حتى تسجد، فاسجد حتى ترفع، فارفع حتى تسجد... ولا بدلالتهما معاً، بل نص على ما قصَّر فيه المخاطَب، وكرره ليتقرر لديه ويتأكد، ولم يكتفِ أيضاً بذلك، بل أتى بالحال التي تتعلق بالطمأنينة في كل فِعْل؛ ليزيد الأمر تأكيداً وتقريراً، والله أعلم.

ومن المواقف التي راعى فيها النبي ﷺ الصفة السلوكية لدى المخاطَب، ما جاء من أن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – رأى أن له فضلاً على مَنْ دونه، فقال له الرسول ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ»[2].

ففي هذا الموقف ظن سعد – رضي الله عنه – أنه بشجاعته وقوَّته وماله لا يساوى في الغنيمة بمن دونه من الضعفاء والفقراء؛ فخاطبه الرسول ﷺ بخطاب فيه مراعاة لمقتضى حاله، فأعلى من شأن مَنْ يرى أنهم دونه، وأضعف ما في نفسه مما يُظن من الإعجاب والزهو، ومن ذلك:

١ – جاء الخطاب بأسلوب القصر، بطريق النفي والاستثناء، و (هل) هنا فيها معنى النفي؛ أي: ما تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم.

إن القصر هنا جاء مراعاة لمقتضى حال المخاطَب، الذي صدر عنه ما يُظن أنه احتقار للمقصور عليه وغفلة عن أهميته، وأن النصر لا يكون إلا بالشجاعة وكثرة المال؛ فقوبل ذلك بقصر يؤكد خلاف ما يظنه المخاطَب؛ فيعلي من شأن المقصور عليه، ويبيِّن أن الأسباب الأخرى متوقفة عليه، وجاء هذا القصر على النوع المسمى بـ (قصر القلب) لما فيه من قلب وتبديل لحُكْم المخاطَب كله بغيره، مبالغة في التأكيد على أهمية شأن الحُكْم الذي تضمنته جملة القصر، وحضاً للمخاطب على الاتصاف بالتواضع.

٢– جاء القصر في رواية الصحيح بصيغة الاستفهام مراداً به النفي؛ لما في الاستفهام من معنى التقرير، وكأن الأمر حقيقة متقررة لدى المخاطَب، فيراد تذكيره بها وتأكيدها له.

٣ – لم يُسنَد فِعْل النصر إلى المخاطَب، بل أُسنِد إلى غيره، فبُنِي لِمَا لم يُسمَّ فاعله، والفاعل هو الله – عز وجل – كما جاء معلوماً في الرواية الأخرى، ولعل ذلك مقابل ما قد يكون في نفس المخاطَب من تعظيم أسباب القوة البشرية، فأراد النبي ﷺ أن يذكِّر المخاطَب بأن النصر لا يكون إلا من الله – عز وجل – الذي يقدِّره ويحدِّد أسبابه وييسرها؛ وأن القوة البشرية مهما بلغت، ما هي إلا سبب من أسباب النصر التي يريدها – سبحانه وتعالى – والله أعلم.

وبما سبق يتضح أن النبي ﷺ كان من منهجه في خطاب الناس أن يراعي أحوالهم والعوامل المؤثرة فيها، وقد ظهر ذلك في اختيار الألفاظ والعبارات والمعاني والأساليب البلاغية واختيار الوسائل والقوالب التي تحمل تلك الألفاظ والمعاني والأساليب.

أسأل الله أن يرزقنا حُسْنَ الاتباع لهدي نبيه ﷺ والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) شرح صحيح مسلم.
(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٩٦).

# هل ستغفو الصحوة؟

إبراهيم بن عبد العزيز الخميس
iazskh@gmail.com

اقتضت سُـنَّة الله الكونية أنَّ أي مؤسسـة أو منظمة أو حركة أو دولة: لها دَورة حيـاة مِثلُها مثلُ الكائن الحي، ويرى المنظِّرون لهذه السُّـنة أنَّ لكل مرحلة مـن مراحل المنظَّمات العُمُرية سمة بارزة تتأثر ببعدين:

الأول: القدرة على التنفيذ والإنجاز.

والآخر: القدرة على رؤية الجديد.

حيث تَمُرُّ المنظمة بأربع مراحل نموٍّ، هي:

**اليفـاع:** حيث تكون قـدرة الفريق علـى الإبداع ورؤية الجديـد قوية، بينما قدرته على تنفيذ المهام والإنجاز ضعيفة بسبب حداثة العناصر البشرية وضعف خبرتها، وربما ضعف الموارد المالية.

**التمكُّن:** في هذه المرحلة تكون قدرة الفريق على الإبداع عالية وخبرته كبيرة، فيكون في أعلى حالاته وأفضلها.

**النضـج:** في هـذه المرحلة يعتمد الفريـق على خبراته المتراكمـة، التي تحجبه عـن الجديد وتُضعِـف قدرتَه على الإبداع، فيصبح أسيرَ نماذجِه الخاصة.

**الـزوال:** الخبرات التـي كان يحملها الفريق لفترة طويلة صارت قديمـة وغير مؤثرة، والفريـق لا يمتلك القدرة على التجديد، ومن ثَمَّ يتجاوزه الزمن.

ويمكن توضيح المراحل التي تمر بها أي منظمة في الشكل التالي:

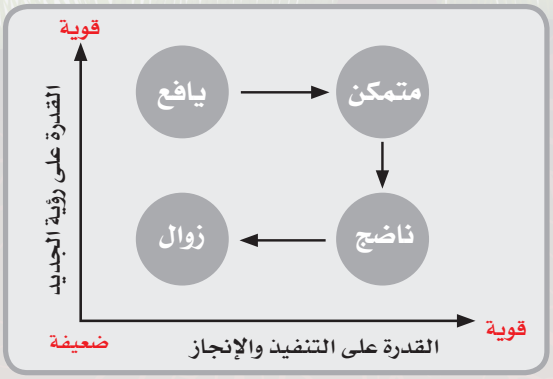


شكل (١): نظرية (دورة حياة المنظمة).

ولكـي تتجنب المنظمـة (أو تؤخِّر) وصولَهـا للمرحلتين الثالثـة والرابعة، تلجأ إلى تجديد الدمـاء في فريق العمل، ابتداءً من تغيير القائد؛ حيث تُشبِّه إحدى النظريات النموذجَ (أي: الخبـرة وقوانين العمل التي يعتمد عليها القائد وفريقه

للنجاح) بحصان في مضمارٍ للسباق. وعلى المنظَّمة إذا أحسَّت أنَّ حصانها بدأ بالتراجع – وإن كان في مراتب متقدمة – أن تقفز إلى حصان آخر أسرع من حصانها، وعلى المنظمة أن تستفيد من خبرتها لتتجنب القفز في الظلام، كما أن عليها أن تحذَر من تغيير الأحصنة من أجل أنها جديدة فقط... وتؤكد هذه النظرية على أن تغيير المدير أو القائد بمثابة تغيير القلب فهو عمل خطير، كما تؤكد على أهمية الدمج بين النموذج القديم والجديد مع إجراء تعديلات على النموذج القديم؛ فواقع الحال يثبت أن القديم سيبقى؛ فالسيارات لم تقضِ على الخيول، والتجارة الإلكترونية لم تُنهِ التعاملات التقليدية، وساعات العقارب ما زالت تُستخدَم، كما أن العالم يشهد الآن رجوعاً للطب الشعبي[1] .

والإسلام كممارسة حياتية محكوم بهذه السُّنَّة أيضاً، إلا أنَّ الله – تعالى – قضى أنه «يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[2]

## الصحوة بين التمكين والنضج:

بعيداً عن الخلاف حول مفهوم الصحوة وتاريخها أودُّ أن أقف وقفة تأمُّل مع واقع الصحوة الحديثة التي عايشتُها وقرأتُ عنها في محيطي الإقليمي. وعلى المقيمين خارجَه مراعاة فارق التوقيت.

لا شك عندي في أنَّ الصحوة الآن تعيش في مرحلة برزخية بين (التمكين) و (النضج) وهي في كثير من حالاتها أقرب إلى النضج منها إلى التمكين؛ فقياداتها على اختلاف توجُّهاتها وأعمالها تحمل خبرة كبيرة في العمل الدعوي والاجتماعي، وتتولى زمام أغلب المؤسسات الاجتماعية في بلدانها، وهي ترى أنها اكتسحت الساحة ومَلَكت زمام الجماهير، دون منافسة تُذكَر من التيارات التغريبية، وهذه بلا شك نتائج مرحلة سابقة (مرحلة التمكين) وكان المفترض بهذه القيادات أن تتنبَّه إلى أهمية تغيير الأحصنة في نهاية هذه المرحلة؛ فالسبق في فترة من الفترات لا يعني استمرار التفوق في الفترات القادمة؛ فلكل زمن ملابساته، ولكل ميدان فرسانه.

## ما الذي حَدَث؟

هل قفزت القيادات إلى الأحصنة المجاورة التي تعدو بسرعة وإن كانت تأتي في مرحلة متأخرة، أم نامت قريرة العين؟

والخبرات التي تحملها فِرَق العمل: ما تأثيرها في الواقع؟ وهل هي خبرات متراكمة، أم تجارب مكررة؟

وما هي قدرة فِرَق العمل على افتتاح ميادين جديدة، وابتكار وسائل حديثة؟ أم هم أسارى لنماذجهم القديمة؟

وأعداد المستفيدين من برامج الصحوة – وإن كانت كثيرة –: هل هي في ازدياد، أم في تناقص؟

والمؤسسات التي تديرها الصحوة منذ زمن: هل هي الأنسب للفترة القادمة؟ وإن كانت مناسبة؛ فهل تمتلك مقومات البقاء في ظل المعطيات الحديثة؟

وهل يدرك القادة أنَّ أحصنتهم – وإن كانت في المقدمة – تضعف وتتراجع؟

وإذا كان قادة الأمس غير قادرين على مواكبة الحاضر وإدراك معطياته ومتابعة مستجداته، فهل أتاحوا المجال لقادة اليوم؟ وهل ساهموا في صناعة قادة المستقبل؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات سأتناولها من خلال ثلاثة مجالات: المجال العلمي، والمجال الطلابي، والمجال الدعوي والاجتماعي.

## أولاً: المجال العلمي:

### التمكين العلمي:

من أعظم المكاسب التي حققتها الصحوة نَشْرُ العلم الشرعي، وبَثُّ الوعي بين العامة والخاصة؛ حيث قادت الجامعات الإسلامية والمساجد نهضة علمية واسعة الانتشار، وقد ساعد الدعاةَ والعلماء في أداء رسالتهم عددٌ من الوسائل المتاحة في ذلك الحين، منها: الشريط والكتيبات والإذاعة... كما ساهمت الجامعات الإسلامية بنشر التراث الإسلامي وإخراجه بأفضل صورة من خلال الرسائل والبحوث الجامعية.

ومن ملامح التمكين في هذه الفترة تأسيس عدد من مراكز البحوث والدراسات العلمية التي ساهمت في تنقيح كثير من المسائل العصرية التي يحتاجها المجتمع.

(١) الخزامي، عبدالحكيم أحمد (٢٠٠٠م). أسس بناء المنظمة الذكية المعاصرة، بيروت: دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٩١)، من حديث أبي هريرة.

### النضج العلمي:

علـــى الرغم من هذه النجاحـــات إلا أن ثمة معالمَ نضجٍ بدت سريعة في مسيرتنا العلمية، منها:

اعتماد الجامعات على أسلوب التلقين، وضعف دور المكتبة الجامعية خاصة لطلاب البكالوريوس[1].

يعاب على جامعاتنا أنها تُدرِّس كتباً أُلِّفت قبل عقد أو عقدين من الزمن. أما في التخصصات الشرعية فالأمر مختلف تماماً؛ لأن أغلـــب الكتب التي تدرَّسُ للطـلاب كُتِبت قبل قرون طويلة، ولو قدَّر الله لابن تيمية وابن حجـر والطحاوي والشـــوكاني أن يعـودوا لزمـاننا لأجمعـوا أنَّ كتبَهم لا تناسب زماننا، ولشرعوا من فورهم بتأليـف كتب تناســـب العصر والطلاب. إنني أُدرك تماماً أن كلام الســـلف أحكم مـــن كلام المعاصرين، وأن طالب العلم لا بد أن يطلع على كتب الأوائل، وأن فنوناً كأصول الفقه وأصول الحديث أشبعها الماضون دراسة وتأليفاً، لكن ما الذي يمنعنا أن نزاوج بين القـــديم والجديد؟ ثم ما الذي يمنعنا من إكمال مسيرة ســـلفنا الأوائل؟ ما الذي دفع الشوكاني لتأليف (فتح القدير) وقد سُـــبِق بتفسير القرآن العظيم؟ ولِمَ لم يكتفِ ابن كثير بتدريس (جامع البيان)؟ لو قُدِّر للشـــيخ عبد الرحمن الدوســـري أن يعيش لأجابنا بقوله: (إنَّ لكل زمان كتاب). هذا في التفسير، وقل مثل ذلك في سائر الفنون.

لو ســـألت أحد خريجي أقســـام العقيدة فـــي جامعاتنا عن المعتزلة لأخبرك أنهم ينفون الصفات ويقولون بخلق القرآن. لكنَّ قليلاً منهم سيخبرك أن معتزلة هذا العصر في الأغلب لا يتكلمون في الصفات؛ لكن يجمعهم مع أجدادهم بغضهم للنص وتقديسهم للعقل. وخلال دراستي الشـــرعية في إحدى جامعاتنا الإسلامية العريقة درســـت بتعمُّق الفرق والمذاهـــب التي كانت موجودة قبل سبعة قرون، لكني لم أتعرف على آراء أهل الأهواء في هذا العصر والرد عليها إلا من خلال كتبٍ لا تُدرَّس في الجامعات الإسلامية. نعم، ثمة محاولات وجهود فرديـــة، لكني أتكلم عن دور ينبغي أن تقوم به الجامعات ومراكز الدراسات التابعة لها.

إن الدراسات العليا فرصة لتخريج المتخصصين في العلوم الشـــرعية ومجال رحب لتقديم البحوث التي يحتاجها الواقع المعاصر، وكان المتوقع من جامعاتنا الإسلامية أن تستثمر إقبال الدارسين وحرصهم على الدراسات العليا لتغطية هذا المجال.

### أحصنة رابحة:

إن الحديث عن الأحصنة الرابحة يحدده أهل التخصص بدقة أكثر مني، لكنني سأشـــير هنا إلى مبادرات موجودة في الســـاحة، وهي وإن كانت متواضعة وفـــي بداياتها إلا أنَّ لها مستقبلاً واعداً:

**مراكز الدراســـات العلمية:** تســـهم مراكز الدراســـات في وصف الواقع بشـــكل علمي، وإيجاد حلول لمشـــاكله. ومن المفترض أن يكون لها دور فاعل في توجيه النُّخَب الاجتماعية والسياســـية في كل بلد؛ ولا بد أن تعتمد هذه المراكز أسلوب البحـــث العلمي منهجاً لهـــا لتحظى بمصداقيـــة عالية في المجتمع.

**القنـــوات التعليميـــة:** لقد ســـاهمت القنوات الفضائية الإسلامية في نشـــر العلم في أوساط كثيرة، إلا أن الحديث هنا عن جامعات تعليمية عالمية تعتمد وســـائط تقنية مختلفة لنشـــر العلم (بث فضائي، إنترنت، تعليـــم عن بُعْد...)؛ حيث يختار الطالب ما يناسبه منها، مع التأكيد على أهمية اعتماد شهاداتها من جهات الاختصاص.

**التأهيـــل التربـــوي للأســـتاذ الجامعي:** إ ن مشـــكلة أســـاتذة الجامعات أنهم يتولون مهام التدريس دون أن يكونوا مؤهَّلـــين تربوياً للقيام بهذا الدور، إضافة إلى أنه لا يُســـمَح بتقييمهـــم مِن قِبَل طلابهم أو أي جهة أخرى، وأعتقد أنَّه من المهم إشـــراكهم في برامج تربوية مكثفة للمســـاهمة في حل هذه المشكلة.

## ثانياً: المجال الطلابي:

### التمكين الطلابي:

قد تصل نســـبة الطلاب والطالبات فـــي مجتمعاتنا إلى ٥٠ ٪، والعناية بتربية هذه الفئة هي صمَّام الأمان لمســـتقبلنا، ورجالات المجتمع اليوم كانـــوا طلاباً بالأمس؛ نهلوا من مَعِين الصحوة عندما كانت يافعة، ووقفوا معها في مراحل تمكينها؛ وما الأندية الصيفية والمخيمات الدعوية وحِلَق القرآن والدُّور النسائية المنتشرة في كل مكان إلا مظهر من مظاهر التمكين الطلابي.

(١) كنت قد كتبت مقالاً في هذا الموضوع نشر في مجلة البيان بعنوان: (نحو تدريس فعال... نظرة إلى معاهدنا العلمية) فَلْيراجَع.

### النضج الطلابي:

عندما نشـــرتُ كتابي (نادي الهوايات الصيفي) قبل ست سنوات لم أجرؤ حينها أن أقول: (إن الأندية الصيفية التقليدية خدمت مشـــكورة لأكثر من عشرين ســـنة، وحُقَّ لها أن تُكرَّم وتُحال إلـــى التقاعد؛ لأن الزمان قد تجاوزها)، ومع أن كثيراً من قيادات العمل الطلابي كانوا يشـــتكون من ضعف الإقبال على الأندية الصيفيـــة إلا أن قليلاً منهم قرَّر الانتقال للفكرة الجديدة. ولن أكرِّر غلطتي؛ فأنا أعلن الآن أنَّ (نادي الهوايات الصيفي) أضحى فكرةً قديمة تجاوزها الزمن بســـرعة، وثمة تجربة جديدة جديـــرة بالاهتمام أُســـمِّيها (النادي الصيفي المفتوح)؛ فهل ســـيتمكن قيادات العمل الطلابي من التخلص من نماذجهم القديمة والقفز إلى أحصنة جديدة.

إن المحاضـــن التربوية المنتشـــرة هنا وهناك لا تخرج عن إطارٍ عام بَنَته الصحوة خلال سنوات تمكينها، وأضحى المسُّ بهذا الإطار أو الدعوة لفتح آفاق جديدة للعمل الطلابي أمراً مرفوضاً عملياً من قيادات تلك المحاضن.

كثيرون يشكون ضعفاً في مستوى المربين والدعاة، وقِلَّةً في أعدادهم، ويُلقون باللائمـــة على الزمن، والترف، والتطورات الاجتماعيـــة... إلخ، ومع إيماني بأن هذه المشـــكلة معقَّدة إلا أننـــي على يقين أيضاً بأن ما تعانيه المحاضن التربوية خاصة ومؤسساتنا الدعوية والاجتماعية عامة من أزمة في العاملين، إنما سببه الرئيس جمود العمل على ممارسات تعدَّاها الزمن، وأســـاليب أَمَسَت لا تســـتهوي الطلاب ولا ترقى إلى مستوى تطلعاتهم، وهو ما أدى إلى ضعف الإقبال، وتسرُّب المتميزين. (ودائرة العاملين تتغذى من دائرة المستفيدين)[1].

### أحصنة رابحة:

مرة أخـــرى أؤكد على أن أهل العمـــل أقدر على تحديد الأحصنة التي يجب عليهم القفز إليها. وسأشير هنا إشارات تساعد على فتح آفاق جديدة للعمل الطلابي:

إن الانفتـــاح الحضاري والتغريب الـــذي يمر به المجتمع يحتِّمـــان على المربِّين أن ينظروا إلـــى العمل من خلال بُعدَين منفصلين، هما: الكم، والكيف.

فالكم يوجِّهنا للبرامج الجماهيرية الواسعة ونجاحنا فيها مرهون بعدد الجماهير الطلابية التي نخاطبها في مجتمعنا، والكيف يوجِّهنا للبرامج التربويـــة المتخصصة ونجاحنا فيها يتوقف على المســـتوى التربوي الذي يصله المتربي. وفي هذا الباب ينبغي علـــى العاملين التفريق الواضـــح في هدف كلٍّ منشط: هل هو الكم أم الكيف؟ وعدم الخلط بين الاتجاهين.

إننا إذا فكرنا خارج الصندوق فسنجد آفاقاً واسعة للعمل الطلابي غير تلك التي اعتدنا عليها، وإذا نظرنا إلى محاضننا الحالية على أنها وســـائل لا ثوابـــت، فلن نجد غضاضة في استبدالها، أو تعديل فلسفة العمل فيها.

وإذا كان المربون في فترة ماضية يبذلون أوقاتهم وجهودهم محتســـبين الأجر عند الله، دون أن ينتظروا مالاً أو ثناء، فإن واقـــع الحال قد تغيَّر، وجدير بنـــا أن نفكِّر بتهيئة الأجواء لمســـميات وظيفية جديدة: (مربٍّ)، (اختصاصي اجتماعي)، (مدير أنشـــطة)... إلخ، ونطرح لها دبلومات تأهيلية معتمَدة، ونتبنَّى مؤسســـات تربوية واجتماعية تستقطب هذه الفئات، وتوظِّفها، وتشرف على أدائها وتطورها.

## ثالثاً: المجال الدعوي والاجتماعي:

### التمكين الدعوي والاجتماعي:

إن مكاتـــب الدعوة المنتشـــرة هنا وهنـــاك، والجمعيات والهيئات الخيرية التي عمَّ نفعها أرجاء المعمورة، شـــاهد حي على اكتســـاح الصحوة لمجال العمل الدعـــوي والاجتماعي. وتفاعُلُ الجماهير مـــع توجهات الصحـــوة، وقناعةُ المجتمع برموزها دليلٌ على نجاحٍ كَتَبَهُ التاريخ.

### النضج الدعوي والاجتماعي:

قبل ســـنوات كتبت مقالاً في مجلة البيان بعنوان (وسائل الدعـــوة والتأثير علـــى الجماهير) ألمحتُ فيـــه إلى أن زمام الجماهيـــر انفلت من أيدينا أو يكاد، وأشـــرتُ إلى مجموعة من الوســـائل التي أمَّلت أن يستفيد منها قادة العمل الخيري لتـــدارك الخلل. وكتب غيري في الموضوع نفســـه. ومع وجود مبادرات نوعية إلا أنها لا تُشـــكِّل توجهـــاً يُنقِذ الصحوة من التراجع في هذا المجال.

لمرحلة النضج التي تعيشـــها الصحوة في هذا المجال عدة سمات، أذكر منها:

**تقليدية الوسائل والبرامج:** مع أن عدد مستمعي أشرطة

(١) يراجع سلسلة مقالات: الدوائر الأربع للعمل التطوعي، في مدونة الباقي الإلكترونية.

الكاسيت في تراجع حادٍّ، والقراءة الإلكترونية تستحوذ على اهتمام شريحةٍ تزداد يوماً بعد يوم، ومع عزوف كثيرين عن حضور المحاضرات في المساجد... على الرغم من ذلك كله ما زالت مكاتب الدعوة إلى الآن توزع أشرطة الكاسيت، والنشرات والكتيبات، وتقيم المحاضرات التي تعلن عنها بملصقات ورقية في المساجد دون أن تتساءل عن فاعلية وأثر هذه الوسائل على المستهدَفين. وليست الجهات الخيرية بأحسن حالاً من مكاتب الدعوة؛ فأساليبها وبرامجها توقفت عن النمو منذ فترة. لقد كان بإمكانها أن تقود الشباب والفتيات وتستثمر طاقاتهم في العمل التطوعي من خلال المجتمعات الافتراضية مثلاً. إلا أن أغلب مؤسساتنا الاجتماعية ليس لها وجود يذكر في الشبكات والوسائط الاجتماعية (Social media)، مثل: الفيس بوك والتويتر واليوتيوب والنت لوق وغيرها. وبمعنى آخر: هي في وادٍ والمجتمع في وادٍ آخر.

**الاهتمام بالكم على حساب الكيف:** تحرص مؤسساتنا في تقاريرها السنوية على التكاثر بالأرقام؛ فمكتب الدعوة الفلاني أقام كذا محاضرة، وأسلم من خلاله كذا شخص، ووزع كذا كتاب. والجمعية الفلانية تكفل مئات الأيتام، ومئات الأسر الفقيرة، وتفطِّر آلاف الصائمين؛ فالأرقام تمنحها شعوراً زائفاً بالقوة، وتساعدها على البقاء فترة أطول، متناسين أنَّ مستوى وعي المتبرع قد ازداد وسقف طموحاته قد ارتفع. وإذا حدَّثتَ الدعاة عن أثر المحاضرات على المجتمع، ونوعية الفئة المستهدفة وقياس أثر تلك الوسائل عليها لم تجد إجابات شافية.. وإن طلبت منهم التركيز على تربية الجاليات العربية والأجنبية لنصنع منهم مسلمين اسماً ومضموناً لم تجد حماساً كافياً لتنفيذ هذه الفكرة، ولا لأي فكرة نوعية تركز على الكيف أكثر من الكم.. والجمعيات الخيرية هي الأخرى تفتقر برامجها إلى البعد التربوي والإصلاحي، وتركز فقط على الجانب الإغاثي. فإذا اقترحت - مثلاً - (الرعاية الشاملة لليتيم) بدلاً من (كفالة اليتيم) بهدف تعويض اليتيم عن فَقْد والده من جميع الجوانب (التربوية والاجتماعية والمالية) اعترضوا عليك بأن هذا يضيف عبئاً مالياً على المشروع، ويستلزم كفاءات تربوية واجتماعية تضاعف قيمة الكفالة أضعافاً مضاعفة. وإذا اقترحت استثمار مشاريع إفطار الصائمين بالتوعية والتثقيف للمستهدَفين اعتذروا

بصعوبة إدارة المشروع، أو نقص العناصر لتحقيق هذا الهدف.

**الضعف الإداري:** تعاني أغلب مؤسساتنا الدعوية والاجتماعية خللاً إدارياً يشمل: افتقارها للهياكل والأنظمة والخطط الفاعلة، وضعف الثقافة الإدارية لدى قياداتها فضلاً عن عامليها. والمشكلة الحقيقة تكمن في عدم قناعة تلك القيادات بأهمية إحداث نقلة نوعية لمؤسساتهم تشمل الهياكل والنُّظُم كما تشمل الأفراد. وكذلك إصرارهم أن يديروا مؤسساتهم بأساليبهم القديمة التي تركز على المنتَج أكثر من تركيزها على القدرات. والثمنُ: أرقامٌ خادعة ومؤسساتٌ مترهلة تحيى بوجود رجل وتموت بموته.

**الضعف الإعلامي:** مشكلة أصحابنا مع الإعلام تَكْمُن في عدم قناعتهم بجدوى الأموال التي تُصرَف من أجله بسبب (النقد والنسيئة)؛ فمهما حاولْتَ إطالة نَفَس أحدِهم في حملةٍ إعلامية فإنَّ صبره سينفذ، فهو لا يحتمل أن يرى الأموال تصرف دون أن يلمس لذلك أثراً قريباً واضحاً. وهم يحتجُّون غالباً بعدم وجود أموالٍ كافية للجانب الإعلامي متناسين أن الإعلام هو الذي يجلب الأموال.

**ضعف التأثير في الجماهير:** إن علاقة الصحوة بالجماهير لا تخرج عن الأطر التالية:

الانتماء: (أي: تبنِّي أفكار الصحوة والدفاع عن مؤسساتها ورموزها)، والاستفادة: (أي: التأثر بآراء الصحوة واتجاهاتها الفكرية)، والمحبة: (أي: التعاطف مع قضايا الصحوة دون تبنِّي أفكارها)، والانفصال: (وهو البعد عن الصحوة عاطفياً وعملياً).. في مرحلة التمكين كانت جماهير كثيرة تشغل الدائرة الأولى والثانية، أما في مرحلة النضج فجُلُّ الجماهير تتفاعل مع الصحوة عاطفياً لا فكرياً، وترتدي ثوبها ظاهراً لا باطناً.

**أحصنة رابحة:**

أهـل مكة أدرى بشـعابها، ولكل مؤسسـة فرص متاحة أمامها، ولـكل بلد ظروفه وأحواله. والحديث عن الوسـائل الجديدة واسـع ومتجدد، لكنني سأشير هنا إلى مجالات أرى أهمية العناية بها:

**مراكز الدراسات الفكرية والسياسية والاجتماعية:** لمراكز الدراسـات أثرها الواضح في توجيه النُّخَب، والطبقة المثقفة، والاهتمام بهذه المراكز سيساعد الصحوة في الانتقال من الخطاب العاطفي المجرَّد إلى الخطاب العلمي المنطقي.

**مؤسسـات الإنتاج الإعلامـي:** الإعلام والدعوة صنوان لا يفترقان، وقد لاحظنا في الفترة الأخيرة توجُّهَ كثيرين إلى تأسـيس القنوات الفضائية، وهي تجربـة جديدة في العمل الدعوي والاجتماعي، والزمن وحدَه كافٍ لصقل هذه التجربة وتصفيتها. والأهم من وجهة نظري هو تأسـيس مؤسسـات الإنتاج الإعلامي التي سـتخدم القنوات الفضائية بشكل عام والقنوات الإسـلامية بشكل خاص؛ فتأسيس القناة الفضائية الإسلامية ليس نهاية المشوار؛ بل هو الخطوة الأولى لاستقطاب الجماهير التي تقارن إنتاج قنواتنا الفضائية بالقنوات الأخرى الموجودة في الساحة الإعلامية.

**التطويـر الإداري:** إن التدريب ليس الحل السحري لكل مشكلاتنا الإدارية، لكنه وسيلة فاعلة لتغيير قناعات القيادات، وتنمية مهارات الأفراد. والأهم منه هو تكوين الثقافة الإدارية على مسـتوى الأفراد والقيادات، وتهيئة بيئة العمل الصحية مـن خلال اللوائح والنُّظُم الفاعلـة في الميدان لا المرصوصة في الأدراج.

**العالـم الافتراضـي:** لقد أوجدت الشـبكة العنكبوتية تعريفـاً آخر للحياة الاجتماعية؛ حيـث جمعت العالم في آلة صغيرة بحجم كف اليد يحملها الشـخص في جيبه، وأوجدت داخل هذا العالم الافتراضي الجامعات والمكتبات والأسـواق والشبكات الاجتماعية المتنوعة. وآليات التفاعل مع هذا العالم في تطوُّر مستمر، ونحن - شئنا أم أبينا - لا بد أن نتعامل مع المجتمع على ضوء هذه التغييرات.

**التقنية:** تتطور وسائل الاتصال والتقنية بشكل يصعب على العاملين متابعتها وإدراك كيفية اسـتثمارها، والحل من وجهة نظري يكمن في تغيير فلسفة العمل لدى مؤسساتنا الخيرية؛ بحيث تُدخَل التقنية كجزء أساس في خطط وإستراتيجيات وهياكل هذه المؤسسـات. وحينها سنلاحظ إقامة المؤتمرات واللقاءات، والمسـابقات، والمنتديات، والمقالات، والدراسات التي تبحث مدى الاسـتفادة من وسـائل الاتصال والتقنية، وستُدرَج الأقسام التقنية في هياكل مؤسساتنا، وستستقطب الكفاءات لاسـتثمارها في هذا المجـال. إذا نجحنا في هذه النقلة، فسيأتي اليوم الذي نستبدل به التسجيلات الإسلامية براديو السـتالايت، وتلفزيون الإنترنت. ونستبدل التوجيهات والإعلانات الورقية في المسـاجد بشاشات LCD محوسبة تديرها مكاتب الدعوة بشكل مركزي.. وسنُرجِع دورَ المسجد فـي التأثير على أهل الحي.. وسـتكون للجهـات الخيرية شبكة من المتطوعين في شتى المجالات والتخصصات، تخدم المجتمع في أي مكان كانت.

**الكفـاءة الإسـتراتيجية:** إذا كَثُـر الباعـة وتنوعت البضاعة فسـيلجأ الجمهـور إلى الاختيار، وهنا سـيبقى الأقـوى، والقوة لا ترتبط بالحجم علـى كل حال، وإن أريد لها ذلك. ونظراً لكبـر التحدي وكثرة المعوقات وقلة الموارد فإنه لا بد للعاملين من التركيز على فئات ومؤسسات وبرامج محـددة تراهن عليها في الفترة القادمـة. وفي نظري فإن أهم فئة يمكن الاسـتثمار فيها هي: النساء، والشباب (ذكوراً وإناثاً)، وأهم مجال يمكن العمل من خلاله في الفترة القادمة: الإعلام والترويح والسياحة، وأهم محتوىً يجب تقديمه هو: الوعـظ والرقائق - وهـذا بطبيعة الحـال لا يعني إهمال الفئـات أو المجالات أو المواضيع الأخرى - أما المؤسسـات فيرتبط اختيارها بمـدى قدرتها على تحقيق أهـدافنا. ثُمَّ إن اهتمامنـا بهذه الفئات والمجـالات لا يحقق لنا الكفاءة الإسـتراتيجية إلا إذا تميَّزنا ببرامجنا وما نقدمه للجمهور، ونجحنا في تقديم مـادة يحتاجها الجمهور ويبحثون عنها ولا يجدونها عند غيرنا.

ويبقى السؤال المهم هو: هل ستغفو الصحوة؟

الذي أرجوه - إن شاء الله - أنَّ الصحوة وإن غفت قليلاً فهي على أبواب صحوة جديدة سـتعيدها يافعة، وسـيعاني فرسـانها الجدد معوقات الانطلاق من ضعف الموارد المالية والبشـرية وكثرة التحديات: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْـرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [ **يوسف** : ٢١].

# الاستقامة بلا طغيان

محمد المطري
matari63@hotmail.com

قال الله – تعالى –: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]. أمر الله في هذه الآية النبي ﷺ وأمته بالاستقامة على شرع الله ونهاهم عن الطغيان؛ فالله يريد منا استقامة بلا طغيان.

والاستقامة: هي التمسك بأمر الله فعلاً للطاعات، وتركاً للمعاصي والسيئات[١].

والطغيان: هو إفراط الاعتدال في حدود الأشياء ومقاديرها[٢]؛ أي: مجاوزة الحد المشروع والغلو. قال ابن جرير في تفسيره للآية: (فبيَّن أن الاستقامة بعدم الطغيان وهو مجاوزة الحد، والمقصود من العبد الاستقامة وهي السداد؛ فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، وعند مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجوَ أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»؛ فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها؛ فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال، وأخبر في حديث ثوبان[٣] أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة؛ وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم؛ كالذي يرمي إلى الغَرض، وإن لم يُصِبه يقاربه، ومع هذا فقد أخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجِّي يوم القيامة؛ فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله) اهـ[٤].

وتأمَّل قوله – تعالى –: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ أي: لا تستقم كما تهوى نفسك، بل استقم كما أمرك ربك، والنفس قد تهوى الإفراط أو التفريط، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والواجب على كل مسلم أن يتحرى التوسط والاعتدال؛ بحيث لا يقصر ولا يغالي. قال الله – تعالى –: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال ابن جرير: (الوسط في هذا الموضوع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍّ فيه غلوَّ النصارى، ولا أهل تقصير فيه تقصيرَ اليهود، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوساطها.

وقال ابن القيم: (الوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل، وهو الذي عليه بناء مصالح الدنيا والآخرة)[٥].

(١) انظر فتح الباري: (١٣/ ٢٥٧)، وتفسير الماوردي: (٥/ ١٧٩).
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، (ص ٢٢٧).
(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد: (٥/ ٢٧٧).
(٤) تفسير ابن جرير: (٢/ ٦٢٦ – ٦٢٧) باختصار.
(٥) الفوائد لابن القيم: (ص ١٣٩).

وقال الشاطبي: (الشـــريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه... فهكذا تجد الشريعةَ أبداً في مواردها ومصادرها جارية على هذا الترتيب الوســـط المعتدل، فإذا نظـــرت إلى كليَّة من كليَّات الشريعة فتأملتَها وجدتَها حاملةً على التوسط)[1].

وقال الأوزاعي: (ما من أمر أمر الله به إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين ولا يبالي أيهما أصاب: الغلو أو التقصير).

وقال الطحاوي: (دين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، وهو بين الغلو والتقصير)[2].

وعن بريدة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «عليكم هدياً قاصداً (قالها ثلاثاً)؛ فإنَّ من يشاد هذا الدين يغلبه»[3].

وعن ابن مســـعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[4].

والمتنطعون هـــم المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، وأما المتمسكون بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ فليسوا متنطعين ولا متشددين، بل هم المستقيمون على شرع الله ودينه الذي رضيه الله لهذه الأمة ويسَّـــره لها ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وعـــن محجن بن الأدرع - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن خير دينكم أيسره» قالها ثلاثاً[5].

فيجب على المســـلم أن يســـتقيم على شـــرع الله بلا غلو وطغيان؛ فلا يقصر عن الاستقامة فيقع في التفريط، ولا يجاوز الحـــد فيقع في الإفراط. والتفريط لا يخفى أمره على المتقين، ولكن الإفراط يخفى على بعض الصالحين؛ فأهل الاســـتقامة يُخشَى عليهم من الغلو والطغيان؛ ولذا كثرت الآيات والأحاديث المحـــذِّرة من ذلك، وقد نهانا الله - عـــز وجل - عن الغلو كما نهـــى الذين من قبلنا. قـــال - تعالى -: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَـــابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النســـاء: ١٧١] وأخبر النبـــي ﷺ أنهم أُهلِكوا بالغلو؛ فعـــن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[6].

فالغلو في الدين ضرره عظيم وشرُّه مستطير، وآثاره سيئة للغاية على الغالي نفسه وعلى أسرته، وعلى مجتمعه وأمته.

(١) الموافقات: (٢/ ١٦٣) بتصرف.
(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز: (ص ٥٨٥).
(٣) أخرجه أحمد: (٥/ ٣٥٠) وصححه الألباني.
(٤) أخرجه مسلم: (٢٦٧٠).
(٥) أخرجه أحمد: (٥/ ٣٢).
(٦) أخرجه النسائي: (٥/ ٢٦٨).

## من أسباب الغلو:

ومن أعظم أسباب الغلو الجهل بالدين؛ لا سيما إن كان الغالي من أنصاف المتعلمين أو ممن يجعل نفسه من المجتهدين غلطاً، فيَضِل ويُضل بغير علم وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً أو كان من المجتهدين في علم من العلوم الشرعية ولكنه لا يتأدب مع العلماء السابقين ولا العلماء اللاحقين، ولا يتسع صدره للخلاف معهم في مسائل الاجتهاد، ويريد أن يُلزم الناس بقوله طغياناً وظلماً.

ومن أسباب الغلو أيضاً عدم مراعاة المصالح والمفاسد، وهذا راجع إلى الجهل أيضاً؛ فمن المقرر عن العلماء الراسخين أنه يجب ارتكاب أدنى المفسدتين للسلامة من أعلاهما، ويجب ترك إحدى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، وعندهم أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخفِّ الضررين بتحصيل أعظم الضررين؛ فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا معاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)[8].

(٧) انظر مشكلة الغلو في الدين: (١/ ١٢٤).
(٨) مجموع الفتاوى: (٢٣/ ٣٤٣).

## من صور الغلوِّ:

من الصور السيئة للغلو والطغيان التي يقع فيها بعض أهل الإيمان ما يلي:

### التفسير والتشديد على النفس وعلى الناس:

وهذا خلاف ما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ نبي الرحمة الذي قال الله - تعالى - عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فقد بعثه الله بالحنيفية السمحة. قال الله - تعالى -: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً؛ فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه)(٢).

وعن أبي برزة - رضي الله عنه - قال: (غزوت مع رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره)(٣).

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «بشروا ولا تنفِّروا، ويسروا ولا تعسروا»(٤).

وعن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: (أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا. قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشدَّ غضباً في موعظة منه يومئذٍ فقال: «يا أيها الناس! إن منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلى بالناس فَلْيجوِّز؛ فإن فيهم المريضَ والكبيرَ وذا الحاجة»(٥).

وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن هذا الدين متيم فأوغل فيه برفق، ولا تبغِّض إلى نفسك عبادة الله؛ فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»(٦).

قال ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرُّخص إلا عجز وانقطع فيُغلَب)(٧).

(١) أخرجه مسلم: (١٤٧٨).
(٢) أخرجه البخاري: (٦١٢٦)، ومسلم: (٢٣٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٢١١).
(٤) أخرجه البخاري: (٤٣٤١)، ومسلم: (١٧٣٣).
(٥) أخرجه البخاري: (٦١١٠)، ومسلم: (٤٦٦).
(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (١٨/٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٢٣٤٢).
(٧) فتح الباري: (١١٧/١).

ومن هؤلاء المتعمقين مَن لا يكتفي بترك الرخص، بل يُلزم الناس بتركها، ويقدح ويطعن في من يفتي بالرخصة في بعض المسائل الاجتهادية، ويريد من الناس أن يعملوا بالأفضل والأكمل والأحوط في كل ما يختاره ويذهب إليه، وقد يكون الأمر واسعاً فلا يرضى إلا بتصنيفه، ومَن شق على المسلمين شق الله عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له)(٨). وقال أيضاً: (أكثر الناس يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً؛ إذ لا يقدرون على الأفضل، ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه)(٩).

ومن الأدلة على هذا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»)(١٠).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن أعرابياً قال: يا رسول الله! أخبرني عن الهجرة فقال: «ويحك إنَّ شأن الهجرة شديد؛ فهل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «فهل تؤدي صدقتها؟» قال: نعم. قال: «فاعمل من وراء البحار؛ فإن الله لن يَترَك من عملك شيئاً»(١١).

وقد قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٣]. قال ابن كثير في تفسيره: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو المفرِّط في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرَّمات، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعضَ المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات)، ثم نقل عن محمد بن الحنفية قوله: (إنها أمَّة مرحومة: الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله. والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله)(١٢).

(٨) مجموع الفتاوى: (٦٠/٢٣).
(٩) مجموع الفتاوى: (١١٩/١٩)، وانظر: (٣٤٨/٢٢).
(١٠) أخرجه البخاري: (٣٠٠٤)، ومسلم: (٢٥٤٩).
(١١) أخرجه البخاري: (٦١٦٥).
(١٢) تفسير ابن كثير: (٥٣٢/٣ - ٥٣٤).

## الغلظة والجفاء وسوء الأخلاق:

فمنهم من هو غليظ العشرة سيئ المعاملة تارك للرفق في أموره مُقطب الوجه من ضيق صدره؛ فهل هذه هي السُّنة؟

لقد كان النبي ﷺ أحسن الناس أخلاقاً[1]. قال الله – تعالى –: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن جرير – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «من يُحرم الرفق يُحرَم الخير»[2].

وعن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه»[3].

وعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «من أُعطِي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرِم حظه من الرفق حُرِم حظه من الخير»[4].

وعن سهل بن سعد – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «المؤمن مَأْلَفة ولا خير في من لا يألَف ولا يؤلَف»[5].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «حُرِّم على النار كل هيِّن لينٍ سهل قريب من الناس»[6].

قال سعيد الزبيدي: (يعجبني من القراء كل سهلٍ طلق مضحاك؛ فأما من تلقاه ببشْر ويلقاك بضَرس [أي شرس] يمنُّ عليك بعمله فلا كثَّر الله في الناس أمثال هؤلاء)[7].

## سوء الظن بلا برهان، والغيبة والنمية والبهتان:

قال الله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، إن (سوء الظن هو اعتقاد جانب الشر وترجيحه على جانب الخير في ما يحتمل الأمرين معاً)[8].

قال عمر – رضي الله عنه –: (لا تظنَّن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً)[9].

وقد عدَّ ابن حجر الهيثمي سوءَ الظن بالمسلم من الكبائر وقال: (كل مَن رأيتَه سيئ الظن بالناس طالباً لإظهار معايبهم فأعلم أن ذلك لخُبْث باطنه وسوء طويته؛ فإن المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه)[10].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»[11].

وعن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذِكْرُك أخاك بما يكره. قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[12]؛ من البهتان وهو الباطل.

وعن أبي برزه الأسلمي – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[13].

فلا أحد يَسْلم من النقص والتقصير والذنوب، والواجب هو التناصح لا الطعن والهمز واللَّمز، وينبغي أن يُعلَم أن العدل هو من قارب وسدد وغلب خيره على شره. قال الشافعي: (لو كان العدل من لم يذنب لم نجد عدلاً، ولو كان كل ذنب لا يمنع من العدالة لم نجد مجروحاً، ولكن من ترك الكبائر وكانت محاسنه أكثر من مساوئه فهو عدل)[14].

قال الشاعر:

من الذي تُرضَى سجاياه كلها؟
كفى المرء نُبْلاً أن تُعَدَّ معايبه

وقال آخر:

---

(١) قاله أنس، رضي الله عنه. أخرجه البخاري: (٦٢٠٣)، ومسلم: (٢١٥٠).
(٢) أخرجه مسلم: (٢٥٩٢).
(٣) أخرجه مسلم: (١٨٢٨).
(٤) أخرجه الترمذي: (٢١٣) وصححه.
(٥) إخرجه أحمد: (٥/٣٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة: (١/٧١١).
(٦) أخرجه الترمذي: (٢٤٨٨) وحسنه.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان، (ص ١٩٦).
(٨) نضرة النعيم: (١٠/٤٦٥٢).
(٩) تفسير ابن كثير: (٤/٢١٤).
(١٠) الزواجر عن اقتراف الكبائر، (ص ١٠٩).
(١١) أخرجه البخاري: (٦٠٦٦)، ومسلم: (٢٥٦٣).
(١٢) أخرجه مسلم: (٢٥٨٩).
(١٣) أخرجه أبو داود: (٤٨٨٠).
(١٤) انظر كتاب ثمرات النظر في علم الأثر لابن الأمير الصنعاني، (ص ١٠٩ – ١١٨).

من الذي ما ساء قط؟
ومن له الحسنى فقط؟

فلا معصوم إلا الأنبياء، وكل بني آدم خطَّاء، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

واعلم أن سوء الظن بالمسلم وغِيبَتَه قد يؤديان إلى النميمة وهي نقل كلام الناس على جهة الإفساد بينهم؛ فعن عبد الرحمن ابن غَنْم - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله، وشرار عباد الله المشَّاؤون بالمنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»[1]. أي: يطلبون العيوب القبيحة للأبرياء، وما أكثر هؤلاء لا كثَّرهم الله، فيبدِّعون من ليس بمبتدع، ويضللون من خالفهم في مسائل اجتهادية[2].

## الجدال والمخاصمة والتباغض والهجران:

عن أبي أمامه - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»[3].

وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من ترك المراء وهو محق بُنِي له بيت في وسط الجنة»[4].

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: (كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال مماريا)[5].

وقال ميمون بن مهران: (إياك والخصومة والجدال في الدين! ولا تجادلَن عالماً ولا جاهلاً: أما العالم فإنه يَحْزِن عنك علمه ولا يبالي ما صنعت، وأما الجاهل فإنه يُخشِّن بصدرك ولا يطيعك)[6].

وقال الأوزاعي: (إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل)[7].

وكثيراً ما يؤدي الجدال والخصام إلى التباغض والتهاجر، وهذا خلاف ما أمر النبي ﷺ أمته؛ فعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا تَبَاغضوا ولا تَحَاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[8].

وعن حدرد الأسلمي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»[9].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إذا لم يكن في الهجر انزجار أحد بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم يكن مأموراً به؛ فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً فاستعملوا من الهجر ما لم يؤمَروا به وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرَّمات وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه)[10].

ومن أصول الشريعة أنها تأمر بكل ما يدعو إلى الأُلفة والتحابب بين المسلمين، وتنهى وتزجر عن كل ما يسبب التهاجر والتباغض بين المسلمين؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتهم؟ أفشوا السلام بينكم»[11].

## التفرق والاختلاف:

قال الله - تعالى -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ أي قوَّتكم ونصركم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً أنواع الفساد التي يؤدي إليها التنازع والاختلاف: (التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف، حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه، ويحب بعضاً يواليه على غير ذات الله، وحتى يفضي ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وبعضِهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وبعضِهم إلى المهاجره والمقاطعة، وهذا كله من أعظم

(١) أخرجه أحمد: (٤/٢٢٧).
(٢) انظر كتاب تصنيف الناس بين الظن واليقين للشيخ بكر أبو زيد.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٥٣) وصححه.
(٤) أخرجه الترمذي (١٩٩٣) وحسنه.
(٥) أخرجه الدارمي: (١/١٠١).
(٦) أخرجه الدارمي: (١/١٠٢).
(٧) شرح أصول الاعتقاد: (ص ١٤٥).
(٨) أخرجه البخاري: (٦٠٦٥)، ومسلم: (٢٥٥٩).
(٩) أخرجه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في الصحيحة: (٩٢٨).
(١٠) مجموع الفتاوى: (٢٨/٢١١ - ٢١٣) باختصار وتصرف، وانظر: (٢٨/٢٠٤ - ٢٠٩).
(١١) أخرجه مسلم: (٥٤).

الأمور التي حرَّمها الله ورسوله، والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورســـوله... وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة، بل وفي غيرها هو التفرق والاختلاف؛ فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله بـــه عليم، وإن كان بعض ذلك مغفـــوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يُغفَر فيه خطؤه أو لحســـناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك، لكن يُعلَم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام؛ ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسُّنة والجماعة)[1].

## الظلم وعدم الإنصاف:

قال الله – تعالى –: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾ [النســـاء: ١٣٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُـــهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـــنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية: (نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القـــول الباطل الذي مع منازعه فيه حقٌّ مَّا أو معه دليل يقتضي حقاً مَّا، فيرد الحق في هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل، كما رأيته لكثير من أهل السُّنة في مســـائل القدر والصفات والصحابة وغيرهم، وأمـــا أهل البدعة فالأمر فيهـــم ظاهر، وكما رأيته لكثير من الفقهاء أو لأكثر المتأخرين في مسائل الفقه)[2].

وقـــال أيضاً: (أكثـــر الاختلاف الذي يـــؤول إلى الأهواء بين الأمة من القســـم الأول [يعني مـــن الاختلاف الذي فيه ذم الطائفتين جميعاً] وكذلك آل إلى ســـفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضـــاء؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخـــرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفســـها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك، وكذلك جعل الله مصدر الاختلاف البغي في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِيـــنَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ لأن البغـــي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غيـــر موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة)[3].

وقـــال أيضاً: (ولكن الاجتهاد الســـائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مـــع البغي لا لمجرد الاجتهـــاد... فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد الســـائغ بل مع نوع بغي؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن القتال في الفتنة، وكان ذلك مع أصول السُّنة)[4].

والإنصاف عزيز. قال الإمام مالك: (ما أقل الإنصاف في زماننـــا!)[5]؛ فكيف لو رأى زماننـــا؟ وبالإنصاف يقل الخلاف ويحصل الائتلاف.

## التضليل والتفسيق والتبديع والتكفير بلا برهان:

قال الله – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَـــبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًـــا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَـــكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْـــمُ الْفُسُـــوقُ بَعْدَ الإِيمَـــانِ وَمَن لَّمْ يَتُـــبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُـــونَ﴾ [الحجرات: ١١]. قال ابن جرير في تفســـيره: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ لا يعِب بعضكم بعضاً أيهـــا المؤمنون، ولا يطعن بعضكـــم على بعض، وقوله: ﴿وَلا تَنَابَـــزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ يقول: ولا تداعوا بالألقاب، عن عكرمة ومجاهد قالا: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا كافر. وعن قتادة قال: لا تقل لأخيك المســـلم: ذاك فاســـق، ذاك منافق، نهى الله المســـلمين عن ذلك. قال ابن جرير: التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه: من اسم أو صفه، وعمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصص بـــه بعض الألقاب دون بعض؛ فغير جائز لأحد من المســـلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها[6].

وعـــن أبي ذر – رضـــي الله عنه – عـــن النبي ﷺ قال: «مـــن دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»[7].

قـــال ابن دقيق العيد: (وهذا وعيد عظيم لمن كفَّر أحداً من المســـلمين، وليس هو كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق من العلماء اختلفوا في العقائد وحكموا بكفر بعضهم بعضاً)[8].

وعن معقل بن يســـار – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان غشوم ظالم، وغالٍ في الدين يشهد عليهم ويتبرأ منهم»[9].

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأرزقنا الاستقامة كما أمرتنا بلا طغيان.

(١) مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٣٥٦ – ٣٦٨) بتصرف.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: (ص ٣٨) بتصرف.
(٣) كتاب الجماعة والفرقة لشيخ الإسلام جمع عبد السلام بن محمد، (ص ٤٧) بتصرف.
(٤) المرجع السابق: (ص ٦٦).
(٥) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ٥٣١).
(٦) تفسير ابن جرير: (٢١/ ٣٦٦ – ٣٧١) باختصار وتصرف.
(٧) أخرجه مسلم: (١١٢).
(٨) انظر كتاب الغلو في الدين لعبد الرحمن اللويحق: (ص ٢٦٢).
(٩) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الألباني في الصحيحة: (٧٦٢٨).

# اضطراب الملحدين (٣-٤)

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

بدأنا هذه السلسلة من المقالات القصيرة بمقدمة ثم ثنَّينا بالتعليق على نقد دوكنز للبراهين العقلية على وجود الخالق، وعلَّقنا على دعوى الفيزيائي الشهير هوكنز في كتابٍ له حديثٍ بأنه ليس هنالك من حاجة لوجود الخالق سبحانه، ونواصل اليوم تعليقنا على هوكنز، ثم نعود إلى دوكنز ودعواه بأن الدارونية تُغْنِي عن وجود الخالق، ثم نتناول في المقال الأخير اضطرابَه وغيرَه من الملحدين في العلاقة بين الإيمان والأخلاق.

مما قاله هوكنز في الدليل على عدم الحاجة إلى الخالق – سبحانه –: أن القوانين الفيزيائية – ولا سيما قانون الجاذبية – كافية وحدَها لإخراج الكون من العدم إلى الوجود.

ونقول: إن قانون الجاذبية نفسه يفترض وجود موجودات؛ لأن الجاذبية إنما تكون بين أشياء موجودة؛ فكيف يكون هذا القانون هو الذي يوجد الكون من العدم؟

ثم نقول: إن القوانين الطبيعية ليست بالشيء الأزلي، وإنما محدَثَة شأنها في ذلك شأن المخلوقات التي تحكمها؛ فكيف تكون هي التي تُحدِثها من العدم؟

إن مشكلة هؤلاء الملحدين هي أن تصوُّرَهم للخالق تصوُّر في غاية القصور، حتى يمكن للمرء أن يقول: إنه لا داعي لإنكار وجوده؛ لأنه أصلاً شيء لا يمكن أن يوجَد.

لَمَّا كانت مهمة الإله في تصوُّر كثير ممن يسمَّون بالمفكرين الغربيين محصورة في أن يبدأ الخلقَ، ثم يتركه بعد ذلك يسير وحدَه بالقوانين الطبيعية، كما يحرك إنسان عجلةً من مكان عالٍ متدحرِج، كان من السهل على رجال من أمثال هوكنز أن يقولوا: إن الكون مستغنٍ عن خالق كهذا؛ لأنه يمكن أن يبدأ سَيرَه مستقلاً عنه.

هذا مع أن الخالق الحق هو خالق لا يكون شيء في الوجود إلا بإذنه وعلمه وقدرته، كما قال – تعالى –: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. وكما قال – سبحانه –: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

مِنْ فَهْمِهم القاصر للخالق – سبحانه وتعالى – أن الكثيرين منهم ما زالوا يخلطون بين المخلوقية والسببية؛ وهي قضية ناقشها مناقشة مفصَّلة وفرغ منها علماء المسلمين منذ قرون. إنهم يظنون أنه إذا اكتُشف سبب حدوث شيء فذاك يعني أنه ليس مخلوقاً، وأن السبب النهائي لحدوثه هو هذا السبب المشاهَد، وكان كثير من المؤمنين بوجود الخالق يستدلُّون على وجوده بالحوادث التي لم يصل العلم التجريبي إلى اكتشاف أسباب لها؛ لذلك كان الملحدون يسخرون منهم ويسمون خالقهم إلهَ الفجوات، ولا سيما أن العلم الطبيعي كان يسد بعض هذه الفجوات باكتشافه لأسباب الحوادث التي قيل: إنه لا يحدثها إلا الله تعالى.

## الدارونية والإلحاد:

ذكرنا تعليقات بعض الفيزيائيين على كتاب هوكنز. ونذكر الآن تعليق داعية الإلحاد البيولوجي الداروني دوكنز. لقد استقبل دوكنز الكتاب بفرح شديد، كما هو متوقع، وقال معلقاً عليه في صفاقة: (إن الدارونية ركلت الخالق فأخرجته من الأحياء، لكن الفيزياء ظلت مترددة إلى أن جاء هوكنز فضربه الضربة القاضية)[1].

لقد رأينا حجة هوكنز وما فيها فَلْنُعِد النظر الآن في حجة دوكنز التي زعم أنَّ دارونيته أخرجت بها الخالق من نطاق الأحياء، وأقول دارونيته؛ لأنه ما كل أحيائي، بل ما كل دارويني يوافقه على ما ذهب إليه، كما أنه ما كل فيزيائي يتفق مع هوكنز كما رأينا.

ويزعم دوكنز أن لديه بديلاً أحسن من القول بوجود خالقٍ خلقَ الخلقَ بإرادته وعلمه. ما هذا البديل؟ يقول: (إن أي خلاَّق ذي وعي يكون من التعقيد بحيث يستطيع أن يصمم أي شيء، لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة لعملية تطوُّرية طويلة.

بما أن الوعي الخلاَّق يأتي عن طريق التطور فإنه يكون بالضرورة في آخر

(1) "Another ungodly squabble". The Economist. 201005-09-. http://www.economist.com/blogs/babbage/201009//science_and_religion. Retrieved 201006-09-.

الكون، فلا يمكن لذلك أن يكون مسؤولاً عن تصميمه)[1]

إن حجة دوكنز هذه من النوع الذي يسمى بالمصادرة على المطلوب، وهي أن يجعل الإنسان ما يُطلَب منه برهانُه من مقدمات ذلك البرهان. لقد بدأ حجته بدعوى أنه سيأتي ببديل عن وجود الخالق. والذي يزعم أن بديله هو الأحسن لا بد أن يأتيَ بأدلة مستقلة عن دليله تبرهن أفضليته. لا يمكن أن يدَّعي إنسان - مثلاً - أن الدكتاتورية خير من الديمقراطية، ثم يدلل على ذلك بحجج مبنيَّة على أفضلية الدكتاتوري. لكن هذا بالضبط هو الذي فعله دوكنز. لقد افترض أنه لا يوجد موجود ذو وعي إلا إذا كان مثل الكائنات الحية التي يتعامل معها علم الأحياء، والتي تنطبق عليها قوانين الدارونية. هذا مع أن خصمه يزعم أن هذه الأحياء التي تتحدث عنها الدارونية ما كانت لتوجد لولا وجود خالق ليس هو من نوعها، خالقٍ لا يصدق عليه وصفُه بأنه لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة عملية تطورية طويلة.

إن نظرية دوكنز التي جعلها بديلاً عن القول بوجود الخالق لا تحل أهم إشكال يحله القول بوجوده - سبحانه - وهو أن النظر في طبيعة هذه الكائنات يدل كما قلنا من قبل على أنها ليست أزلية، وأنها لا يمكن أن تكون قد جاءت من العدم، ولا يمكن أن تكون هي الخالقة لنفسها؛ فلا بد لها لذلك من خالق. وكما أن هذا يقال عن الكائنات الكبيرة المشهودة، فإنه يَصْدُق أيضاً على الكائنات الصغيرة التي زعم دوكنز أن كائنه الواعي الخلاَّق تكون منها.

إن العلماء الطبيعيين من أمثال هوكنز ودوكنز بدؤوا يفتنون الناس في بلادهم وفي غيرها من البلاد التي يُتَأثَّر فيها بفكرهم، وما أكثرها! بدؤوا يصوِّرون لهم الإلحاد على أنه هو المعتقد الصحيح الذي يدل عليه علمهم ويدعمه.

إن ثقة الناس الشديدة بالعلوم الطبيعية هي التي تجعلهم يعتقدون صحة كل ما يقال لهم: إن هذا العلم يدل عليه. وقد علمت علماً مباشراً بتأثُّر بعض شباب العالم الإسلامي، بل العربي منه بهذه الفتنة. ولعل من أسباب ذلك أن الدارسين منهم لفروع هذه العلوم لا يعرف - حتى المتدين منهم - ما يتعلق بهذه القضايا في دينه، فيكون مثله في ما يتعلق بها كمثل زميله الغربي، ولعل من أسباب ذلك أيضاً قلة ما يسمى بالثقافة العلمية بين المتخصصين بما يسمى بالعلوم الشرعية. لا أحد بالطبع يتوقع أن يكون كل من جعل همه دراسة التفسير أو الحديث أو الفروع الفقهية أو اللغة العربية متبحراً في العلوم التجريبية، كما أنه لا يُتوقَّع من كل متخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون إلى جانب ذلك متبحراً في الدراسات الشرعية. بل إنه لا يُتوقَّع ممن تخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون عالماً بها كلها؛ فمن تخصص بالفيزياء لا يكون عالماً بالأحياء كعلم المتخصص بها... وهكذا؛ فكيف يُطلَب ذلك من المتخصص بفرع من العلوم الشرعية؟

ولذلك فإننا إنما نتحدث عن الثقافة العلمية التي تؤهل كلَّ مثقف أن يكون ملمّاً بنتائج تلك العلوم، عارفاً بالقضايا العامة التي تثيرها، أعني القضايا التي يسميها القوم بالفلسفية.

وكذلك صاحب العلوم الطبيعية بالنسبة للعلوم الشرعية. إن المطلوب منه أن يعرف أمور دينه معرفة عامة وأن يكون ذا صلة مستمرة بكتاب الله - تعالى - حتى يبني تصوُّره العام عليه، بل لا بد له من أن يعرف بقدر من التفصيل بعض ما يتعلق بقضايا علمه من مسائل العقيدة؛ لا بد له من معرفة التصور الصحيح لصفات الخالق، تصوُّر أئمة أهل السُّنة الذي ربما كان هو السبب الأساس في إنقاذ المسلمين من الإلحاد.

كيف ذلك؟

لقد انقسم خصوم أهل السُّنة في هذه المسألة إلى فريقين فريق الجهمية الذين لا يكادون يُثبتُون لله صفة، وفريق المجسِّمة الذين يشبهون الخالق بمخلوقاته مع فارق واحد هو كونه أكبر منها. ولذلك لخص أئمة أهل السُّنة هذين المذهبين بقولهم: الجهمية يعبدون عدماً والمجسمة يعبدون صنماً.

واضح أن الانتقال من إله الجهمية إلى الإلحاد أمر في غاية الاحتمال. إن المفكر الذي يأخذ اعتقاد الجهمية مأخذ الجد يوشك أن يقول لنفسه: ما الفرق بين أن أقول: إنني مؤمن بشيء لا يوصف بصفة من الصفات، وأن أقول: إنني لا أؤمن بشيء؟ كذلك الانتقال من التجسيم إلى إنكار وجود الخالق؛ فقد يقول الإنسان لنفسه: إذا كان الدليل على وجود الخالق هو كون هذه المخلوقات تحتاج بطبيعتها إلى من يخلقها، وكان هذا الذي يقال إنه خالق هو مثلها مع فارق الحجم، فإنه أيضاً يحتاج إلى خالق؛ لأن الحجم لا تأثير له في كونه محتاجاً إلى خالق.

إن اهتمام بعض المسلمين بهذه القضايا سيكون فيه بإذن الله - تعالى - هداية للناس المعرَّضين للتأثُّر بمثل هذا النوع من الدعاوى التي تربط بين العلم الطبيعي والإلحاد.

ذلك أن التصور الصحيح لصفات الخالق هو الذي يثبت لله - تعالى - كل صفات الكمال وينفي عنه كل صفات النقص ويقول مع ذلك: إنه ليس كمثله شيء. هذا التصور - وهو تصور أهل السُّنة المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - هو الذي سيعصم الناس - بإذن الله تعالى - من الوقوع في شَرَك الإلحاد مهما كانت أنواعها.

---

(١) (ص ٣١) من كتابه، حاولت أن أترجم كلام دوكنز ترجمة يسهل على القارئ العربي فهمها، لكن ها أنذا أضع النص الإنجليزي بين يدي القارئ الذي يعرف الإنجليزية؛ لئلا يتقيد بفهمي:

Any creative intelligence of sufficient complexity to design anything comes into existence only as the end product of an extended process of gradual evolution. Creative intelligences, being evolved, necessarily arrive late in the universe and therefore cannot being responsible for designing it.

# التسرُّبات الفكرية

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

لا تمر ساعة دون أن يدخل (محمد) إلى أحد المواقع الإلكترونية ليناقش عدداً من أصحاب الطوائف والتوجهات المختلفة في مسائلَ وقضايا كثيرة، ثم بعد أشهرٍ من الجدل والحوار المستمر يظهر (محمدٌ) برؤىً وأفكارٍ منحرفة يظنها ضرورية وأساسية للدفاع عن أحكام الشريعة وتصحيح صورة الإسلام والسُّنة.

ولقد أصاب أخانا (عبد الرحمن) قريباً مما أصاب (محمد) غير أنه كان أقلَّ انهماكاً في هذه المعمعة فكان دوره يقتصر على المتابعة والقراءة مع بعض الحوارات الهامشية، فما دارت الأيام حتى كان قلب (عبد الرحمن) يحتضن كثيراً من الإشكاليات والشبهات التي كانت تمر على عينيه الساخطتين فما لبثت أن سكنت قلبَه بعد ذلك.

إن (عبد الرحمن) و (محمداً) نموذجان لظاهرتين منتشرتين في واقعنا المعاصر: ظاهرة الشخص الغيور الذي يدخل في نقاش الشبهات دفعاً لها وتحذيراً منها، وظاهرة القارئ المطلع على هذه الحوارات فضولاً وثقافة ثم ما يلبثا بعد هذا إلا قليلاً حتى ينقلبَ بعضهم على عقبيه أو يكون قد تأثَّر (كثيراً) وتشرَّب عدداً من الأصول والمقدمات الفاسدة.

سأقف مع سبب واحد يفسِّر واقع هذه المشكلة، وسَأدَع بقية الأسباب المؤثِّرة لمقام آخر؛ فلن أتحدث عن ضعف جانب العبادة والاتصال بالله، أو عن إشكالية تهاون المسلم في تحريك دفعات الشبهات على قلبه من دون أن يشد حبل قلبه بالله، ولا عن سبب العُجْب والثقة والاتكال على النفس الذي يُضعِف افتقار العبد إلى مولاه، ولا عن ضعف التأصيل الشرعي، ولا عن التفرد والاستقلال الموهوم الذي يجعل أمثال هؤلاء يأنفون من سؤال أهل العلم والرجوع إليهم، بل لربما ظن – لعظَم الوهم الذي يسكنه – أنه يخوض غماراً لا ينقذ الإسلامَ ولا يحفظ أصولَ الدين فيه إلا رأيُه وفكرُه.

إ ن السبب الذي أريده يتعلق بواقعة (التسليم بالمقدمات والأصول الفاسدة)؛ حيث يدخل المحاور والقارئ هذه الحوارات، وفي غمار معمعة قضاياها وأمواج إشكالاتها يتخذ لنفسه عدداً من الأصول والقضايا الثابتة يدافع عنها ويجيب عن الشبهات بناءً عليها، وقد غفل عن أن هذه الأصول والقضايا لم تأتِه من قراءة تدبُّرية لكتاب الله، ولا من جلوس طويل على صحيح السُّنة ولا من دراسة بحثية لكتب الفقه؛ وإنما جزم بها من خلال هذه الحوارات وحسم أمرها بعد إلزام من هنا أو ورطة هناك.

هي مشكلة قديمة، كثيراً ما يبتلى بها من يقرر أصولَه ومحكماتِه من خلال هذه الحوارات، وقد كانت سبباً ظاهراً لبذور الانحراف العقدي الذي مزق أمة محمد ﷺ من قديم؛ فرأس المنحرفين (الجهم بن صفوان) لم يقرر عقيدته في نفي أسماء الله وصفاته إلا بعد نقاشٍ مع فرقة وثنية أحرجته بأنه لا يستطيع أن يُحِسَّ خالقه ولا يشمه ولا يسمع صوته فهو إذن غير موجود، فحيَّرته هذه الشبهة ومكث أياماً يبحث عن جواب مريح لها، ثم خرج إليهم فأجابهم بأن وجود الله مثل وجود الروح التي في جسد الإنسان، يُقِر الإنسان بوجودها لكنه لا يراها ولا يسمع صوتها، ومن خلال هذا الدليل الذي قرره ليتخلص من ورطته مع الوثنيين بنى تصوُّرَه عن الله؛ فنفى عنه الصفات التي أخبرنا بها – سبحانه – عن نفسه[1].

وقد بذلَتِ الفرق الكلامية جهداً عظيماً في سبيل إقناع الملاحدة بوجود الله فجاؤوا بالدليل العقلي الشهير (دليل حدوث الأعراض والأجسام) وجعلوا إثبات الله لا يقوم إلا به، فحطموا وعبثوا بسببه بكثير من النصوص والأصول الشرعية.

لاحِظ أنهم لم يكونوا يرونها أصولاً فاسدة، أبداً، بل كانت عندهم دليلاً شرعياً وأصلاً ضرورياً لحفظ الإسلام

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، (٩٣ – ٩٥).

وصـدٌّ هجمـات أعدائـه، فزادهم ثقة وتمسُّكاً بهذه الأصول ورفضاً لأي قاعدة أو دليـل يخالفهـا؛ لأنه سـيكون مضرّاً بالإسلام حسب رأيهم.

وإذا أردنـا أن نتخفـف مـن عرض الإشكالات القديمة ونأتي لواقع إشكالاتنا المعاصرة، فسنجد ذات المشكلة حاضرة لم تتغير؛ فمجموعة من الفضلاء يدخلون في حوارات وصدامات فكريـة مختلفة وعلى أصعدة متعددة، يضطر بعضهم بسبب هذه الحوارات لتبنِّي عددٍ من القضايا والمقدمات التي يراها مرتكزات أساسـية للدفاع عن نصوص الشريعة وحِفْظ أحكامها، ويدعمها بعدد من الأدلة الشـرعية، لكنه قد التقط هذه القواعد من تلـك الحوارات ثم بحث بعـد ذلك عـن أدلَّتها في الشـريعة، ولم يستخرجها من قراءةٍ لنصوص الشريعة أو فحصٍ لكلام الفقهاء.

فمثلاً : يخوض حـواراً مع الغربيين دفاعاً عن بناء المسـاجد وحق المسـلمين فـي العبـادة، ويقوم بجهد مشـكور في إحـراج الغربيـين بما فـي موقفهم من تحيُّز ضد المسـلمين، فيقولون له: (إنكم لا تسـمحون ببناء الكنائس في بلادكم؟) فيجيب مباشرة بأن هذا غير صحيح، وأن حرية العبادة مكفولة في بلادنا. وإذا كان أحسن حالاً قال: عدم بناء الكنائس خاص بجزيرة العرب بسبب خاصيتها الدينية أو بسبب انتفاء وجود نصراني فيها.

فلـم يكن بحـث بنـاء الكنائس هنا معتمـداً على نصوص الشـريعة ولا آراء الفقهاء – وإن جاء ذلك فيما بعد – وإنما جاء لضـرورة التخلُّص من هـذا الإلزام المحرِج، فلحاجتـه لجواب مريح قرر مثل هـذه القاعدة مـع أن بإمكانـه أن يقرر بسـهولة أن حديثه مع الغربي هو مطالبة له بأن يكون صادقاً مـع مبادئه وقيمه؛ فبمـا أنكم تقـررون الحياد مـع الأديان فيجـب أن تكونوا كذلك أو تعترفوا بأنكم غير صادقـين، وأما موضوع الكنائس في بلادنا فهو متعلق بأصولنا وقيمنا.

وينتفـض آخـر غَيْـرةً ودفاعاً عن الانتهـاكات التـي تلحق ببعـض الدعاة والمصلحين بناءً علـى (حرية الرأي) وأنه حـق مكفـول للجميـع ما دام لم يقـع منـه عـدوان على أحد، ومـع مواصلة الحوار والسـجال يضطر لأن يجعل حرية الرأي في الشريعة مكفولة لأي أحد؛ فلا عقوبة ولا منع في الشـريعة للرأي، وإنما يكون ممنوعاً مـا كان اعتداءً على الناس، وأما الرأي المجرد فهو حق مصان ولا إشـكال فيه، ويسوق لذلك بعض النصوص. وهي رؤيـة عَلمانية صريحـة لا وجود لها في أي تراث فقهي بتاتاً، لكنها ذات المشـكلة والمرض القديم؛ يريد الشـخص أن يدافع عن الإسلام فيعتقد أصلاً فاسداً يرى أنه لا يمكن تحقيق مقصود الشـريعة إلا من خلاله.

ويعيب شـخص ثالث على النصارى تغييبَهم للعقل وتعطيلَهم له ويسـوق لهم شـواهد من ذلك في معتقدات الخلاص والتثليث وغيرها فيلزمونـه ويقولون له: (لديكم أيضاً في الإسـلام مخالفة للعقل وسنذكر لك أمثلة) فيذكر لهم بارتياح أن الإسـلام (يقدم العقل علـى النقل) فلا وجه لإشـكالكم، وقد ظن أنه قدَّم جواباً رائعاً لهذه الشـبهة، وما درى أنه أراد أن يصلح خدشـاً فهدم قصراً؛ فتخلص بهذا الجـواب من إحراجهم له لكنه أدخل على عقله وقلبه فيروساً خطيراً ما دخل عقل أحد إلا وعبث بدينه ويقينه.

ورابع يخوض غمار الدفاع عن أحكام الإسـلام في المرأة، فيبذل مشكوراً غاية جهده في البرهنة والعقلنة لتلك الأحكام؛ لأنه يستشـعر أن أي ضعـف في الدفاع عن هذه الإيرادات المثارة سـيكون سـبباً للتشـكيك في الإسلام ذاته، ثم يخرج من هـذه الحوارات بآراء، من مثل: مسـاواة المرأة للرجل في الشـهادة، وجواز توليها للولايـات العامة مطلقاً، وبما شـاء من القواعد التي يشـعر بحاجتـه لها لدفع الصائلين على الشريعة.

إن ممـا يزيد المشـكلة تعقيـداً أن الشخص في معمعة هذا الحوار لا يشعر بمثل هذه القواعد والمقدمات الفاسدة من أين دخلت عليه، فيحسـب أنه تلقَّاها من مَعِين الفقه وما يدري أنه إنما غَرَفها من مستنقع آخر.

إذن ما هو الحل؟ هل نترك الدفاع عن قضايا الإسلام ودفع الشبهات؟

لا، أبـداً، ليس الحل أن نترك الدفاع عن قضايا الإسـلام، ولا أن نضعف عنه أو نهوِّن من أي نشـاطٍ فيـه؛ فهذا باب مـن أبواب الجهاد في سـبيل الله، وإنما المطلوب – تحديداً – أن يتحصن الشخص بالعلم الشـرعي أولاً؛ فـلا يخوض غمار هذه السـجالات من لم يكن عالِماً بدينه، ثـم أن لا يعتمد على نفسـه فـي تقرير القواعـد والأصول والأحكام، بل يجب أن يراجع كلام العلمـاء وتقريرات المتقدمين ويستشـير أهـل العلـم المعاصرين؛ لأن المقصود ليس أي جواب عن الشبهة، بل لا بد أن يكون الجواب صحيحاً ومستقيماً، وإلا وقع الشـخص في مشكلتين: تسرُّب الأفكار المنحرفـة إليه، وعدم قدرته على الإقناع والبرهنة ما دام أنه قد وقف على أرضٍ زَلِقة فأقـوى عامل يقوي المُحاور أن يكون مسـتقيماً علـى الحق لم يخلط معه شـيئاً من الباطل؛ لأنـه (من المعلوم أن كلَّ مبطل أنكر على خصمه شـيئاً من الباطل قد شاركه في بعضه أو نظيره فإنه لا يتمكن من دحـض حجته؛ لأن خصمه تسلَّط عليه بمثل ما تسلَّط هو به عليه)[1].

ثبَّـت اللـه قلوبنا على دينـه، ورزقنا اليقين، وصرف عنا مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١) مختصر الصواعق المرسلة، (٨٠).

# نداء من امرأة
# تعشق الحرية

عبدالعزيز بن صالح العسكر(*)

ردُّوا عليَّ عباءتي وخماري ... فَلَقد هتكتم عَنوةً أستاري
لا تسلبوني (حِليةً) أحمي بها ... إشراقتِي ورسالتِي ووقاري
إنِّي احتقرت سُفورَكم وعُريَّكم ... وأجبْتُ دعوة خالقي القَّهارِ
أمِنَ الشَّهامة أن تظلَّ نساؤكم ... مثلَ القطيع بساحة الجزَّار؟
أمِن التحرُّر أن تكونَ نساؤكم ... أسرى بساحِ الفسقِ والأوزارِ؟
أَمِنَ المروءةِ أن تظلَّ بناتُكم ... يرفُلْن في الأسمالِ والأطمارِ؟
أَمِنَ اللَّباقة والكَياسة والحِجا ... أنْ نحْذُ حَذْو منافقٍ غدَّارِ؟
يا قومنا! إنَّ الحياءَ فضيلةٌ ... تحمي النساءَ من الأذى والعارِ
إنَّ التقدُّم لا يكون برقصةٍ ... في مسرحِ الإجرامِ والأقذارِ
إنَّ التقدُّم لا يكون بلبسةٍ ... مفتوحةِ الأكمامِ والأوزارِ
إنَّ التقدُّم لا يكون بفكرةٍ ... جاءت بها (مبعوثةً) الكفَّارِ

(*) عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

# [ المسلمون.. والعالم ]

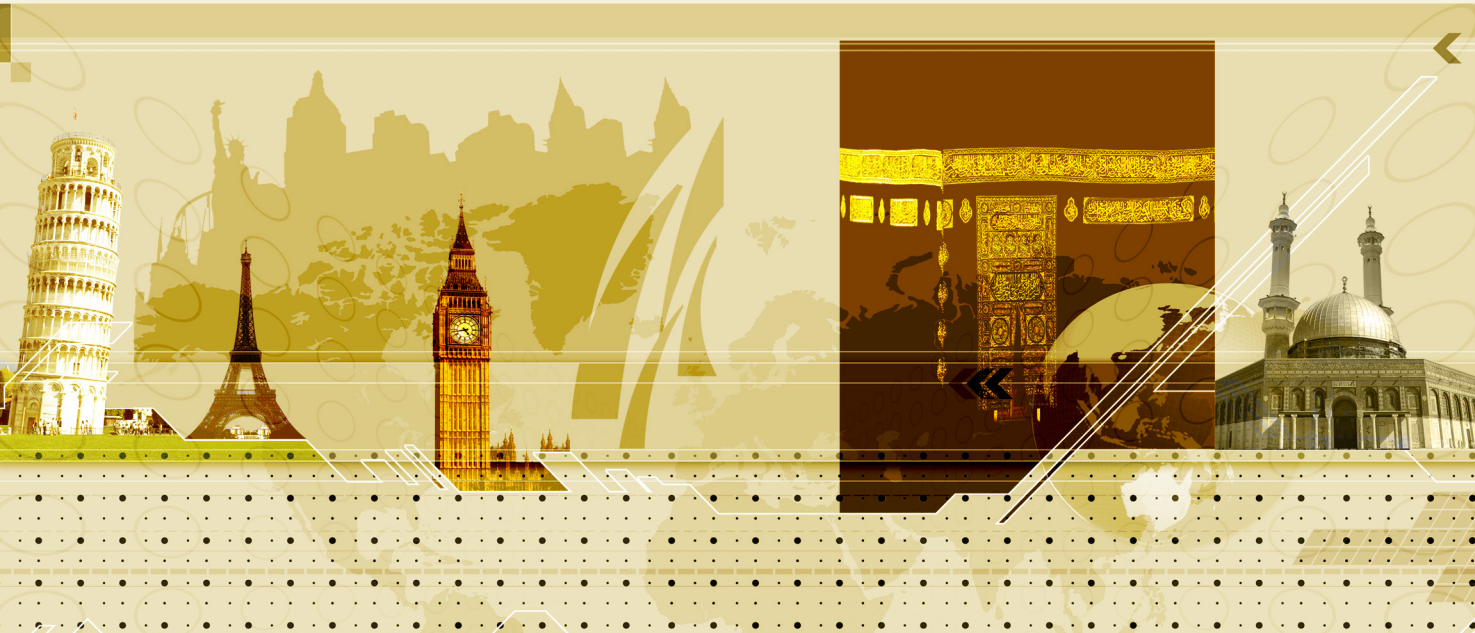

تسـريبات ويكيليكس... مؤامرة، أم فضيحة؟
ممدوح إسماعيل

التمييز العنصري في مناهج التعليم الصهيونية
عبد الكريم القلالي

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

المرشد الإيراني علي خامنئي في مربَّع تنظيم الحجتية
صباح الموسوي

حتى لا ننسى أسرى فلسطين
فؤاد الخفش

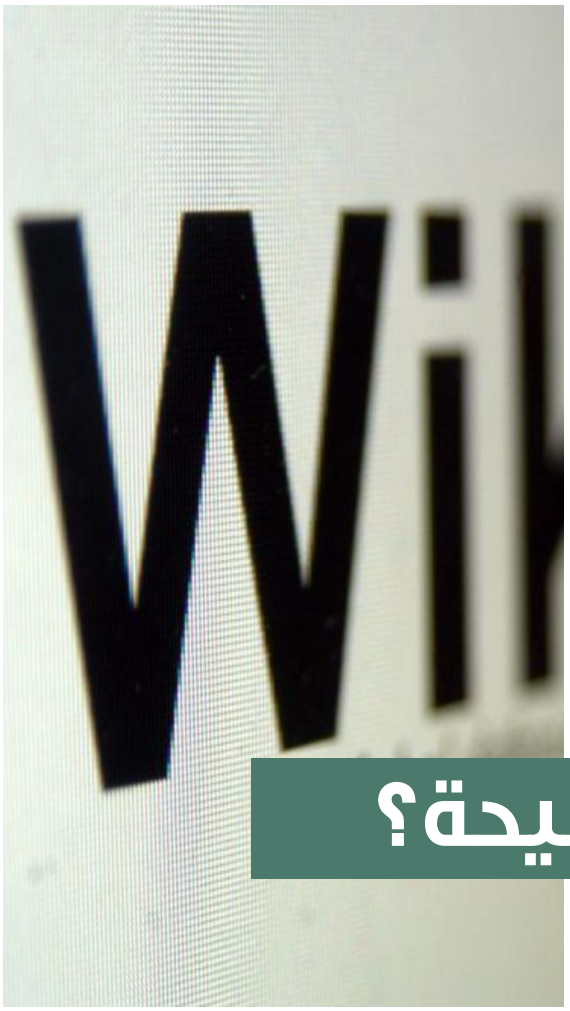

# تسريبات ويكيليكس...

## مؤامرة، أم فضيحة؟

**ممـــدوح إسمـاعـيـل**(*)
Elsharia5@hotmail.com

اهتزت وسائل الإعلام في العالم كله على أثر تسريب موقع ويكيليكس الإلكتروني ٩٠ ألف ثم ٤٠٠ ألف وثيقة ومستند، أعلن أنه جرى تسريبها من البنتاغون، ثم ٢٥٠ ألف وثيقة تم تسريبها من الخارجية الأمريكية. ولأول مرة يستطيع موقع إلكتروني قَهْر وسائل إعلام كبيرة بإمكانياتها الجبارة في خبر هام مثل ذلك الخبر. وهو ما أعطى قوة إعلامية للمواقع الإلكترونية وخاصة موقع ويكيليكس(١).

وقد سبقه موقع فيس بوك من خلال تأثيره في السياسة الداخلية المصرية، ومن ذلك تأثيره في إضراب ٦ أبريل. وكذلك موقع تويتر وتأثيره في أحداث إيران السياسية الداخلية وما شهدته من اضطرابات ومظاهرات كان لها تأثير كبير. والآن يبرز موقع ويكيليكس بدور قوي على الساحة السياسية الأمريكية والعالمية ليتبادر للذهن السؤال التالي: هل هي حقاً حرية وسبق إعلامي، أم مؤامراة لن تتضح خيوطها وأسرارها الآن؟

إن واقع قوة الخبر إعلامياً – وهو الذي يفوق زلزال هايتي وإعصار تسونامي في قوَّته الإعلامية والسياسية – فرض نفسه؛ فسارعت عدة وسائل إعلامية كبيرة وقوية: من فضائيات كالجزيرة، وصحف كالغارديان البريطانية والنيويورك تايمز الأمريكية إلى التنسيق مع الموقع في الاستفادة الحصرية من نشر الوثائق بالتزامن مع بعضهم في وقت واحد.

ومع هذا الانفجار الإعلامي نتوقف وقفات نستضيء بها طريق الرؤية في معرفة حقيقة تلك المستندات المسرَّبة من أقوى وزارة دفاع في العالم لأقوى جيش في العالم طبقاً لكل الإحصائيات والدراسات العسكرية.

---

(*) محام وكاتب.

(١) كلمة «ويكيليكس Wikileaks» معناها بالعربية: تسريبات الويكي، وقد تأسس الموقع عام ٢٠٠٧م تحت عنوان حق الناس في تاريخ جديد، وقد برز على وسائل الإعلام اسم جوليان أسانغ، أسترالي الجنسية؛ وهو أشهر مؤسسي موقع ويكيليكس.

## الوقفة الأولى:

لقد ظهر الموقع من قَبْل بتسريبات كثيرة أحدثت دوياً لكن بحدود وقدر، كان أبرزها ما نشره في يوليو ٢٠١٠م من تسريب ٩٠ ألف وثيقة تتعلق بالحرب على أفغانستان فانتبه العالم كله لأهمية الموقع وذكرت صحيفة «الديلي تلغراف» البريطانية أهم التسريبات التي نشرها موقع «ويكيليكس» الإلكتروني قبل كشفه عن ٩٠ ألف تسجيل ووثيقة عسكرية أمريكية عن خفايا الحرب في أفغانستان وتفاصيلها السرية.

وقالت الصحيفة: «في مقدمة أهم عشرة تسريبات أثارت اهتماماً واسعاً قام بنشرها الموقع: مقطعُ الفيديو الذي أظهر القوات الأمريكية وهي تقتل ١٢ مدنياً من بينهم صحفيين من رويترز في أحد أحياء بغداد عام ٢٠٠٧م».

ومنها رسائل البريد الإلكتروني لعلماء المناخ في العام الماضي قبل قمة كوبنهاغن، تلك التي عززت الشكوك حول الاحتباس الحراري.

ونشر «ويكيليكس» في عام ٢٠٠٧م قائمة بأسماء وعناوين ووظائف أعضاء في الحزب القومي البريطاني المتطرف «بي إن بي» التي كشفت أن من بينهم عدداً ليس بالقليل من ضباط الشرطة والجيش وكذلك أطباء ومحامون.

كما نشر نسخة من إجراءات التشغيل الموحدة لمعسكر دلتا، وهي وثيقة تتضمن تفاصيل القيود المفروضة على السجناء في معتقل غوانتانامو الأمريكي بكوبا.

كما نشر الموقع أيضاً وثيقة لوزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» تعتبر (ويكيليكس) خطراً على الأمن القومي.

إن الشاهد الذي لا يخفى على ذي عقل وفَهْم: هو أن ما نشره الموقع قبل نشر وثائق أفغانستان والعراق كان تمهيداً لنشر مصداقية للموقع على أوسع نطاق.

إن ما نُشِر يؤكد على أن الموقع يقوم بدور خطير يحتاج إمكانيات عالية، منها: أن يكون له عملاء نافذون داخل الأماكن التي جرى تسريب تلك المستندات منها، وهي إمكانيات لا تتحصل إلا لدول أو منظمات تعمل لحساب دول؛ وهو ما يجعلنا نقف أمام مؤامرة خطيرة تحرِّك الأحداث وَفْقَ منظومة عملٍ وأهداف محدَّدة، منها تغيير الأدوار وتأسيس قواعد لعبة جديدة. وما نُشِر يجعل الموقع يتفوق على قناة الـ (سي إن إن) بإمكانياتها الجبارة، ووكالة (رويتر)، والـ (بي بي سي)، وصحف كبيرة مثل التلغراف والواشنطن بوست... وغيرهما؛ ليفرض على المتابع أن يقف أمام حقيقة جديدة تفرض قوة المواقع الإلكترونية (خاصة ويكيليكس)، واحتلالها مكان وسائل إعلام جبارة، ومن ثَمَّ عندما تُنشَر فيها أي تسريبات فإنها تقفز بها إلى قمة المصداقية عند المتابع البسيط وهو هدف في حد ذاته.

وهنا نقف مع تهديد البنتاغون للموقع بعدم نشر المستندات ومحوِها، وإصرارِ الموقع على النشر ليقفز السؤال البديهي: من يتحدى البنتاغون بإمكانياته وسجلِّ مخابراته القذر في العمليات السرية؟ وأي قوة هذه التي تملكها إدارة الموقع؟

إن الإجابة عند المتابعين والسياسيين أُولِي الفهم تقول: إن الموقع يعمل - بلا شك - لصالح جهة قوية ترغب في ترتيب أوراقٍ وبلورة أحداثٍ على الساحة السياسة العالمية والأمريكية خاصة وَفْقَ منظومة أهداف محددة. وإلا فما هي تلك القوة الجبارة التي استطاعت اختراق البنتاغون بكل احتياطياته في الحفاظ على السرية، واستطاعت تسريب ٤٩٠ ألف وثيقة؟ إنه ليس مكتبة أو منزلاً جرى اقتحام حاسبه بواسطة قرصان هاوٍ، ولنفرض جدلاً أن القرصان الكويكيليكسي نجح في اختراق البنتاغون وسرَّب ٩٠ ألف وثيقة خاصة بأفغانستان ثم هدد البنتاغون الموقع وانتبه للتسريبات، ألم يكن من باب أَوْلى أنَّ البنتاغون ينتبه لمكان الاختراق ويحصنه ويتتبع كيفية الاختراق ليمنعه؟

ولكنَّ هذا لم يحدث؛ فبعد ثلاثة شهور خرج الموقع بتسريب ٤٠٠ ألف وثيقة خاصة بالعراق، ليزداد الموقف وضوحاً وأن البنتاغون مكان مفتوح، وأن التسريب يجري تحت أعين نافذين لهم مصالح يعملون وَفْق خطة ودعم دوليين.

## الوقفة الثانية:

كان أهم ما تناوله تسريب مستندات تتعلق بالحرب على أفغانستان نشر مستندات تفيد قتل مدنيين، ويقول بعضهم بسذاجة: إن ذلك تأكيد مصداقية وفضحٌ لانتهاكات الجيش الأمريكي للمواثيق الدولية. وهو أمرٌ لا جديد فيه؛ فالأخبار تتوالى كل يوم عن تلك الانتهاكات الدموية الصارخة، ولكن تعمُّد نشر الخبر إنما هو لسحب المتابع للمصداقية في فضح الأمريكان إلى تصديق الموقع في ما بعد.

ويؤكد ذلك المحور الثاني في نشر الوثائق التي تتحدث عن دعم الجيش الباكستاني لحركة طالبان، وهنا نقف عند بيت القصيد؛ فالغرض واضح، وهو الجيش الباكستاني الذي قدَّم مساعدات لا حصر لها للجيش الأمريكي في عدوانه على أفغانستان، ولكن قوة المقاومة الأفغانية أفقدت الإدارة الأمريكية صوابها فاتجهت إلى إلقاء تبعة الفشل الأمريكي في أفغانستان على تقديم الجيش الباكستاني مساعدات لطالبان؛ فالشعب الأمريكي لن يقبل بتلك المهانة على يد مقاومة لا تملك إلا قُوتَ يومها وأحياناً لا تجده، وتقاتل بأقل الأسلحة ومع ذلك تحقق انتصارات مذهلة بكل المقاييس العسكرية، وآخر الإحصائيات حتى أكتوبر عام ٢٠١٠م تفيد بمقتل ما يزيد عن ٦٠٠ جندي أمريكي في تأكيد واضح لتفوق المقاومة.

لذلك كان النشر متزامناً مع الخسائر الأمريكية لتوجيه الضغط نحو الجيش الباكستاني. ويبدو في الأفق أنه محاولة للحصول على دعم لمخطط مستقبلي ضد باكستان وجيشها لتفكيكها أو الدخول إليها واحتلالها تحت مظلة دولية، ويؤكد ذلك الأخبارُ التي تتناثر عبر القادة الأمريكان عن اختباء قادة المقاومة الأفغانية في باكستان.

وأيضاً لا يخفى أن الإدارة الأمريكية تريد خطة انسحاب من أفغانستان تحفظ ماء وجه العسكرية الأمريكية الذي تعكر بالتراب الأفغاني؛ فلذلك تحاول بكل الطرق شق وحدة طالبان بفتح باب التفاوض وإرغامها بكل الإغراءات على العمل السياسي وَفْق منظومة محددة أمريكياً.

وخيوط ما يحدث كلها تتجمع نحو هدف واحد هو انسحاب أمريكي مشرِّف من أفغانستان، وربما تصاحبه عملية تمويه ضد باكستان.

## الوقفة الثالثة:

بعد تسريب مستندات أفغانستان ظهرت المستندات المتعلقة بالعراق فقط، وهو ما يدل على أنه يوجد هدف من التسريب، ويدفعنا ذلك بداية إلى التساؤل: هل لا توجد وثائق عن دول أخرى في العالم؟ خاصة أن عدد ٤٠٠ ألف وثيقة كبير جداً؛ فهل لم يكن من بين تلك الوثائق الـ ٤٠٠ ألف وثيقة عشرات فقط عن دول أخرى مثل بريطانيا أو حتى كوبا وكوريا الشمالية؟ ولماذا العراق فقط والآن؟

بالنظر إلى أحداث المرحلة من خلال وقائع المشهد العراقي؛ فإن الناظر فيه يجد مجموعة صور كلها تبرز في وقت واحد:

١ - التراجع العسكري للقوات الأمريكية: ويتمثل في إعلان الرئيس الأمريكي باراك أوباما عن سحب القوات الأمريكية من العراق وانتهاء مهمة «الحرية للعراق».

٢ - أن العراق هدف في دعاية أوباما الانتخابية.

٣ - كلفت حرب العراق الولايات المتحدة مئات المليارات من الدولارات.

٤ - تغيُّر الخطط العسكرية الأمريكية ما بين إعادة جدولة عدد الجنود وخطة انسحابها المنظم، وبعد أن وصل عدد الجنود إلى ١٦٠ ألف ينخفض إلى ٥٠ ألف.

٥ - ما تكبدته القوات العسكرية الأمريكية من خسائر مادية في العتاد، تُعَدُّ أكبر خسائر بشرية في تاريخها العسكري، وهي ما بين رقم معلَن رسمياً يقرب من ٤٥٠٠، ورقم آخر يصل إلى ٤٠ ألف.

٦ - تصريحات كبار قادة الولايات المتحدة على أن حرب العراق لا طائل من ورائها وأنها حرب خاسرة بكل المقاييس ولم يكن لها مبرر.

٧ - الفشل الأمريكي الواضح في:

- ضبط توازن القوى مع إيران التي كان الاتفاق معها على العدوان على العراق يشمل تمكين شيعة العراق من الحكم، ولكن إيران استغلت الوضع وتمكنت من فرض وجودها العسكري والسياسي، بل الاجتماعي والسكاني على خريطة العراق؛ فعملت على تهجير آلاف من الإيرانيين إلى العراق، والتمكين للميليشيات الشيعية بالدعم اللوجستي، وفرض مرجعية قم على مرجعية النجف، فوجد الأمريكيون أنفسهم في خلل في توازن القوى؛ فعلى الرغم من وجودهم العسكري واحتلالهم للعراق وتقديمهم كل المساعدات لحكم

الشيعة للعراق، إلا أن إيران اســتطاعت أن تجعل العراق عمقاً إستراتيجياً لها.

● والفشــل فرض الإرادة السياســية الأمريكية على المشهد السياســي العراقــي: وأبرزها فشــل قائمة إياد عــلاوي الموالية للأمريكيين في تشكيل الحكومة؛ على الرغم من فوزها في انتخابات البرلمان، وفَشَــل الأمريكيين في الضغط على المالكي للاســتقالة، وهو ما جعل تشــكيل الحكومة العراقية يتأخر شهوراً بسبب موالاة المالكــي لإيران وتلقِّيه الأوامر منها، وهو الأمر الذي جعل المشــهد السياســي في العراق يشهد قمة الاستهزاء بالإدارة الأمريكية التي تحتل العراق وتملك أحدث الأســلحة على الأرض العراقية، ولكنها بعد ســبع ســنوات من الاحتلال وما قدَّمته من مساعدات للشيعة تفشل في فرض قراراها وإرادتها السياسية عليهم.

**الوقفة الرابعة:**

نشر موقع ويكيليكس مســتندات مسربة من البنتاغون في أواخــر أكتوبر٢٠١٠م تتعلق بالعراق وقيل: إن عدد المســتندات يصل إلى ٤٠٠ ألف وثيقة مسربة تتعلق معظمها بثلاثة محاور:

**المحور الأول:** ويتضمن:

● انتهــاكات الجيش الأمريكي وقتلــه للمدنيين، وأن العدد المنشور يخالف المستندات التي تشير إلى عدد أكبر.

● وثائق تشير إلى ارتكاب الجيش الأمريكي جرائم قتل بدم بارد للمدنيين العراقيين على نقاط التفتيش.

● التستر على التعذيب المنهج في السجون والمعتقلات في العراق، وقــد اعتبر بعض المراقبين هذا المحور فضيحة للجيش الأمريكي، ولكن المتابع للشأن العراقي يجد أنه لا جديد في نشر وثائق ويكيليكس غير الإشارة إلى التوثيق. والعراقيون يحتفظون بمئات الآلاف من الوقائــع الدامية لانتهاكات الجيش الأمريكي لكل المواثيق والأعراف الإنسانية، ولكن من يسمع لهم؟

**المحور الثاني:** وفيه وثائق تفضح دور رئيس الوزراء المالكي في تكوينه مليشيا خاصة تمارس عملها خارج كل الأطر القانونية ولا تلتزم إلا بأوامر المالكي، وقامت بعمليات وممارســات كثيرة انتهكت فيها كل القوانين وحقوقَ الإنسان.

**المحور الثالث:** وثائق تشــير إلى الــدور الإيراني في دعم ميليشــيات شــيعية في العراق بكل أنواع الدعــم في الحرب الطائفية، وأنها قامت بمجازر وحشية.

مما سبق يتضح أن نشر الوثائق في ما يتعلق بالمالكي وإيران مقصــود في الوقت؛ حيث يبدو أن التحالف غير الشــرعي بين الإدارة الأمريكيــة وبين إيران وشــيعة العراق قد انتهى؛ فبدأت تعلن أنه اتضح لها بعد ســبع ســنوات من احتلال العراق أنها دعمت دولة شــيعية دينية، وأنها دعمــت مخططاً إيرانياً بدون قصد.

والآن يهدد المحور (الشــيعي العراقي والإيراني) اســتقرار المنطقــة؛ وخاصــة دول الخليج التي ترتبــط بمصالح قوية مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتمد عليهم في الدعم البترولي.

ومن جهة أخرى فإن المشهد العسكري الأمريكي في العراق يشهد تراجعاً وانسحاباً مقرراً له كما أعلن أوباما في أوائل عام ٢٠١٢م، فــكان لا بد من إعادة ترتيــب الأوراق في العراق، تلك التــي إن تركها الأمريكيون على حالهــا أصبحت قاعدة إيرانية تُخِل بالتوازن في المنطقة وتهدد مصالحهم، فكانت التســريبات التي تضمَّنــت ما هو معلوم ولا جديد فيه من انتهاكات أمريكية لتأكيد المصداقية علــى الوثيقة. والغرض من ذلك تمرير وثائق تفضح ممارسات رئيس الوزراء العراقي وتهدد بقاءه على كرسي رئاسة الوزراء التي تتحكم في المشهد السياسي العراقي وتعجِّل بخلعــه بصنع ثورة على ممارســاته التي كانــت معلومة ولكنها مكتومة.

إن نشــر انتهاكات الجيش الأمريكي لا جديد فيه، والمجتمع الدولي تابع للولايــات المتحدة؛ حتى إنه من المضحك أن يطالب مسؤول أممي الولايات المتحدة بأن تحقق في تلك الجرائم؛ أي: مطالبة المتهم الجاني أن يكون حكماً على نفسه.

ثــم ظهرت بعض التنديدات من بعــض المنظمات، وكان من المفــروض أن تتحرك الأمم المتحدة بلجنــة تحقيق؛ لأن الوقائع والاتهامات تمثل جرائم حرب؛ ولكن سيناريو التسريبات لا يشمل ذلك، فضــلاً عن أن الجنود الأمريكيين يُحظَر محاكمتهم دولياً؛

حيث رفضت الولايات المتحدة التوقيع على اتفاق تأسيس المحكمة الجنائية الدولية عام ١٩٩٨م وبدء عملها في يوليو ٢٠٠٢م، وهي تسمح بمحاكمة (الأفراد وليس الدول) بتهمة ارتكاب جرائم حرب، ليس فقط التصديق عليها، وطالبت الولايات المتحدة باستثناء جنودها وكبار المسؤولين فيها من المحاكمة أمام هذه المحاكم في حال قررت هيئات أو مجموعات حقوقية المطالبة بمحاكمتهم على جرائم حرب ارتكبوها في الصومال أو العراق أو غيرها ووقّعت اتفقيات ثنائية مع ٥٠ دولة بحصانة جنودها والدول التي لم توقع فرضت عليها حظراً

## الوقفة الخامسة:

أدى نشر الوثائق التي تم تسريبها بشأن العراق إلى فضح الدور الإيراني في العراق ودفع العالم للانتباه لهذا الدور وخطورته، وخاصة الدول العربية الصامتة والساكنة؛ كي تتحرك في الملف العراقي بدور حيوي يقلِّص من الدور الإيراني.

ومن هنا يشار إلى التغير الذي شهده دور القاهرة التي تمثل حالة عالية من العداء مع إيران؛ فقد شهدت ساحتها السياسية:

- فتح خطوط طيران مع طهران كانت مقطوعة منذ ثلاثين عاماً.

- وزيارات لقيادات شيعية (إياد علاوي، وعمار الحكيم، والمالكي) للقاهرة.

- وبروزاً للدور المصري والسعودي والتركي في اختيار رئيس الوزراء العراقي.

- وكان لافتاً للانتباه أن تغلق القاهرة قناة (صفا) التي تهاجم الفكر الشيعي الدخيل، بل تحظر القاهرة مهاجمة الشيعة في القنوات الفضائية؛ وهي التي ظلت تهاجم الشيعة وإيران وما سمي بالثورة الإيرانية منذ عام ١٩٧٩م، وألقت القبض على كثير من التنظيمات الشيعية.

وتحليل ما يحدث مبدئياً يشير إلى وجود خطة أمريكية جديدة في المنطقة تعمل فيها بعض الدول العربية على فتح قنوات مع قادة الشيعة في العراق لخلخلة قبضة إيران. يتزامن هذا مع نشر وثائق ويكيليكس التي تفضح الدور الإيراني، وهو ما يعطي دعماً قوياً لموقف الدول العربية.

إلا أن هناك شكّاً كبيراً في نجاح هذا المخطط الذي يغطي الفشل الأمريكي في العراق؛ لأن الولاء الشيعي عقدي وهو أقوى من السياسي، ثم إنه لا يُعقَل بعد أن قامت الولايات المتحدة بتربية وتقوية الوجود الشيعي في العراق حتى كبر وقوي واستأسد ثم انتبهت لخطورته على مصالحها، لا يعقل أن تأتي الدول العربية بمحاولة وقف وتطويق هذا الوجود وهي التي أبعدتها الإدارة الأمريكية عن أي دور في العراق طيلة سبع سنوات مضت وأخذت من الدول العربية العراق العربي السُّني وسلَّمته لأيران وأتباعها أمام أعينها؛ لذلك من الصعب جداً أن تقوم الدول العربية بدور ولو كأحجار على رقعة شطرنج.

لكن الأكثر إثارة وتوضيحاً يأتي بعد ثلاثة شهور من نشر وثائق العراق؛ حيث قام الموقع بنشر ٢٥٠ ألف وثيقة جديدة مسربة من الخارجية الأمريكية تشمل برقيات دبلوماسية بين حكام عرب والإدارة الأمريكية، وكان ملاحَظاً أن حق النشر اقتصر على الصحف التالية: (النيويورك تايمز، ولوموند الفرنسية، والغارديان البريطانية، والباييس الإسبانية، ودر شبيغل الألمانية)، بينما لم تحصل قناة الجزيرة على حق النشر لهذه الوثائق[1].

وأهم محاور تلك البرقيات يرتكز على ثلاث نقاط:

الأُولَى: أن قادة الإمارات ومصر والأردن والسعودية والبحرين و «العدو الصهيوني إسرائيل» وصفوا طهران بالشر وطالبوا بضربها، وواضح من النشر الترتيب؛ فبعد نشر وثائق تدين ممارسات إيران في العراق تُنشَر وثائق فيها طلب من حكام عرب بضرب إيران ليجد المتابع أنه أمام تسلسل منطقي جرى ترتيبه في عقله بواسطة النشر المتتابع المعدِّ بدقة:

١ - تهيئة المناخ لعملية عسكرية أمريكية ضد إيران

٢ - إثارة النزاعات علانية بين إيران وحكام المنطقة ليزداد الخلاف أكثر مما هو موجود، والفتنة بين بعض الحكام والمقاومة وبين بعض الحكام وشعوبهم... والرابح هو الولايات المتحدة الأمريكية التي تحتفظ بعلاقات وخيوط مع بعض الأطراف، ومصلحتها فوق الجميع.

٣ - السفراء الأمريكيون يقومون بالسخرية من الحكام في برقياتهم: كرزاي يدفعه جنون العظمة... وبوتين الكلب... وميركل ليست مبدعة، ونجاد هتلر... وهكذا بالنسبة لساركوزى وبعض الحكام العرب[2].

٤ - السفارات الأمريكية في العالم تُعَد قاعدة كبيرة وجزءاً مهماً من شبكة التجسس العالمية التي تديرها أمريكا؛ حيث تشير الوثائق إلى أن وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون

(١) الجزيرة وسيلة الإعلام العربية الوحيدة التي حصلت على حق نشر الوثائق السابقة التي تخص الحرب على العراق.

(٢) وهو ما يدل على العنصرية الأمريكية، وتعمُّد النشر هو قمة مهنية الصحافة في الخبر المثير للقارئ ولكنه غير مفيد.

ومِنْ قَبْلها كوندليزا رايز طلبت من دبلوماسييها التجسس على العدو والصديق حتى كبار مسؤولي الأمم المتحدة بما في ذلك أمينها العام (بان كي مون)، وطُلِب منهم جمع معلومات عن المواقع العسكرية والأسلحة والعربات والشخصيات السياسية، وأخذ بصماتهم وصور لقرنيات عيونهم.

إن كل مبتدئ في فهم السياسة يعلم أن السفارات جزء من منظومة مخابرات دولها.

ومما ينبغي التوقف عنده بتأمل: هو رد فعل العدو الصهيوني:

أولاً: أعلنت إسرائيل عن عدم تضررُّها مما نُشِر وأعلن أحد مسؤوليها: أن «إسرائيل» تشعر بالارتياح بعدما كانت تخشى إحراجاً جدياً بفعل مضمون الوثائق الأميركية التي نشرها موقع ويكيليكس. وقال مسؤول حكومي كبير لوكالة فرانس برس رافضاً الكشف عن اسمه تعليقاً على ما نشره الموقع حتى الآن: «خرجنا بصورة جيدة». وهو بذلك يوقفنا بوضوح على حقيقة نشر تلك الوثائق والغرض منها وانتقائيتها. والأهم هو: لماذا لم تُنشَر وثائق تتعلق بدولة الاحتلال الإسرائيلي؟ وهل يُعقَل أن ٧٠ ألف ثم ٤٠٠ ألف ثم ٢٥٠ ألف وثيقة لا تتناول أي شأن مهم لإسرائيل؟ إن هذا يجعلنا نقول بكل عقلانية وبدون عاطفة: إن اليد الصهيونية ليست بعيدة عن ويكيليكس ولا عن غوليو أسانج؛ بل هي قريبة جداً ومصلحتها واضحة خاصةً في ما نُشِر من وثائق تخص الشرق الأوسط، وفي ما يتعلق بإيران، ودقِّ الأسافين بين المقاومة ودول عربية. وقيام حرب عربية إيرانية تخدم الصهاينة بلا شك، وكذلك تثوير الشعوب العربية ضد حكامهم بنشر برقيات تتناول أدواراً مخزية لهم أو ضعيفة أمرٌ يخدم الصهاينة.

وعدم نشر وثائق تتعلق بقتل الصهاينة للمدنيين الفلسطنيين في حرب غزة وما قبلها، وعمليات اغتيال وتصفية قادة المقاومة ،ودورهم في لبنان، ودورهم في الخلاف بين فتح وحماس، وبرنامجهم النووي، ومؤامراتهم مع أمريكا في لعبة وَهْم السلام مع العرب... وغير ذلك في قائمة طويلة لا بد أن تكون موثَّقة لدى الأمريكيين، لم يُنشَر حرف منها، وهو ما يشي بدور حقيقي للصهاينة في ما نشر من تلك الوثائق.

ثانياً: بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية مخزن التسريبات والوثائق خرجت التصريحات كالآتي:

يقول غيتس وزير الدفاع الأمريكي: تسريبات ويكيليكس محرجة ولكن تأثيراتها محدودة.

وتقول كلنتون بكل بساطة وهدوء: إن التسريبات تُعَد خرقاً للقوانين الأمريكية وهي جريمة تجسس سنعمل على تعقُّب القائمين عليها.

إن هذه التصريحات تدل على أن الأمر ليس بالخطورة التي يتعمد الإعلام إظهارها للعالم؛ فلم يجد العالم أسراراً تكشف ملابسات حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، أو أسرار تنظيم القاعدة التي تمتلكها المخابرات الأمريكية، أو أسراراً عن الدوافع الحقيقية للحرب على أفغانستان والعراق والتمويل وحقيقة الحرب الصليبية التي أعلنها بوش، أو أسراراً عن خفايا العلاقات الأمريكية الإسرائيلية والدور الأمريكي في الدعم غير المتناهي للاحتلال الصهيوني، أو أسراراً عن السلاح النووي الإسرائيلي، أو أسراراً عن المؤامرات الأمريكية على الند الصيني، أو أسراراً عن السياسة النقدية الأمريكية وتحايلها التاريخي على العالم أجمع من خلال طبع ترليونات من الدولارات غير المغطاة بقيم حقيقية وإنما مغطاة بكفالة النفط المسعَّر والمباع... وغير ذلك كثير مما يعد سرّاً مهمّاً خاصة بالنسبة للعرب والمسلمين ويترتب عليه مصلحة هامة.

ثالثاً: ما هو المثير في الوثائق الذي ترتب عليه مفسدة للأمن القومي والعسكري الأمريكي من النشر؟ لا شيء. هذه هي الحقيقة؛ فكل ما ينشر كأنها إعادة هيكلة لِمَا يعرفه ويفهمه المتخصصون في السياسة في شكل وثائق.

رابعاً: ينبغي الوقوف مع ما تفعله بعض الصحف الكبرى في العالم التي اشترت حق النشر من ويكيليكس، وإعادة نشر بعض من وثائق ويكيليكس بشكل انتقائي، وهو ما يشير إلى أن لأمريكا وإسرائيل دوراً ملحوظاً في محاولة إبراز جوانب معيَّنة على حساب أخرى من الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس.

## الوقفة السادسة:

نشـــر بعض المتعاطفين مع أمريكا أخباراً بعد نشر الـ ٢٥٠ ألف وثيقـــة مفادها: أن نطاق الوصول إلى المعلومة في الولايات المتحدة متاح بشـــكل لا يصدق في ظل انعدام حرية الوصول إلى المعلومات في الشـــرق بســـبب الأنظمة البوليسية؛ غير أن الأمر مختلف في الولايات المتحدة. ودللوا على ذلك بوجود ما ســـمي بالثغرة القاتلة (نظام سبرينت نيتوورك) أو ما يعرَف بـ Secret Internet Protocol Router Network، ووَفْـــق ما أوردته مجلة دير شـــبيغل الألمانية فإن الوثائق الدبلوماسية التي كشف عنها موقـــع ويكيليكس، جرى الحصول عليهـــا من خلال نظام «ســـبرينت» الذي يستطيع حوالي ٢.٥ مليون موظف في القطاع العام في الولايات المتحدة الولوج إليه.

وقالـــت الصحيفة: إنه جرى الحصـــول على المعلومات عبر نظام «ســـبرينت نيتوورك» الذي اســـتُخدِم أيضاً للحصول على التســـريبات بشـــأن حربَي (العراق وأفغانســـتان). وقد صُنِّفت الوثائق إلى «خاصة» و «سرية» و «عالية السرية».

ويتمتـــع حوالـــي ٢.٥ مليون موظف في القطـــاع العام في الولايـــات المتحدة بحق الولوج على نظام «ســـبرينت»، غالبيتهم يعملون لصالـــح وزارة الدفاع، ويتوفر هـــذا النظام على أجهزة كمبيوتـــر خاصة في المراكز التي تعمـــل فيها القوات الأميركية، وتغيَّر كلمات المـــرور وإجراءات الولوج مرة كلَّ ١٥٠ يوماً تقريباً. وحتـــى الوثائق المصنفة «عالية الســـرية» قابلـــة للولوج من قِبَل حوالي ٨٥٠ ألف أميركي. وأشـــارت الصحيفة إلى أن تســـريب المعلومات كان لا بد أن يحصل عاجلاً أم آجلاً.

وللرد على هذا الدفاع عن التسريبات أقول بكل وضوح:

١ – إن هذا الخبر لم ينشـــر إلا بعد نشـــر الـــ ٢٥٠ ألف وثيقة الخاصة بالتسريب من الخارجية الأمريكية فقط ولم ينشر قبلها، لماذا ذلك؟

ولم تنشره إلا دير شبيغل فقط؟ ولم تصدقه أو تكذبه الإدارة الأمريكية.

٢ – الخبر فيه تضارب في وسائل الإعلام حول هذا النظام وهل هو خاص بوزارة الخارجية أم بوزارة الدفاع؟

٣ – ثـــم لماذا لم يتم تغيير شـــيفرة الدخول وتحصين نظام العمل منذ أن قام الموقع بنشر أول الوثائق المسربة؟

٤ – عدم معقولية إلقاء التهمة بالتسريب على جندي أمريكي غاضب اســـمه (برادلي ماتينج) وهو متهم بالشـــذوذ فضلاً عن اتهامه بالتسريب، وهي واقعة تجعلنا نتذكر ما تفعله بعض الدول البوليســـية عندما تقع فيها أحداث كبيـــرة فتلقي بالتهمة على شخص ما ثم تقول: إنه الجنون. وإذا كان هذا الجندي هو المتهم حقيقة بتسريب وثائق أفغانستان الـ ٩٠ ألف، فمن قام بتسريب الـ ٤٠٠ ألف وثيقة والـ ٢٥٠ ألف وثيقة بعد ذلك؟

## الوقفة السابعة:

حتى يتضح للقارىء فهم ورؤية ما يحدث ببصيرة نتوقف مع دراسة مميزة بعنوان: (الإعلام والحرب والدعاية: إستراتيجيات إدارة المعلومـــات خلال حـــرب العراق). أعدَّهـــا الدكتور (ديبا كومار) أستاذ الصحافة والإعلام الأمريكي. حلل هذا الإعلامي الأكاديمي بالتفصيل الدور الذي لعبته أجهزة الإعلام الأمريكية الكبرى في خدمة المشـــروع الاستعماري لإدارة بوش، وفي خداع وتضليـــل الرأي العام الأمريكي. وعـــرض تفصيلاً كيف تعمدت الصحـــف ومحطات التليفزيون الكبرى حجـــب الآراء المعارضة للحرب، وكيف أنها حرمت الرأي العام من معرفة الحقائق.

وهو يشـــرح تفصيـــلاً كيف تبنَّـــت أجهزة الإعـــلام – مع اســـتثناءات قليلة جداً – وجهة نظر إدارة بوش كاملة، وكيف أن الإســـتراتيجية الأساسية التي اتبعتها هي (إستراتيجية الحذف والتجاهل)؛ أي: حذف وتجاهـــل أي أخبار أو قصص إخبارية، أو آراء ومواقف تتعارض أو لا تتماشـــى مع ما تريد إدارة بوش الترويج له.

لماذا فعـــل الإعلام الأمريكي هذا؟ لماذا كان شـــريكاً كاملاً لإدارة بوش في كل أكاذيبها وكل جرائمها؟

كل خبـــراء الإعلام في أمريكا لديهم تفســـير رئيس واحد، هو أن أجهزة الإعلام الأمريكية الكبرى؛ هي في النهاية مملوكة لعدد محدود من الملاك والنخب الاقتصادية والسياســـية، وهي تعبِّر عنهم وعن مصالحهم، لا عن مصالح الرأي العام الأمريكي.

فالإعـــلام الأمريكي إذن هو عبارة عن علاقة بين رأس المال ومحترفين يعملون في الشـــركات الكبـــرى الخاصة التي يملكها أفراد لهـــم توجهاتهم الأيديولوجية، ويجـــري عبر هذه العلاقة صياغة الأجندة الإعلامية في الغـــرب والعالم، وهو يعمل على إنتـــاج آليات رأي عام مـــوالٍ للتوجهات الأمريكيـــة، وفي ذلك يقول خبيـــر الإعلام الأمريكي (مايكل بارينتي): «إن التيار العام للإعلام الأمريكي الذي تتحكم فيه شركات الإعلام الكبرى نادراً ما ينحـــرف إلى المناطق والموضوعات التي تســـبب عدم ارتياح لمن يملكون السلطة السياســـية والاقتصادية، ويتضمن ذلك من يملكون وسائل الإعلام، ومن يعلنون فيها أيضاً».

ومن خلال ذلك نتأكد بوضوح أن حرية الإعلام الأمريكي، - على الأقل في قضايا حاسمة كهذه - هي في نهاية المطاف أكذوبة أخرى من أكاذيب الديمقراطية والحرية في أمريكا.

ومن هنا أقول: هل يعقل أن ذلك الإعلام يتحول بسرعة من التضليل إلى المصداقية في الخبر؟

يؤكد ذلك ما نشر في ٢٠ أبريل ٢٠٠٨م؛ حيث أماطت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية اللثام عن حقيقة أن محللين عسكريين أمريكيين كثيرين ممن تستخدمهم شبكات تليفزيونية كمعلقين بشأن العراق قامت بإعدادهم وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون. وأكدت الصحيفة أن المراقبين رأوا في ذلك دليلاً قاطعاً على عدم حيادية غالبية التحليلات التي صدرت للشعب الأمريكي بخصوص الأوضاع في العراق؛ لأنها جاءت بهدف تأييد سياسات إدارة الرئيس جورج بوش.

وفي تقرير كشف العلاقات بين إدارة بوش ومسؤولين كبار سابقين عملوا محللين تليفزيونيين بأجور، أوضحت (نيويورك تايمز) أن هؤلاء المحللين تمتعوا بما يشبه التدريبات من قِبَل البنتاغون، وكان من ضمن ذلك إمدادهم بإفادات خاصة، والسماح لهم بالقيام برحلات معيَّنة والاطلاع على معلومات سرية، وكل ذلك في سياق التأثير على أسلوب تحليلهم السياسي.

وقالت الصحيفة: «التسجيلات والمقابلات التي تمَّت تكشف كيف أن إدارة بوش استغلت سيطرتها على إمكانية الحصول على المعلومات في محاولة لتحويل المحللين إلى نوع من حصان طروادة الإعلامي؛ أي بمثابة الأداة التي تهدف إلى تشكيل تغطية الإرهاب من داخل شبكات التليفزيون والإذاعة الكبيرة».

## الوقفة الثامنة:

في ظل حالة العداء ضد المسلمين ينبغي أن يعرف ويعيَ المسلمون أن العدو يستخدم كل ما يستطيع لإيقاع الهزيمة والخسران والفشل بالمسلمين، ومن هنا ينبغي أن يعيَ المسلمون أن المقاومة للعدوان ليست في مجال الحرب والقتال فقط ولا مجال الأفكار وتذويب الهوية فقط؛ إنما ينبغي المقاومة في الحرب الإعلامية التي تلقي السم في العسل لينشغل المسلمون بظاهر الخبر في ظل الفضائيات والإنترنت، ويتم تمرير مخططات أخرى تباعاً عبر أخبار مدسوسة مثيرة تثير السامعين ولكنها تعمي أبصارَهم المشدودة نحو الشاشات عن مخططات خطيرة لذلك نذكِّر المسلمين بقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [ **الحجرات** : ٦] ومعنى التثبت: تفريغ الوسع والجهد لمعرفة حقيقة الحال ليعرف أيثبت هذا الأمر أم لا؟

والتبيُّن: التأكد من حقيقة الخبر وظروفه وملابساته. يقول الحسن البصري: «المؤمن وقَّاف حتى يتبيَّن».

وفي حديث رسول الله ﷺ عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع»(١)، وحديث النبي ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»(٢).

ويبقى أن التسريبات أفادت الولايات المتحدة الأمريكية في عمل حالة إعلامية هائلة تنشر ما تريد نشره وتحريكه سياسياً عبر موقع إلكتروني تم التمهيد لمصداقيته بتكتيك عالٍ

وأخيراً الكل يتمنى من موقع ويكيليكس أن يكون صادقاً وليس موجَّهاً، ولكن الحقيقة والعقل والمنطق والفهم وخبرة الأحداث وما طرحتُه وما سوف تخبرنا به الأحداث والأيام تؤكد أن تسريبات ويكيليكس مؤامرة مخابراتية وليس فضيحة أمريكية.

والسؤال من يلعب وراء الستار هل هم:

١ - المحافظون الجدد أم الجمهوريون الذين يريدون الصعود مرة أخرى للبيت الأبيض عبر زلزلة الإدارة الأمريكية وساكن البيت الأبيض.

٢ - أَمْ المخابرات المركزية الأمريكية وهي صاحبة مصلحة في إعادة ترتيب أوضاع اهتزت وترتيب أوراق اختلطت؛ سواء في العراق أو أفغانستان أو باكستان وهم المعنيون بدقة بمخطط التسريبات.

٣ - أَمْ أصحاب المصالح الاقتصادية، وهم اللوبي القوي الذين يعملون للخروج من المستنقع الأفغاني والعراقي وخَلْق الفوضى الخلاَّقة في الشرق الأوسط بصنع مقدمات إعلامية.

٤ - هل هو اللوبي الصهيوني الذي يستثمر كل شيء من أجل مصالحه الصهيونية؛ خاصة أن كل ما نُشِر يصب في مصلحته ولم ينشَر ما يضره مطلقاً أو يفضحه

ولا يستبعد اجتماع الأربعة على وضع سيناريو له غرض من ترسيخ مصداقية إعلامية لموقع إلكتروني ومن ثَمَّ تصديق أخباره في العالم الإسلامي ليسهل بعد ذلك تمرير مايشاؤون من أخبار مدبَّرة في فيلم سينمائي تلعب فيه الإدارة الأمريكية الممثل الرئيس في مشهد تراجيدي تمثل فيه على العالم دور المغفل.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) السلسلة الصحيحة: ١٧٩٥.

WikiLeaks

# المرشد الإيراني علي خامنئي

# في مربَّع تنظيم الحجتية

صباح الموسوي(*)

يعتقد كثير من الباحثين والمراقبين ممن تابعوا الزيارة التي قام بها مرشد الثورة الإيرانية آية الله علي خامنئي لمدينة قم مركز الحوزة الدينية في إيران في تشرين الأول الماضي، والتي عدَّتها السلطات الإيرانية حدثاً تاريخياً، يعتقدون أن الزيارة مُعَدٌّ لها من قِبَل فرقة الحجتية لإظهار حجم هذه الفِرْقة ومدى نفوذها في الوسط الحوزوي والساحة الدينية الإيرانية عامة من جهة، وكذلك إظهار مدى العلاقة الوثيقة التي باتت تربط مرشد الثورة بهذه الفِرْقة وتبعيَّته لها من جهة أخرى.

وحول الصمت الذي لفَّ مسؤولي النظام في إيران إزاء ما قامت به (فرقة الحجتية) طوال السنوات التي أعقبت الثورة وخاصة فترة ما بعد الخميني، وما ابتدعته هذا الفرقة من خرافات مذهبية، وما قامت به من مؤامرات سياسية وعمليات إجرامية على أرض الواقع، يشرح عدد من الباحثين وجهات نظرهم قائلين: إن (فرقة الحجتية) اضطرت في بدايات الثورة وتحت ضغط الخميني إلى الإعلان عن حلِّ نفسها صورياً وعزل بعض عناصرها الذين كانوا أعضاء في الحكومة المؤقتة ولكن تبيَّن فيما بعد أن الحجتية لم تحل نفسها وتعزل عناصرها الذين كانوا أعضاء في الحكومة الموقتة (حكومة بازركان) من أمثال وزير التربية والتعليم (علي أكبر برورش) والوزراء الآخرين: (سيد حسن سجادي، وسيد حسن افتخار زاده سبزواري، بل عملت على إعادة تنظيم نفسها والتحول إلى صندوق مغلق وأنشأت لنفسها منظمات بأسماء مختلفة موازية للمنظمات الحكومية من بينها (مؤسسة الغدير) و (مؤسسة نشر أفكار آية الله الخميني) وجميعها في الواقع أفكار فِرقَة الحجتية لكنها اختارت هذه التسمية إبعاداً للأنظار عنها؛ فالمؤسسة الأُولَى يترأسها آية الله أبو القاسم خزعلي، والثانية يرأسها آية الله مصباح يزدي، كما أن رئيس مجلس صيانة الدستور آية الله أحمد جنَّتي هو أيضاً من عناصر الحجتية وقد حوَّل المجلسَ المذكور إلى مؤسسة تابعة لهذه الفرقة.

لقد تأسست فرقة الحجتية على يد الشيخ محمود ذاكر زاده تولايي المعروف باسم ( الشيخ محمود الحلبي) الذي توفي عام١٩٩٧م عن ٨٠ عاماً، وكان إمام مسجد عزيز الله جنوب مدينة

(*) كاتب وباحث من الأحواز.

طهـــران وكان بمثابة القطب لدى مريديه قبل أن ينتقل إلى مدينة مشـــهد ويختفي عن الأنظار هناك لفتـــرة ثم يعاود الظهور فجأة فـــي طهران بعد انقلاب عام ١٩٥٢م ضـــد حكومة مصدق معلناً عن تأســـيس (الجمعية الخيرية الحجتيـــة المهدوية). ويؤكد كثير من المتابعين لفرقة الحجتية أن تأسيسها جاء بموافقة مباشرة من الشاه محمد رضا بهلوي؛ لذا ركَّزت الحجتية (التي يتمحور فكرها حول شـــخصية الإمام الثاني عشر لدى الشيعة (المهدي المنتظر) ونَفْي أيِّ ظهور له في الماضي، والدعوة إلى انتظاره في المستقبل، وربط قيامه بانتشار الفوضى والفساد في الأرض)، لقد ركزت جلَّ اهتمامها آنذاك على جذب فئات معيَّنة من المجتمع دون الاهتمام بالعمل السياسي ضد نظام الشاه.

ويـــرى هـــؤلاء الباحثـــون أن تصريحـــات وخطـابات بعض المسؤولين الإيرانيين الكبار من بينهم الرئيس أحمدي نجاد ومدير مكتبه أســـفنديار رحيم مشائي ورئيس مجلس صيانة الدستور آية الله أحمـــد جنَّتي وبعض القيادة الدينية فـــي حوزة قم من أمثال آية اللـــه محمد تقي مصباح يزدي وآية اللـــه خزعلي... وغيرهم حـــول موضوع المهدي المنتظر؛ إنما هي في الواقع تكرار لخطابات مؤســـس الحجتية الشـــيخ محمود تولايي وبعض مساعديه؛ حيث قامت هذه الفرقة خلال الســـنوات الأخيرة بإعادة نشـــر خطب قادتها الأوائل في موقع تابع لها على شـــبكة الإنترنت ومن يستمع إلى تلك الخطب يجدها تتكرر اليوم على ألســـنة كبار المســـؤولين الحاليين في النظام الإيراني.

ويعتقد الباحثون أن الاغتيالات التي شـــهدتها إيران طوال العقـــود الثلاثـــة الماضية – والتـــي جرى أغلبهـــا على طريقة عمليـــات المافيا – أن للجماعات المرتبطـــة بفرقة الحجتية دور كبير فيها؛ فقد عملت فرقة الحجتية على تشكيل مجاميع سرية مسلحة بأسماء وتوجهات سياسية مختلفة كان من بينها جماعة (الفرقـــان) بقيادة أكبر غودرزي الـــذي كان تلميذاً عند آية الله ميلاني؛ حيث شـــنت تلك الجماعة سلسلة اغتيالات استهدفت مســـؤولين مدنيين وعســـكريين ورجال دين كبار من قادة الثورة والنظام. و جرى تصفية الأب الروحي للجماعة (الشيخ ميلاني) داخل الســـجن من قَبَل الحجتية قبل أن تتمكن الســـلطات من إجراء التحقيق معه؛ خشـــية إفشائه سرَّ ارتباط جماعة الفرقان بالحجتية

كما يعتقد الباحثون أن الحجتية تمكَّنت من اختراق منظمة (مجاهدي خلق) المعارِضة التي شنت هي الأخرى حملةَ اغتيالات في الثمانينيات شـــملت قادةً ومســـؤولين كبار في النظام، وهو ما أســـهم في إزاحة كثير من الوجـــوه المخالفة لفرقة الحجتية وفسحت الميدان أمام رجال دين وعناصر تابعة لهذه الفرقة لتبوُّؤ مناصب عُليا في السلطة.

لقـــد قامت فرقـــة الحجتية خلال الثلاثـــين عاماً الماضية بإرســـال كثيرٍ من عناصرها في بعثات دراسية خارج البلاد لنيل الشـــهادات العليا والعودة بهم إلى إيران لشـــغل مناصب وزارية ومناصـــب أخرى هامة في الدولـــة، ويُعَدُّ كلٌّ مـــن وكيل وزارة الإرشاد الحالي وأمين عام مؤتمر نَفْي مذبحة الهلكوست (محمد علـــي رامين)، ووزير العلوم (كامران دانشـــجو) ومئات العناصر الأخرى من ضمن تلك المجموعات الطلابية التي شملتها البعثات الدراسية.

وعن علاقة المســـؤولين الإيرانيين الكبـــار من ذوي الأصول اليهودية بالمؤسســـات والمحافل السرية المرتبطة بفرقة الحجتية يقول المراقبون: إن ذلك ما ستكشفه الحوادث والهزات التاريخية التي سوف يشهدها نظام الجمهورية الإيرانية مستقبلاً.

ومن المسائل الهامة التي تؤكد عليها فرقة الحجتية هي إلزام أعضائها بتقديم فروض الطاعة والاحترام الكبير للمؤسســـين الأوائل وللعناصر القديمة للفرقة والإذعان الكامل لأوامرهم دون أي مناقشـــة، ويُعَدُّ هذا الأمر من الواجبات المسلَّم بها، وللخروج عليها أو تجاوزها ثمن باهظ لمن يحدِّث نفســـه بذلك. أما بشأن إدارة العلاقـــات التنظيمية الداخلية لفرقـــة الحجتية، فهي لا تجـــري على الطريقة الحزبية العصرية المعمول بها في الأحزاب الإيرانية؛ فحين يتبوأ العضو منصباً قيادياً في السلك العسكري أو الأمنـــي أو القضائـــي أو أي منصب كبير آخر في الســـلطة، فعليه الالتزام بقرارات (الفرقة) قبل كل شيء. ويعتقد الباحثون أن هذا الالتزام هو الذي وفر الانسجام داخل (الحجتية) ومكَّنها مـــن الهيمنة على بعض المراكز الحكوميـــة والقضائية والأجهزة الأمنية والعسكرية، وقبل كل ذلك هيمنتها على مرشد الثورة آية الله علي خامنئي.

و تشير بعض الوثائق المتعلقة بلقاءات الخميني أوائل الثورة بالشـــخصيات والجمعيات الدينية والسياسية الإيرانية إلى أن لقاءً هاماً جرى في الأســـبوع الأول من انتصار الثورة في إيران بين آية الله الخميني و آية الله خزعلي الرئيس الحالي لمؤسســـة الغدير؛ حيث ســـلمه الأخير رســـالة من زعيـــم فرقة الحجتية الشـــيخ محمود الحلبي جاء فيهـــا أن لدى الحجتية ثلاثين ألف عنصر وأنه على استعداد لأن يضعهم في خدمة نظام الجمهورية الإســـلامية الإيرانية، إلا أن الخميني رفض العرض على الفور

وقال: إن الثورة ليســت بحاجة إلى هذه العناصر. وعندما دبَّت الخلافات بين مجلس صيانة الدســتور الذي تهيمن عليه فرقة الحجتيــة من خلال آية الله أحمد جنتي و آية الله أبو القاســم خزعلي وبين الحكومة التي كان يرأسها آنذاك السيد مير حسين موسوي حول تفســير القوانيين الحكومية، وجَّه الخميني رسالة قصيرة إلى مجلس صيانة الدستور ضمَّنها جملة هامة جداً قال فيها: (احــذروا هؤلاء الحجتية؛ فإنهم إن تمكنوا من التســلط فإنهم سوف يهدمون كل شيء).

لقد اســتطاعت الحجتية ومن خلال أسلوب عملها السري المماثل لأســلوب عمل منظمات المافيا أن تنظم صفوفها وتقوِّي نفوذها بصمت بعيداً عن الأضواء، واســتطاعت أن تنظم وتربي رجال دين خاصين بها، وتضعهم تحت تصرُّف مرشد الثورة علي خامنئي ليقوم بتعيينهم في مناصب عليا في كثير من المؤسسات الهامة؛ من بينها الحرس الثوري ومليشيا قوات التعبئة الشعبية (الباســيج)، وتعيين كثير منهم أئمة جمعة وممثلين للمرشد في الأقاليم والمدن الإيرانية، كما استطاعت الحجتية أن تضم الأبناء الثلاثة (لخامنئي) تحت عباءتها وتجعلهم تابعين لها، وعملت أيضاً على كســب أعضاء داخل جميع المؤسسات والهيئات الحكومية وتربيتهــم وتنظيمهم، وتمكَّنت كذلك من ضم عدد كبير من قادة الحــرس الثوري ووضعهم تحت جناحهــا، ومَن رفض الانضمام منهــم إليها أو رفــض الانصياع إلى أوامرهــا قامت بتصفيته، وفعلت مثل ذلك مع ســائر قادة الأجهزة الأمنية والجيش وقادة مليشــيا (الباســيج)؛ لذا فإن قادة هذه الوحدات يتطابقون في تعبيراتهــم، وديباجة تصريحاتهم، ومنطقهــم، وتفكيرهم، حتى يخيل للسامع أنه يستمع إلى شريط مسجل مكرور.

إن أغلب الأقطاب الحقيقيين لفرقة الحجتية غير معروفين للعيــان، والمعروفون منهم قليلون جداً؛ من أمثال آية الله مصباح يزدي (الأب الروحي للرئيس الإيراني أحمدي نجاد) الذي يتطلع إلى تبوُّؤ مركز هام جداً في النظام، وآية الله أبو القاسم خزعلي وآخرون. وبما يتعلق بأســلوب العمل (المافيوي) لهذا الصندوق المغلق (الحجتية)؛ فإنه أشــد تنظيماً وســرية من عمل منظمة الماسونية؛ بحسب رأي هؤلاء المراقبين.

وعن ارتباط فرقــة الحجتية بالدول الأجنبية والأيادي التي تقــف وراء تكوينها جاء في بيان نشــرته جهات إيرانية مجهولة مؤخراً بعنوان: (لا تتركوا فرقة الحجتية تغيب عن أنظاركم) جاء فيه: إن فرقة الحجتية أنشــئت من قِبَل جهات بريطانية معيَّنة لإيجاد نفوذ لها في وســط الطائفة الشيعية والمجتمع الإيراني وأن الدكتور علي شــريعتي (١٩٣٣ - ١٩٧٧م) كان الســبَّاق إلى كشــف حقيقة هذه الفرقة، وكان ذلك سبباً في معاداة جماعات من رجال الدين لــه. واتهم البيان الحجتية بالوقوف وراء الوفاة الغامضة لشــريعتي قائلاً: إنه دُسَّ له نوع من الحبوب الســامة وهو قيد الســجن ثم أطق سراحه ليموت خارج السجن، وتوفي شــريعتي في باريس عــام ١٩٧٧م بعد مغادرته الســجن بفترة قصيرة، وتســتخدم هذه الحبوب اليوم من قِبَل النظام الإيراني ضد معارضيه داخل الســجون؛ حيث تؤدي إلى إصابة الضحية بأمراض مجهولة تؤدي إلى وفاته بعد فترة وجيزة جداً.

وأكد البيان على أن جماعة الفرقان التي اغتالت عدداً من قــادة ومفكري الثورة من أمثال (آية الله مطهري وآية الله مفتح والجنــرال قرني) كانت مرتبطة بفرقــة الحجتية وأن الخميني حاول بعد انتصار الثورة تدمير هذه الفرقة (لتعارض مشروعها البريطاني مع مشــروعه الأمريكي)، وكثيــراً ما حذر الخميني قائلاً: (لا تتركــوا الثورة تقع بيد هذه الفرقة) لكنه لم يوفَّق في تحقيق مراده.

ومــن أجل حماية عناصرها والحفــاظ على وجودها؛ فقد احتجبت فرقة الحجتية عن الواجهــة مدة من الزمن قلَّت فيها ظاهرة قراءة دعاء (الندبة) الــذي هو من أدبياتها، لكن الفرقة عادت إلى الواجهة من جديد منذ عشرة أعوام عادت من جديد وأخذت ظاهرة قراءة دعاء (الندبة) بالانتشار وأصبح هذا الدعاء يسوَّق في كل مكان؛ وفي ذلك دليل على عودة نفوذ الحجتية حتى داخل دوائر السلطة.

وحول الشــعارات الإيرانية المعادية للغرب وإسرائيل، أشار البيان بقوله: (يجب أن لا تحملوا حرب الشــعارات المعادية التي تشــنها فرقة الحجتية ضد بريطانيا وأمريكا وإســرائيل على محمل الجد؛ فهي مجرد شعارات لتشــتيت أفكار الرأي العام؛ فهل ســألتم أنفسكم كيف يمكن تفســير زيارة وزير الخارجية البريطاني (جاك سترو) إلى طهران بعد حادثة ١١سبتمبر٢٠٠١م مباشرة؟ و إجراءه اللقاءات السرية بأعضاء الحجتية.

وتجدر الإشــارة هنا إلى أن الدكتور مهدي خزعل نجل أحد كبار قادة فرقة الحجتية (آية الله أبو القاســم خزعلي) هو مَن كشف قبل عامين الأصول اليهودية للرئيس الإيراني أحمد نجاد لكن السلطات الإيرانية اعتقلت الدكتور خزعلي وأودعته السجن. ويفسر المراقبون هذا الأمر بأنه نوع من الألاعيب السياسية التي تقوم بها فرقة الحجتية بهدف إرغام كثير من المسؤولين من ذوي الأصول اليهودية على الانتماء لها أو التعاون معها.

# أوراد

## أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء


للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

# التمييز العنصري

## في مناهج التعليم الصهيونية

عبدالكريم القلالي
Karim_kallali@targuistcity.net

**يلمس المتتبع لمقررات ومناهج الكتب التعليمية الصهيونية في مختلف المراحل الدراسية (الابتدائية، والإعدادية، والثانوية) بسهولةٍ جوهرَ القيم التربوية والتوجيه الهادف الذي تحاول زرعه تلك المناهج وتجذيره ضمن أُطُر التربية اليهودية والصهيونية التي رسمتها ووضعتها فِرَقٌ متخصصة من الخبراء والتربويين اليهود العاملين في أجهزة التربية والتعليم الإسرائيلية، وهم من المختارين بدقة وعناية.**

لقد دأب الصهاينة على تنشئة أجيالهم على الحقد والكراهية ضد الآخر، وهي مشاعر نابعة - أصلاً - من النظرية الاستعلائية البغيضة: «شعب الله المختار»، واعتبار سائر الأمم الأخرى (أغياراً) لا سيما العرب منهم، وخصوصاً الشعب الفلسطيني.

وينشأ تلاميذهم على هذا الاستعلاء في مختلف المراحل التعليمية، ويرسَّخ في أذهانهم جميعاً عدمُ التعامل مع الآخر على قدم المساواة؛ بل يرون الجميع مذلَّلاً في خدمة من اختيروا - حسب زعمهم - لسيادة العالم وقيادته وهم اليهود الذين يسمون أنفسهم «شعب الله المختار».

ويشهد لهذا الحقد والاستعلاء الكتب والمقررات الدراسية التي توزَّع على أبناء الطوائف اليهودية في إسرائيل: كالتوراة المحرَّفة، والتلمود، وشروح الحاخامات عليها، وغيرها من المصادر التي تشكِّل الركيزة الأساسية للتربية الصهيونية بما تتضمنه من أصولٍ للمعتقَد اليهودي، والأحكام والنصوص التاريخية والأخلاقية، وقوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية؛ فهذه كلها تمثِّل المصدر الأول من مصادر التربية الصهيونية والمرتكز الأساسي للعملية التربوية؛ إضافة إلى المراجع الحديثة والأساسية عندهم في العملية التعليمية، وتغذَّى بمؤلفات حديثة وكتب مدرسية مقررة تشرف عليها وزارة المعارف والثقافة الصهيونية، والطوائف اليهودية الدينية بمختلف أطيافها، وغيرها من الحركات الصهيونية الأشد تطرُّفاً؛ تلك التي تقوم على ترسيخ العنصرية والحقد والكراهية[1].

ويتفق الدارسون المهتمون بمتابعة

(١) ينظر: تعليم العرب في إسرائيل، صالح عبد الله، بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني ١٩٧٣م، ص: ٢٥.

كتبهم ومقرراتهم على أن السمة المشتركة بينها هي: إثارة العواطف، وتشجيع الأنانية المطلقة القائمة على احتقار الغير وإقصائه.

ويبدأ غرس مثل هاته المعتقدات ابتداءً من مراحل التعليم الأُولَى (رياض الأطفال)، وحتى آخر المراحل الدراسية؛ حيث يتخرج الطالب مشحوناً بالتطرف والعصبية والتمييز العنصري، والاستهانة بالآخر وإهدار كرامته.

وكي لا يبقى غذاء العنصرية مقتصراً على من يكمل مسيرته التعليمية؛ فإنهم يبثون الأفكار نفسها في مختلف الكتب والقصص والحكايات؛ لا سيما المهتمة منها بالتاريخ؛ لشحن مختلف الأطياف والطبقات اليهودية بأقصى درجات العدوانية تجاه كلِّ من هو إسلامي.

ومن أبرز التعابير الواردة في مختلف الكتب المدرسية كما ذكر بعض الدارسين والباحثين: «العرب هم قتلة اليهود»، «الطفل اليهودي ينتصر على الخنازير الجبانة».

وإذا كانت ناشئتهم تُغذَّى بهذا التمييز في طفولتها؛ فإنهم لَمَّا يكبرون وينخرطون في الجيش، فسرعان ما يتحولون إلى قتلة سفاحين.

ويعتبرون العرب: «أعداء قساة» يريدون قتلهم، ووجهة نظرهم في العرب: «وددت لو أفعل شيئاً، أن أقبض على هذا العربي وببساطة أن أخنقه»[1].

وغير هاته العبارات كثير من عبارات السخرية والاستهزاء، «واستعراض سريع لمضامين كتب مباحث العلوم الإنسانية، ومن بينها كتب المطالعة المقررة رسمياً للطلبة من الصف الأول حتى الصف الثامن (قراءات إسرائيل)، (وقراءات إسرائيل الحديثة) يبينِّ لنا كم هي محشوة بعبارات التحقير، والأوصاف غير الإنسانية المتوحشة؛ فالكتب والمراجع التي تُقرُّها وزارة المعارف والثقافة الصهيونية لتكون مراجع بين أيدي المعلمين والمربين، هي أشد عنصرية وأكثر فظاعة مما يستخدمه الطلبة أنفسُهم».

واليهودي يربَّى على شعور الاستعلاء، ومفهوم دونية الغير متجذرٌ لديه، معتقداً أنه لا يوجد في فلسطين سوى اليهود؛ على اعتبار أن غير اليهودي لا حقوق له مطلقاً، وهذا الشعور آخذ في الازدياد والتجذر سنة بعد سنة.

أما التوجه التربوي في تبرير اغتصاب الأرض وإضفاء الشرعية على الاستيطان بحجة الحفاظ على الأمن؛ فيبدأ غرسه في سنين مبكرة بدءاً من السنة الدراسية الرابعة[2].

وهاته المناهج والعقائد الراسخة في ذهن المواطن الصهيوني يستحيل معها تحقيق ما يروَّج له اليوم من دعاوى السلام؛ ما لم يجرِ نسف هذه المناهج من جذورها، وهو الأمر الذي لا يقبل المناقشة عند ساستهم المشبَعين بهاته الأيديولوجيات، المتمسكين بتعاليم التلمود ونصوص التوراة المحرفة التي يحملونها. وأنى لشيء من ذلك أن يكون وجنودُهم تطبع على قمصانها عبارة: «وُلِدنا لنقتُل»، وعامتهم يرون أنه: «لا يظهر المسيح إلا إذا تم قتل العرب». وهاته مقولة صدَّقها وما زال يصدِّقها الملايين من المتصهينين المغرَّر بهم حتى دينياً.

وإضافة إلى هذا النهج العنصري في مناهجهم، فإنهم يقومون بتشويه حقائق الأشياء وتزييفها وتقديمها مكذوبة مزورة؛ لتستقر في ذهن الناشئة كما يشاء الكبراء. من ذلك ما ورد في بعض مناهجهم أن «التعاليم التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية أوجدت وأيقظت قلقاً عميقاً في القلوب، لقد قاد «محمد» [ﷺ] حرب إبادة لجميع الشعوب والقبائل التي لم تتقبل تعاليمه، فأباد قسماً كبيراً من اليهود في الجزيرة العربية»[3].

ومنه أيضاً: «إن البرابرة ممثلي إحدى

> **يتفق الدارسون المهتمون بمتابعة كتبهم ومقرراتهم على أن السمة المشتركة بينها: إثارة العواطف، وتشجيع الأنانية المطلقة، القائمة على احتقار الغير وإقصائه**

(١) الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، د. رشاد الشامي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٦م، ص: ٧٠.

(٢) ينظر: التوجيه الفني التربوي، أحمد علي الفنيش، محمد مصطفى زيدان، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ١٩٧٩م، ص:٥٥.

(٣) كتاب: (اليهودية بين المسيحية والإسلام) الصادر عام ١٩٧٣م عن مركز المناهج الدراسية، وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية، القدس، للصف السابع الابتدائي، ص: ٢٩.

التيارات الإسلامية الحاقدة وضعوا اليهود في قرطبة أمام الخيار الصعب: إما الطرد أو الإبادة»[1].

وهكذا يقومون بلَيٍّ عنق الحقيقة وتزوير الأحداث والوقائع؛ لبثِّ مزيد من الحقد والكراهية لدى القارئ الذي ربما لا يكلِّف نفسه عناء البحث عن صدق ما يقدَّم له أو كذبه.

ويصفون في مناهجهم الأمة العربية بأبشع وأرذل الأوصاف؛ فهم يعتبرون في كتبهم «العرب مجرد قبائل رُحَّل يقيمون في الصحراء، يعتمدون في رزقهم على النهب والأشغال الوضيعة».

وهذا أحد منظريهم (آحاد هاعام) يوضح الأسلوب التربوي المدروس اجتماعياً والقادر على احتواء السلبيات التي قد تبرز أثناء التطبيق العملي، بصهر اليهود في بوتقة المسيرة التوراتية واضحةِ الهدف والأسلوب؛ فبادئ ذي بدء «تقام حركة يناط بها إنشاء المستوطنات بناءً على خطة ثابتة، ثم تُبنَى مدارس صهيونية وأماكن علمية لتربية جيل يهودي سليم؛ فيتخرج الشباب وقد تربَّوا على حياة جديدة تمكِّنهم من دخول المعارك ضد العدمية وغير اليهود».

ولا يكتفون بغرس دفائن الحقد نحو الشعوب فحسب؛ بل حتى نبينا ﷺ لم يسلم من لمزهم وهمزهم؛ ومما هو وارد في مقرراتهم: «أن محمداً [ﷺ] كان يأمل أن ينضم إليه اليهود (يهود المدينة) ولم يرَ أي تناقض بين أقواله وبين معتقدات اليهود». وأن اليهود كانوا يسخرون من محمد [ﷺ] بسبب قلة معرفته بالتوراة»[2].

ويبثون هذا الحقد فيهم تجاه كل شخصية مسلمة؛ لها مناقب تاريخية؛ فيقلبون الحقائق ويزورونها لبثِّ الضغينة تجاههم، ومما هو وارد في كتبهم في معرض التهجم على الخلفاء المسلمين كـ (هارون الرشيد) - مثلاً - قولهم: «إن الخليفة العباسي (هارون الرشيد) كان يمضي يومه في شرب الخمر وإقامة الحفلات»، كما عززوا أكاذيبهم بصور نُشِرَت في الكتاب، منها صورة لامرأتين تقومان بالرقص وتلوِّحان بزجاجات الخمر في قصر الخليفة العباسي في «سامِراء» شمال بغداد.

وفي مقابل هذا التشويه للشخصيات الإسلامية يلمِّعون أسماء السفاحين منهم الأكثر قتلاً وعدواناً، ويصورونهم أبطالاً؛ خاصة بعد أن لمعت أسماء بعض القادة العسكريين، وأصبحوا في نظر الناشئة اليهود نماذج بطولية وأنماطاً يحتذى بها، على طريق تحقيق أسمى الأهداف الصهيونية وأكثرها إغراءً وإشباعاً للطموح الصهيوني المتجذر في أذهان أبناء هذا الجيل والأجيال الآتية.

ومن هذه النماذج برزت أسماء: إسحاق رابين، وإيهود باراك، وأرئيل شارون، وغيرهم من رواد القتل وسفك الدماء.

وكافؤوا التلميذ كاهانا السفاح «باروخ غولدشتاين» بإقامة نصب تذكاري له؛ لأنه قتل تسعة وعشرين مواطناً مسلماً في الحرم الإبراهيمي في الخليل عام ١٩٩٤م؛ ليُظهروه لزملائه بصورة البطل الشجاع.

ومجمَل الأهداف التي يتوخَّونها في تعليمهم، هي: ضرورة تحقيق أحلام الشعب اليهودي وذكرياته، وانعكاس الماضي اليهودي على النظام التعليمي الذي هم بصدده، ومن خلال ذلك يعتقدون أنه يمكن للتعليم اليهودي أن يجيب على السؤال التالي: «كيف يمكننا نحن اليهود الذين خَبِرنا إخفاقات المشاريع والأيديولوجيات المثالية، أن نمنع شعبنا من الغرق في سخريات تخنق الروح الإنسانية، وتسخر من الإيمان بإمكانية إحداث تغيير إيجابي؟».

لأن اليهود في الكيان الصهيوني وفي سائر مؤسسات الحركة الصهيونية واليهودية العالمية يسيرون على مبادئ الاستعلاء والعنصرية والفوقية تجاه الغير ويصفونهم «بالوثنيين والكفرة والبهائم والأنجاس، مهما يكن الإله الذي يعبدونه»، وأما اليهود - وَفْقاً لما جاء في التوراة والتلمود المحرَّفين - «فهم أبناء الله وأحباؤه» ولا بد من الإقرار بمبدأ النهب والسلب، تحت اسم العودة إلى الأرض الموعودة، وتطبيقاً للشعار الصهيوني: «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

(١) المصدر السابق، ص٤٤.

(٢) العرب والإسلام، وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية، غلومر ولستروس يافه، ص: ٧٤.

# أسرى فلسطين

فؤاد الخفش (رام الله)

**اعتقلت قوات الاحتلال الإسرائيلي منذ احتلالها لباقي الأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧م ما يزيد عن (٨٠٠) ألف مواطن فلسطيني، بينهم عشرات الآلاف من الأطفال والنساء، وبين هؤلاء أكثر من (٧٠) ألف عملية اعتقال سُجِّلت منذ بدء انتفاضة الأقصى في سبتمبر ٢٠٠٠م بينهم (٨٢٠) أسيرة و (٨٠٠٠) طفل.**

## تصنيف الأسرى حسب الفئة:

يوجد الآن في سجون الاحتلال (٦٦٠٠) أسير من بينهم (٢٧٠) طفلاً، و (٣٥) أسيرة، و (١٧٠) معتقلاً إدارياً دون تهمة أو محاكمة، و (٥) أسرى من غزة وَفْقاً لقانون «مقاتل غير شرعي»، و (٩) نواب، و (١٣) أسيراً في العزل الانفرادي مضى على عزل قسم منهم ١٠ أعوام، و (٢٨) أسيراً مريضاً في مستشفى سجن الرملة من بينهم حالات شلل، وقرابة (١٠٠٠) أسير محرومين من رؤية ذويهم.

## توزيع الأسرى حسب مناطقهم:

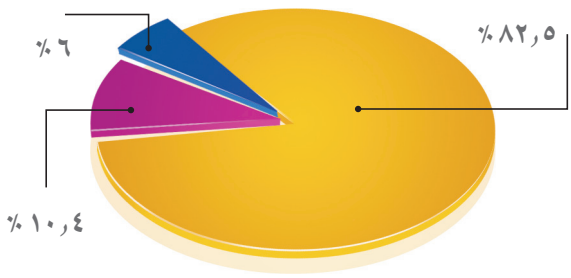


## توزيع الأسرى حسب مدة الاعتقال:

| عدد الأسرى | مدة الحكم |
|---|---|
| (٨٢٠) أسيراً | مؤبد مرَّة واحدة أو أكثر |
| (٥) أسيرات | مؤبد مرَّة واحدة أو أكثر |
| (٥٩٨) أسيراً | أكثر من عشرين عاماً وأقل من مؤبَّد |
| (٤٧٩) أسيراً | أكثر من ١٥ عاماً وأقل من ٢٠ عاماً |
| (١٧٨٢) أسيراً | أكثر من ٥ أعوام وأقل من ١٥ عاماً |

## الأسرى القدامى حسب سنوات الاعتقال:

هناك (٣٠٧) أسرى معتقلون من قَبْل أوسلو وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية في الرابع من أيار عام ١٩٩٤م، ومن بين هؤلاء (١٢٦) أسيراً مضى على اعتقالهم أكثر من عشرين عاماً، والذين أمضوا أكثر من ربع قرن بشكل متواصل (٢٧) أسيراً، ويُعتبَر الأسرى (نائل وفخري البرغوثي وأكرم منصور) هم أقدم الأسرى؛ حيث مضى على اعتقالهم أكثر من واحد وثلاثين عاماً.

## مرصد الأخبار

### قوانين على المقاس

أعلن وزير الخارجية البريطاني وليام هيج أن بلاده ستعدِّل قانوناً يسمح بملاحقة أجانب على أراضيها متهَمين بارتكاب جرائم حرب، إثر إرجاء الدولة العبرية حواراً إستراتيجياً مع لندن بسبب هذا القانون.

وقد أعلن المتحدث باسم الخارجية الإسرائيلية إيغال بالمور أن تعديل هذا القانون يشكل - من وجهة نظره - «الأولوية الأولى في جدول أعمال» زيارة هيج إلى إسرائيل، مشيراً إلى أن الدولة العبرية أرجأت استئناف «الحوار الإستراتيجي» مع بريطانيا ما لم تراجع لندن هذا القانون.

وقالت وزارة الخارجية البريطانية في بيانها: «نحن نشاطر الإسرائيليين قلقهم» حول مبدأ الصلاحية الدولية التي يتمتع بها القضاء البريطاني، مضيفاً أن مشروع تعديل القانون «سيقدَّم في مستقبل قريب جداً» إلى البرلمان.

ويسمح القانون البريطاني بأن يُصدِر قاضٍ مذكرة توقيف ضد شخصية أجنبية تزور بريطانيا بطلب من المدعي، إذا رأى أنه شارك في جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية. واستخدمت منظمات فلسطينية هذا التشريع للتقدم بشكاوى أمام محاكم بريطانية ضد مسؤولين سياسيين أو عسكريين إسرائيليين اتهمتهم بارتكاب جرائم حرب.

[جريدة الخميس المصرية: ٢٠١٠/١١م]

جلال سعد الشايب
galal_elshayp@hotmail.com

### ارتكاب الجرائم... والمصطلحات السياسية العسكرية

أعدَّت منظمة «كسر الصمت» الإسرائيلية مؤخراً كتاباً تحت عنوان «الأراضي المحتلة» يشتمل على القصص التي وقعت أثناء الحرب على غزة أواخر عام ٢٠٠٨م، فضلاً عن الممارسات والأساليب الإسرائيلية في الضفة الغربية لتعزيز الاحتلال... مؤكداً على أن العمليات العسكرية الإسرائيلية - خاصة بالضفة الغربية - تتجاوز الأغراض الدفاعية، وتؤدي بشكل منظَّم إلى «الضم بحكم الأمر الواقع» للأراضي الفلسطينية عبر تجريد الفلسطينيين من ممتلكاتهم.

وحدد الكتاب أربعة مصطلحات عسكرية أساسية، يتداولها الجيش الإسرائيلي: أولُها: مصطلح «الاستباق»: وهو ما يسمح بالقيام بأي شكل من أشكال الأعمال العسكرية الدفاعية والهجومية بحجة الوقاية من النشاط الإرهابي.

ويأتي «الفصل» كمصطلح ثانٍ: وهو لا يعني فصل الفلسطينيين عن الإسرائيليين وحسب، بل فصل الفلسطينيين عن آخرين في الضفة وغزة: من خلال حواجز التفتيش والجدار العازل والطرق الخاصة بالمستوطنين في الضفة الغربية.

ثم مصطلح «نسيج الحياة»: وهو مصطلح يستخدمه الجيش الإسرائيلي للتأكيد على أنه يقوم بما في وسعه لضمان الحياة الطبيعية قَدْر الإمكان للفلسطينيين من حيث المسؤوليةُ عن حركة المدنيين والسلع، وهو ما يتناقض مع ما جاء في الكتاب؛ إذ إن التحكم بالفقر يبقى بيد القائد العسكري للمنطقة أو حتى بيد جندي في الميدان.

ويعد «تعزيز القانون» المصطلح العسكري الرابع: وهو ما يؤكده الكتاب من نظام قانون مزدوج في الضفة الغربية؛ فبينما يخضع الفلسطينيون للحكم العسكري، فلا يَمْثُل المستوطنون إلا أمام المحاكم المدنية.

[مركز الإعلام الفلسطيني (مترجم): ٢٠١٠/١٢/١٣م]

### أوَ يستحق الأمر؟

أُزيح الستار مؤخراً في فندق قصر الإمارات في أبو ظبي عن شجرةٍ لعيد الميلاد بقيمة ١١ مليون دولار، يعتقد أنها سجَّلت رقماً قياسياً عالمياً في كلفة تزيينها.

ونُقل عن مدير الفندق هانز أولبرتس أن الشجرة البالغ ارتفاعها ١٣ متراً مرصعة بـ ١٣١ قطعة زينة بينها قطع ذهبية وأحجار كريمة مثل الماس والياقوت.

وتعتبر الشجرة أحدث مظاهر البذخ في فندق قصر الإمارات الذي لديه مرفؤه الخاص ومروحياته الخاصة وخدمة آلية لبيع سبائك الذهب.

ويُذكَر أن أجواء «الكريسماس» ليست غريبة على الإمارات التي تستضيف أعداداً كبيرة من الأجانب والمغتربين والوافدين. ويسعى المسؤولون إلى صيانة تقاليد المنطقة وثقافتها مع احترام تقاليد الضيوف وثقافاتهم.

[إيلاف: ٢٠١٠/١٢/١٧م]

## مِن جُندِ الله

أكد تقرير طبي صدر عن وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» أن الأمراض العقلية والنفسية باتت المسببَ الأكبر لإدخال الجنود الأمريكيين الذكور إلى المستشفيات، وثاني أكبر مسبب لإدخال الجنديات إلى العيادات والمراكز الطبية بين حالات الولادة.

وذكر التقرير الذي أعدَّه مكتب الرقابة الطبية أن هناك: «موجة واسعة ومتنامية» من المشاكل العقلية والنفسية في صفوف عناصر الجيش الأمريكي.

وذكر التقرير المكوَّن من ٣١ صفحة أيضاً، أن هذه المشاكل تتزايد وسط الشعب الأمريكي ككل، ولكنها تتزايد بوتيرة أعلى في صفوف القوات المسلحة، وخاصة الفصائل القتالية التي شاركت في مهام عسكرية بالعراق وأفغانستان.

وكان الجنرال بيتر شياريلي (نائب رئيس هيئة الأركان للجيش الأمريكي) قد لفت الانتباه العام الماضي إلى أن «الإجهاد والضغوط» التي تتعرض لها القوات جراء عمليات الانتشار المتعددة والمتكررة مسؤولة (جزئياً) عن ارتفاع معدلات الانتحار بين أفراد الجيش الأمريكي.

[شبكة السي إن إن العربية (بتصرف): ٢٠١٠/١٢/١٠م]

## العدو الأول للديمقراطية!

زعم ماريو فارغاس يوسا (الأديب الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠١٠م في تشيلي) في مداخلة له في ختام منتدى دوليٍّ حول السياسات العامة أقيم في سانتياغو أن «ثقافة الحرية لا يزال لديها أعداء، وهم أعداء في غاية الخطورة؛ فقد حلَّت الأصولية الإسلامية مكان الشيوعية كعدوٍّ أول لثقافة الديمقراطية في العالم الحالي».

وواصل مزاعمه قائلاً: «إن التطرف الإسلامي ليس قوياً بقدر ما كان الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، لكنه يشكل تحدياً؛ لأن ثمة مقاتلين متعصبين مقتنعون بأنهم من خلال تدمير الثقافة الغربية وكل ما تمثله، سيدخلون الجنة».

وفي معرض تهجُّمه على الإسلام قال يوسا: «علينا أن نعرف كيف ندافع عن أنفسنا؛ كي لا نتيح لهم التسلل إلى مجتمعاتنا وزرع الرعب فيها من خلال استغلال المؤسسات التي تروج للحرية».

[مفكرة الإسلام (بتصرف): ٢٠١٠/١٢/١٩م]

## حتى الاعتراف مرفوض!

وصفت (إسرائيل) اعتراف بعض دول أميركا اللاتينية بالدولة الفلسطينية بأنه «مؤسف»، في حين عبَّر الرئيس الفلسطيني محمود عباس عن تقديره لهذا الاعتراف الذي رحبت به جامعة الدول العربية وتركيا.

وصرح المتحدث الرسمي باسم الخارجية الإسرائيلية إيغال بالمور لوكالة الصحافة الفرنسية: بأن «هذا القرار المؤسف الذي اتخذته هذه الدول لن يساعد على الإطلاق في تغيير الوضع بين إسرائيل والفلسطينيين». مضيفاً أنه «اعترافٌ مخيِّب للآمال يسير ضد روح الاتفاقيات الموقَّعة بين إسرائيل والفلسطينيين وضد مفاوضات السلام».

وتأتي هذه التصريحات بعد أن حذت الأوروغواي حذو الأرجنتين والبرازيل بالاعتراف بدولة فلسطينية «حرة ومستقلة» ضمن حدود عام ١٩٦٧م.

وردّاً على مطالب تجميد الاستيطان الدولية والمحلية أكد وزير الخارجية الإسرائيلي ليبرمان أن إسرائيل ليس لديها سبب يدعوها لتمديد وقف البناء في المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية، مفيداً أن الموقف الفلسطيني المتمثل بعدم استئناف المحادثات إلا بعد وقف البناء فيها «يبيِّن نواياهم الحقيقية لدفع هذه المحادثات نحو الجمود».

[القدس: ٢٠١٠/١٢/١٤م]

قُتِل في العراق ١٤٥ صحفياً منذ عام ١٩٩٢م، ستة منهم فقط قتلوا قبل الحرب على العراق عام ٢٠٠٣م. وقال التقرير: إن ٨٩ صحفياً قُتِلوا عمداً و ٥٠ منهم قُتِلوا في حوادث إطلاق نار. كما بيَّن التقرير أن ١١٧ من الصحفيين الذي قُتِلوا في العراق هم عراقيون، وأن ١٠٥ منهم يُلقَى اللوم في مصرعهم على المجموعات المسلحة.

كما بلغت أعداد الصحفيين المقتولين في العراق أرقاماً قياسية عامي ٢٠٠٦م و ٢٠٠٧م؛ حيث قُتِل ٣٢ صحفياً في كل عام.

وفي إيران: بلغت أعداد الصحفيين المعتقلين العام الماضي ٢٣ صحفياً؛ أي بفارق صحفي واحد عن الصين، وقد اعتقل معظمهم في عمليات القمع التي تلت الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٩م. يُذكر أن نصف الصحفيين الإيرانيين المعتقلين يعملون في الصحافة الإلكترونية.

[الجزيرة عن كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية: ٢٠١٠/١٢/٩م]

أعلنت وزيرة الاقتصاد الفرنسية، كريستين لاغارد أن الإضرابات التي تشهدها فرنسا احتجاجاً على مشروع إصلاح نظام التقاعد كلفت الدولة ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ مليون يورو يومياً (أي: ٢٨٠ إلى ٥٦٠ مليون دولار).

وأشارت لاغارد كذلك إلى الأضرار المعنوية التي تسببت بها الاحتجاجات على قانون رفع سن التقاعد من ٦٠ إلى ٦٢ عاماً، على صورة فرنسا بالخارج.

وللاحتجاج ضد خطط الحكومة الإصلاحية، نظَّم العاملون في فرنسا سلسلة احتجاجات وإضرابات الشهر الماضي، وذلك إلى جانب أسبوع من الإضرابات الواسعة هذا الشهر، غير أن وزيرة الاقتصاد الفرنسية لم تحدد أيّاً من الإضرابات عنت خلال المقابلة التلفزيونية التي أجرتها مع شبكة «أوروبا ١» التلفزيونية.

وشارك أكثر من مليون شخص في تلك الاحتجاجات، بينما تدعو ست من أكبر النقابات العمالية للتعبئة ومسيرات شعبية عامة في ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول الجاري، و ٦ نوفمبر/تشرين الثاني المقبل. [موقع السي إن إن: ٢٠١٠/١١/١٨م]

أظهرت دراسة صدرت حديثاً أن واحداً من كل أربعة أشخاص في العالم دفعوا رشوة خلال العام الماضي، وأن دوائر الشرطة هي أكثر المؤسسات تعاطياً للرشوة، وأكدت الدراسة (التي أعدتها منظمة الشفافية الدولية بمناسبة اليوم العالمي لمحاربة الفساد) أن ربع سكان العالم دفعوا رشوة في نحو ١١ ٪ من المؤسسات (واحدة من كل تسع مؤسسات).

وركزت الدراسة (التي شملت ٩١,٠٠٠ شخص من ٨٦ دولة) على حالات «الرشوة الصغيرة»، وامتدت في فترة ما بين الأول من يونيو/حزيران و ٣٠ من سبتمبر/أيلول ٢٠١٠م.

وأكد نحو نصف من شملتهم الدراسة أنهم دفعوا رشوة لتفادي المشاكل، في حين قال نحو ربع المستجوَبين: إنهم دفعوا من أجل تسريع الإجراءات.

وجاءت دوائر الشرطة على رأس المؤسسات التي تتفشى فيها الرشوة؛ حيث إن ٢٩ ٪ ممن تعاملوا مع دوائر الشرطة وشملتهم الدراسة قالوا: إنهم دفعوا رشوة.

[الفرنسية وأخبار مكتوب: ٢٠١٠/١٢/٩م]

وصل معدل البطالة في دول منطقة اليورو إلى ١٠,١ في المئة في أكتوبر؛ بعد ارتفاع عدد العاطلين عن العمل في إيطاليا واستقرار معدل البطالة في إسبانيا، مع تراجع طفيف في ألمانيا وفرنسا.

وتعد هذه أعلى نسبة بطالة في منطقة اليورو منذ يوليو؛ على حد قول هيئة الإحصاء الأوروبية (يوروستات).

وارتفع عدد العاطلين عن العمل في منطقة اليورو بمقدار ٨٠ ألف شخص في أكتوبر ليصل إلى ١٥,٩٥ مليون شخص. أما في الاتحاد الأوروبي كله (٢٧ دولة) فزاد عدد العاطلين ٨٤ ألف نسمة ليصل إلى ٢٣,١٥ مليون شخص.

وذكرت يوروستات أن معدل التضخم في دول اليورو (١٦ دولة) لم يتغير وظل عند ١,٩ ٪ في نوفمبر/تشرين الثاني.

بينما ظلت نسبة البطالة في إسبانيا التي كانت من أكثر المتضررين من الأزمة الاقتصادية العالمية كما هي عند ٢٠,٧ ٪.

وكانت ألمانيا قد نشرت أرقام البطالة فيها في وقت سابق على صدور بيانات يوروستات. [موقع البي بي سي العربي: ٢٠١٠/١١/٣٠م]

أظهرت بيانات حكومية أن ديون اليمن الخارجية ارتفعت في الأشهر السبعة الأولى من العام الجاري بمقدار ٥٢ مليون دولار لتصل إلى ٥,٩١٤ مليار دولار.

وأشارت بيانات البنك المركزي اليمني، التي نقلتها وكالة «سبأ» الرسمية، إلى أن مؤسسات وصناديق التمويل الدولية جاءت على رأس قائمة الدائنين لليمن بمستحقات تبلغ ٣,١٢٦ مليار دولار.

وذكرت الوكالة أن «بقية المديونية توزعت على الدول الأعضاء في نادي باريس بمقدار ١,٧٤٢ مليار دولار، بينما بلغت المديونية لصالح الدول غير الأعضاء في نادي باريس ٨٤٤ مليون دولار».

وتضمنت البيانات ٢٠١ مليون دولار مديونية لجهات لم تُذكَر في بيانات المصرف المركزي اليمني، بينما قالت الوكالة: «إن المديونية تشمل الرصيد القائم للديون ومتأخرات أقساط وفوائد مستحقة للجهات المقرضة». [مواقع]

## س: ما حجم الخسائر الحقيقية للجيش الأمريكي في العراق وأفغانستان؟

ج: قدرت دراسة لمكتب الميزانية بالكونغرس الأمريكي في سبتمبر ٢٠٠٧م عدد القطع التي فقدها الجيش وتحتاج إلى تعويض على وجه السرعة بنحو ٣٠٠ ألف قطعة من كل الأنظمة الأساسية؛ خاصة المروحيات ودبابات أبرامز وبرادلي والمدرعات والهمفي والمدافع.

قال الجنرال روبرت رادين (رئيس قيادة العتاد في الجيش الأميركي ونائب رئيس الأركان للعمليات اللوجستية والعمليات): إن عدد المعدات التي دمرتها الحرب وخضعت للإصلاح مثل عربات القتال برادلي ودبابات أبرامز وقطع المدفعية والعربات ذات العجلات في عام ٢٠٠٥م بلغت ٢٠٠٠٠ قطعة، وفي عام ٢٠٠٦م بلغت ٣٣٠٠٠ قطعة، و في عام ٢٠٠٧م بلغت حوالي ٤٧٠٠٠ قطعة من المعدات خضعت للإصلاح.

ووَفْقاً لمكتب الميزانية بالكونغرس عام ٢٠٠٦م، فإن النقص في المعدات نتيجة التدمير كان كالتالي: ١٣ ألف من المركبات سريعة الحركة ومتعددة الأغراض (همفي)، و ٣٢ ألف مركبة تكتيكية متوسطة، و ٧,٦٠٠ آلاف مركبة تكتيكية ثقيلة.

ومع استنزاف كل الترسانة الأمريكية وإرسالها إلى العراق وأفغانستان والمناطق المحيطة بهما في أول خمس سنوات للحرب أكد الخبراء في وزارة الدفاع الأمريكية عدم توفر معدات للقوات المتوجهة إلى المعركة، علاوة على عدم توفر معدات للتدريب.

كما لعبت العبوات الناسفة – هذا الاختراع البسيط جداً – دوراً متميزاً في تعجيز الجيش الأمريكي وتدمير معدَّاته وقتل جنوده، ووقف الجيش الغازي المسلح بأحدث التقنيات حائراً لا يدري ماذا يفعل أمام هذا السلاح البدائي. لقد رصدوا الميزانيات ووضعوا الخطط ولكنها باءت كلها بالفشل.

ومع تصاعد عمليات تفجير المعدات على الطرق جرى تأسيس صندوق للإنفاق على برامج تساعد في مواجهة العبوات الناسفة بداية من عام ٢٠٠٦م. وما خُصِّص له كان كالتالي حسب الأعوام:

ففي عام ٢٠٠٦م تم تخصيص مبلغ ٣,٣ مليار دولار.

وفي عام ٢٠٠٧م تم تخصيص ٤,٤ مليار دولار.

وفي عام ٢٠٠٨م تم تخصيص ٤,٣ مليار دولار.

وفي عام ٢٠٠٩م تم تخصيص ٣,١ مليار دولار.

عام ٢٠١٠م تم تخصيص ١,٨ مليار دولار.

وفي عام ٢٠١١م مع تزايد الخسائر في أفغانستان تم تخصيص ٣,٣ مليار دولار.

ولكن حتى الآن لا زالت العبوات تحصد المعدَّات الأمريكية في العراق. وانتقلت هذه التقنية البدائية إلى أيدي المجاهدين في أفغانستان.

وقدَّر مكتب المحاسبة بالكونغرس قيمة المعدات في العراق وأفغانستان والمنطقة المحيطة بساحة المعارك بـ ٣٠ مليار دولار.

ويجري الحفاظ على هذه النسبة لأسباب عسكرية؛ إذ توجد معادلة توازن بين تعداد القوات والألوية وبين عدد المعدات، وما يتم إعطابه أو تدميره يجري إصلاحه أو استبداله لاستعادة القدرات القتالية. وبحسب الوزارة؛ فإن عدد المعدات التي جرى إرسالها إلى العراق ٥٧٠ ألف قطعة وهي كالتالي: من ١٥ – ٢٠ ٪ من أسطول المروحيات موجود في العراق وأفغانستان في أي وقت و ٥٥٠ دبابة أبرامز في العراق تمثل ٩ ٪ من مجموع ترسانة الجيش الأمريكي. وجرى نشر أكثر من ٢٠ ٪ من ترسانة العربة المقاتلة سترايكر.

وجرى نشر ٢٣,٨٠٠ من الهمفي في البداية، ثم إرسال كل ترسانة الجيش الأمريكي في ما بعد.

إن ما يهمنا هو معرفة حجم العتاد المدمر من خلال أرقام المخصصات السنوية التي أقرها الكونغرس، وتلك الخاصة ببند استبدال وتجديد المعدات المدمرة والمعطوبة.

وباستعراض الميزانيات السنوية للوقوف على القيمة المالية لاستبدال وتجديد المعدات التي خسرها الجيش الأمريكي في الحربين تبيَّن الآتي:

في عام ٢٠٠٤م تم تخصيص ٧,٢ مليار دولار لعملية تعويض وإصلاح المعدات.

في عام ٢٠٠٥م تم تخصيص ١٨ مليار.
في عام ٢٠٠٦م تم تخصيص ٢٢,٩ مليار.
في عام ٢٠٠٧م تم تخصيص ٤٥,٤ مليار.
في عام ٢٠٠٨م تم تخصيص ٦١,٥ مليار.
في عام ٢٠٠٩م تم تخصيص ٣٢ مليار.
في عام ٢٠١٠م تم تخصيص ٢٨ مليار.
في عام ٢٠١١م تم تخصيص ٢١,٤ مليار.

ووَفْقاً للإحصاءات الرسمية للبنتاغون؛ فإن عدد القتلى العسكريين الأمريكيين حتى ٨ نوفمبر ٢٠١٠م بلغ ٥٧٩٨ قتيلاً منهم ٤٤٠٩ قتيلاً في العراق، و ١٣٨٩ قتيلاً في أفغانستان. ووَفْقاً للإحصاءات الرسمية للبنتاغون في ٨ نوفمبر ٢٠١٠م؛ فإن عدد المصابين في الحربين ٤١,٠٣٠ ألف مصاب، منهم ٣١,٩٣٥ ألف في العراق، و ٩,٠٩٥ في أفغانستان.

كما أنه من الظواهر التي لفتت الانتباه انتشار الانتحار وسط الجنود الأمريكيين أثناء الخدمة وبعد الخروج منها.

أكدت فصلية الكونغرس Congressional Quarterly أن أفراد الجيش الأمريكي الذين انتحروا في عام ٢٠٠٩م زاد على عدد الجنود الذين قتلوا نتيجة العمليات الحربية في كلٍّ من أفغانستان والعراق.

[بتصرف من مقال للأستاذ عامر عبد المنعم – موقع العرب نيوز: ٢٠١٠/١٢/٥م]

# الأقلية المسلمة في شيلي

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع تشيلي في غرب قارة أمريكا الجنوبية على سواحل المحيط الهادي، تحدُّها من الشمال البيرو، وبوليفيا من الشمال الشرقي، والأرجنتين من الشرق. يبلغ عدد سكانها ١٦ مليون نسمة، وتوزيع الأديان فيها على النحو التالي:

كاثوليك ٨٠,٧ ٪، وبروتستانت ٦,١ ٪، ويهود ٣ ٪، ومسلمون ٠,٣٪، وبدون ١٢,٨ ٪، وغيرهم ٠,٣ ٪.

إجمالي عدد المسلمين حوالي أربعة آلاف ٤٠٠٠ مسلم. وتعيش أغلب الجالية المسلمة في العاصمة «سانتياجو»، ومدينة «إكيكي»، ومدن متفرقة أخرى.

ويتضح تأثر الثقافة والهوية التشيلية بالثقافة المغربية؛ نظراً لدور الموريسكيين (وهم مسلمو الأندلس) الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية الكاثوليكية وكانوا من أصول مغاربية، وتم تهجير جماعات كبيرة منهم قسراً إلى العالم الجديد، ومنه إلى تشيلي؛ بحسب ما ذكره المؤرخ أوريليو دياز ميزا.

ويوجد في تشيلي عدد من المساجد، ويُعَد مسجد «السلام» بالعاصمة سانتياجو – الذي بدأ بناؤه في ١٩٨٨م، وافتُتِح أمام المصلين في عام ١٩٩٦ – أول مسجد شيد بتشيلي، وللمسجد مركز تابع له يتميز بنشاطاته الدعوية وخدمة المسلمين.

وفي سنة ١٩٩٧م تم بناء مسجد «بلال» في مدينة إكيكي (بفضل جهود التجار الباكستانيين)، ثم أعطى ملك المغرب محمد السادس في عام ٢٠٠٤م أثناء زيارته لتشيلي أمراً ببناء أكبر مركز ثقافي ومسجد في تشيلي على نفقته الخاصة، وتخصص نشاطات المركز في التعريف بالإسلام والدعوة الإسلامية.

وقام المؤتمر الذي عقدته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية، والذي جمع بين رؤساء المراكز والجمعيات الثقافية في أمريكا اللاتينية في العاصمة الأرجنتينية (بوينس آيرس) خلال الفترة من ١٥ – ١٩ مايو ٢٠٠٩م، وحضره أكثر من خمسة وعشرين مسؤولاً عن العمل الثقافي الإسلامي في أمريكا اللاتينية، قام بوضع إستراتيجية للعمل الثقافي العربي والإسلامي في بلاد المهجر لمساعدة المسلمين هناك في الحفاظ على هويتهم الإسلامية، ولتنسيق العمل الإسلامي المشترك، وتعزيز التعاون بين المراكز الإسلامية في أمريكا الجنوبية واللاتينية.

وأبرز التحديات والمصاعب التي رصدها المؤتمر سابق الذكر، تتركز في ما يلي: عدم معرفة الدين الإسلامي معرفة صحيحة، وكذلك عدم الإلمام بالثقافة الإسلامية، وعدم التزام كثير من مسلمي تلك الدول بالعبادات وإقامة شعائرهم الدينية، إضافة إلى عجزهم عن التمسك بالهوية العربية والإسلامية، وعدم قدرتهم على إبراز ثقافتهم الإسلامية، بسبب عدم فهمهم للإسلام، محاولين الظهور بمظاهر مناوئة لثقافتهم الدينية إرضاءً للمجتمع، وتقليداً للعادات الغربية، إضافة إلى عدم الاهتمام بتعليم اللغة العربية، وعدم توفر المصادر الإسلامية من كتب وأشرطة، وفقدان البرامج الخاصة بالشباب والأطفال المتعلقة بالتوعية الدينية، وغياب الهيئات المتخصصة بإدارة الأوقاف الإسلامية وتنميتها، وعدم توفر المنشآت التعليمية الدينية والعربية للمرحلتين المتوسطة والثانوية، وندرة المصادر الإسلامية باللغة الإسبانية، وغياب التنسيق والتعاون في نشاطات الهيئات الإسلامية، كما أن الإعلام المحلي في تشيلي وبقية دول أمريكا اللاتينية يشوه صورة الإسلام والمسلمين.

**ومن المشاكل التي تعاني منها الجالية الإسلامية في تشيلي خاصة:**

– الوضع الاقتصادي المتدني؛ حيث تنتشر البطالة ويكثر الفقر في تشيلي عموماً.

– كثرة زواج الشباب من غير المسلمات أو بالمسلمات اسمياً؛ وهذا يؤثر في مستوى التزام الشباب أنفسهم بالإسلام وأبنائهم بعد ذلك، ويزداد الأمر سوءاً عندما ينفصل الزوجان وتتولى الأم حضانة أبنائها فتنشئهم بعيداً عن تعاليم الإسلام كما يحدث في جل الدول الغربية.

– الانفلات الأمني الذي تعاني منه الحكومة التشيلية المتمثل في ضعف التشريعات والإجراءات الإدارية، وعدم كفاية إجراءات الشرطة كما ذكرت منظمة حقوق الإنسان، وقد ألقت هذه المشكلة بظلالها على الجالية الإسلامية.

– جهل كثير من المسلمين بتعاليم الإسلام الأساسية.

– قلة الموارد البشرية؛ مثل قلة عدد الدعاة المجيدين للغات المحلية مع دراية كافية بعادات شعوب تلك الدول وتقاليدها، وقلة العناصر القادرة على تمثيل المسلمين في بعض المناسبات والحوارات التلفزيونية، والتفاعل مع وسائل الإعلام المحلية للتعريف بالإسلام والرد على دعاوى التضليل الإعلامي المعادي للإسلام والمسلمين.

– غياب برامج رعاية المرأة والطفل؛ وهذه تضعف بناء الأجيال التالية للمهاجرين؛ نظراً لكون الأطفال يتأثرون أكثر ببيئتهم المحيطة وبأمهاتهم.

**أهم الخطوات التي اقترحها المؤتمر ووجَّهها للحكومات الإسلامية والعربية، والتي تخص مسلمي تشيلي:**

– إنشاء مدارس إسلامية وإعداد مناهج تتبع التعليم الرسمي في البلاد؛ لكي لا يعزف الآباء عن تدريس أولادهم في المدارس الإسلامية؛ فإذا كانت المدارس الإسلامية معترفاً بها، فإن هذا مما يزيد إقبال أبناء الجالية عليها، وتضاف إلى هذه المناهج المواد الإسلامية ومواد اللغة العربية.

– التركيز على ترجمة الكتب الإسلامية والأدبية للغة الإسبانية وهذا مما يربطهم ويقوي صلتهم بالثقافة الإسلامية.

– تواصل الدول العربية والإسلامية مع الجالية الإسلامية في تشيلي عن طريق المؤتمرات الدولية وغيرها من صور التبادل الثقافي، وهو ما يعزز الانتماء لدى الجالية المسلمة في تشيلي لدينها.

– أن تهيَّأ معاهد لتدريب الدعاة في الدول الإسلامية، ويتم من خلالها تعريف بأحوال الجالية الإسلامية في تشيلي؛ حيث يكون لدى الداعية معرفة تامة بأحوال الجالية؛ لكي يكون التأثير عليهم قوياً وفعالاً في الوقت نفسه.

– ابتعاث الطلاب المسلمين من تشيلي إلى الدول العربية وتسهيل المنح الدراسية لهم؛ لكي يتعلموا العلوم الدينية والعربية ويعودوا لمجتمعهم سفراء صالحين ومؤثرين لنشر دينهم ورفع رايته.

– توجيه الفضائيات الإسلامية ووسائل الإعلام المختلفة لمخاطبة هؤلاء الأخوة وتدريب العناصر لذلك من حيث اللغة وأسلوبُ الدعوة.

أهم المصادر :

موقع الفاكت بوك، وإسلام ويب، وهدي الإسلام، والموسوعة الثقافية، وإسلام أون لاين، ومفكرة الإسلام، العرب في أمريكا اللاتينية... صراع الغربة والاندماج، مجموعة باحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، وموقع طريق الإيمان، والمعرفة، وويكيبيديا.

# ذلك الفرق الذي يجعلك (بطلاً) ويجعلني (صفراً)

لبابة أبو صالح

كأس الشاي أمامي تتصاعد منه أبخرة الحرارة.

كل شيء حولي هامدٌ لا يهزُّه شيء: الجدران بطلائها الجميل، والأضواء الخافتة الملونة، الأثاث برائحته الخاصة لم تُعفِّره السنون بغبارها بعد.

كل شيء أنيق ونظيف... وأنا أعيش هنا؛ ولذلك دموعي سرابٌ لا يُذاب كما دموعك أنت.

أنا أشتري الزيتون من متجر الحي متبَّلاً محشوّاً وبدون نوى.

أما أنت فتقطفه من شجر أرضك مُرّاً قاسياً أخضر كالحلم الذي مضى عليه أكثر من خمسين سنة ولم يغزُه اليأس برغم الشيب الذي غزا رؤوسكم.

أنا أتعسَّف اللغة تعسُّفاً لأكتب قصيدة جوفاء لا حرب فيها، لا حصار، لا خوف.

القلم مبريٌّ والورق كثيرٌ والساعة تعمل برتابة مُعلَّقةً على الجدار قرب لوحات زيتية باهظة الأُطُر وثقيلة الأوزان.

بينما تُشهِرُ (مُوسَكَ) الحادَّ لتجترح صرخاتك على جدران المنازل المطلَّة على شوارع غزة المنكوبة، تنحت حرقتك في وجهها الطيني شِعراً يبكي، وقوافي من جوفك تأتي تصدح بالآه... ترتج يدك على وجهها الحجري الجامد لتوقِّع صرختَك لوحةً من دون إطار... لا تُباع أو تُشتَرى، ولا تعني شيئاً لأحد.

ليس الفرق بيننا فقراً وغنىً، جوعاً أو شبعاً... بل هو الفرق الذي بين الحقيقة والتخيُّل، فأنت تعيش في حقيقة صعبة، وأنا أتخيَّلُ كم هي صعبةً!

لكن لو كنتُ مكانك لكنتُ مثلك، ولو كنتَ مكاني لما استطعتَ أن تكون غير ما أنا عليه الآن.

دموعك أنت هي الثمرة الوحيدة التي تصنع عصير الفواق لهم. أما دموعي فليست أكثر من كذبٍ أمارِسُهُ كي لا أكون بليدةً أمام محنتك.

لا تلمْني أيها البطل!

إنها مشيئةٌ رتَّبَتْنا على هذا النحو؛ تماماً كما رتَّبتْكم شعباً يملك الكثير ليفقدهُ، ورتَّبَتْ الحكومات حكوماتٍ تملك الكُرْسي فقط، هذا الكرسي الذي يصعب أن تفقده.

ألا ترى أن مكان البيدق في الرقعة هو مكانه فيها... ومكان الشاه من خلفه هو مكانه... واللُّعبة أن يموت الملك في النهاية. وهذا لا يحصل حتى تخلو الرقعة من كل الأحجار. هذه هي اللعبة.

الشعوب تضْرسُ... تُبادُ... وتُقْتَلُ. والناس تصبح مجرَّد أرقامٍ في لوائح سوداء طويلة ونشرات أخبار باردةٍ... تُلقَى على مسامع صماء.

لا قيمة لكل ما يحدث؛ فالغاية هي الرؤوس التي لا يصِلها سوى برقيات التعزية المنمَّقة.

هاتِ دمعك كي أذيبه في تلك الكؤوس... إنه سُمٌّ يوقظ من الموت الذي يسكنونه. واعذرني كثيراً لأني سأتسوَّل منك ما يَهبُهم الإحساس بك.

اعذرني كثيراً أيها البطلُ... أرجوك.

# لماذا سيبدو المجتمع الصهيوني «مكشوفاً» في أي حرب قادمة؟

د.عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

تشير كثير من التوقعات الأمنية والتقديرات العسكرية إلى أن المنطقة ربما تكون مقبلة على حرب طاحنة يشنها الكيان الصهيوني ضد أيٍّ من الجبهات الإقليمية أو المحلية، وهو ما يجعل الحديث عن مدى جاهزية جبهته الداخلية أمراً ملحّاً وملزماً بالضرورة.

فقد ألقى مهندس الصواريخ الشهير في الكيان الصهيوني «عوزي روبين» مؤخراً محاضرة مقلقة لصناع القرار في تل أبيب، زعم فيها أن هدف العدو في الحرب المقبلة ضد الكيان، سيكون مهاجمة المجتمع الصهيوني وليس الجيش، عبر استخدام أسلحة دقيقة شديدة القوة، وسيحاول أن يخلق لنفسه تفوُّقاً جوياً دون سلاح جو.

ووَفْق حساباته التي أوردها التلفزيون الإسرائيلي في القناة العاشرة، فإن هناك ١٣ ألف صاروخ موجَّه حالياً نحو معظم المناطق المأهولة في الكيان، من عكا إلى النقب، وهناك ١٥٠٠ صاروخ مؤهل لضرب منطقة تل أبيب، تحمل ما يصل إلى ١٤٠٠ طن من المتفجرات.

وتشير تقديرات أخرى إلى أنَّ هذه القوة الصاروخية قد تشوش القدرة العسكرية للكيان، وتُلحق أضراراً فادحة، وتقتل كثيراً من الصهاينة، ولا سيما أن الرد الصهيوني يركز على العمليات الهجومية بينما يولي أهمية أقل للعمليات الدفاعية، وهو ما يعني أن قادة الجيش يعترفون بأن الجبهة الداخلية ستتلقى حصة من الحرب، وأن هذا سيكون دافعاً جيداً لإعادة النظر في عقيدته القتالية.

## مخاطر محدقة:

كشف نائب وزير الحرب الصهيوني «ماتان فيلنائي» النقاب عن إخفاق الاستعدادات لحماية الجبهة الداخلية، التي ستتحول إلى جبهة قتال في كل حرب قادمة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ؛ وخاصة أن ٤٠ ٪ فقط منها محمية من قِبَل قوات الأمن. أما الباقي (أي ٦٠٪) فما زال مكشوفاً، ولا يمكن للجيش في حال اندلاع مواجهة جديدة حمايته، وقال: إنَّ التهديدات المحدقة بالكيان تتمثل بالصواريخ الباليستية القادرة على ضرب «تل أبيب»، مشدداً على أنَّ حصول هذا الأمر هو مسألة وقت ليس إلا.

ونبه «فلنائي» الذي يسمى بـ «وزير الجبهة الداخلية»، إلى الجبهة الجنوبية مع قطاع غزة قائلاً: إنَّ الصواريخ التي تمتلكها حركات المقاومة الفلسطينية، وعلى رأسها حماس، كانت صواريخ بدائية، ومع مرور الوقت قامت بتطويرها؛ بحيث تحولت إلى تهديد على البلدات الصهيونية، مشيراً إلى أن حماس تواصل تطوير الصواريخ التي بحوزتها، وفي المستقبل القريب فإنَّ مداها سيصبح أكثر بعداً، والدقة في التصويب ستتحسن، كما أنها ستحمل رؤوساً خطيرة للغاية.

إن هذه الأحاديث والتقييمات السوداوية التي تصدر

(*) كاتب فلسطيني.

عن مسؤولين كبار في الكيان الصهيوني، تشير إليها مجلة «محانيه» العسكرية على أن تهديد الصواريخ من خارج الدولة العبرية، والعمليات الفدائية التي نفذت في الداخل، حوَّلا التهديد على الجبهة الداخلية إلى تهديد إستراتيجي؛ لأن الأمر نابع من إدراك «أعداء إسرائيل» أنهم سيعملون على حسم المعركة عن طريق الجبهة الداخلية، وهو ما يعني أنها ستتعرض لإصابات كبيرة وخطيرة، وهو الأمر الذي سيؤثر على سير المعارك، وعلى آلية حساب نتائج الحرب.

## إحصائيات مقلقة:

يبدو القلق الصهيوني متزايداً في ضوء ما قام به مركز (سابان) لأبحاث وسياسات الشرق الأوسط، الذي وضع سيناريو افتراضياً يقوم على أن المنطقة ستدخل في حرب طاحنة، من خلال مهاجمة الكيان الصهيوني بالقذائف الصاروخية، وهو ما سيؤدي لأضرار صهيونية، تنجم عن إطلاق مئات الصواريخ على مدينتي تل أبيب وحيفا، والعمل على شل الاقتصاد الصهيوني، بينما ثلث سكان الكيان سيمكثون في الملاجئ، ومئات الآلاف سيفرُّون من المدن المستهدَفة.

## حريق الكرمل:

وفي ذروة الحديث الصهيوني عن استعدادات الجبهة الداخلية لحرب قادمة، جاءت حرائق الكرمل الأخيرة لتقضي بالعجز عن إطفائها، ومن ثَمَّ تلغي أسطورة التقدم التقني والعسكري، وأثبت أنَّ مصير الدولة في يد قيادة لا تستطيع حتى إطفاء حريق.

وأثار «أَلوف بن» في صحيفة هآرتس نقاشاً حادّاً ونقدياً في كلِّ ما يتعلَّق بالكشف عن الحرائق، ونقص المياه، وسلامة الطيران، والاستعداد للزلازل... وما إلى ذلك من المسائل التي تتطلَّب تخطيطاً طويل المدى. ويُفضِّل صنَّاع القرار الصهاينة معالجة هذه الأمور بشكل آني ضيِّق الأفق، وقد أظهرت كارثة حريق غابات جبل الكرمل مدى تأخُّرهم في مجال إطفاء الحرائق؛ حيث أحرقت النار أسطورة الدولة اليهودية العظمى المتقدمة تقنياً وعسكرياً، والقادرة على فعل أيِّ شيء، ومن ثَمَّ فقدتْ ما يُطلَق عليه «قدرة الردع»، مع ما يعنيه ذلك من الأضرار المحلية والإقليمية، وتداعياته الإستراتيجية.

ومما ما يعزز اهتزاز الجبهة الداخلية الصهيونية، وعجزها عن مواجهة حرب قادمة، أنه على مدار ٦٢ عاماً تمكَّن الصهاينة من إجراء عملية غسيل دماغ مكثفة للرأي العام العالمي والمحلي، على أن دولتهم أقوى دولة في الشرق الأوسط وأكثرها تطوراً، وتملك أعتى جيش في المنطقة، قادر على إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية مجتمعة، وأنه واحة الديمقراطية في صحراء الدكتاتورية العربية.

ولكن جاءت الحربان الأخيرتان في لبنان وغزة، وحرائق الكرمل، لتبدأ هذه الأسطورة بالتهاوي والتحطُّم. وقوى المقاومة تمكنت بقوَّتها المتواضعة - مقارنة بجيش الدولة التي تتبوأ المكان الرابع عالمياً في تصدير الأسلحة - من تحطيم النظرية العسكرية التي وضعها مؤسس الدولة العبرية، ديفيد ابن غوريون، القائلة: إن حروب إسرائيل يجب أن تدور رحاها في أرض العدو، ومن ناحية أخرى، يجب أن تُحسَم لصالحها خلال أيام معدودة.

إن الإخفاقات الأخيرة جعلت «بن غوريون» يتقلب في قبره؛ فالجبهة الداخلية الإسرائيلية، تحولت إلى ساحة معركة، ولأول مرة في تاريخ إسرائيل يقوم ما يقارب مليون مواطن من الشمال بالنزوح (أو بالهروب) إلى مركز الدولة الآمن من صواريخ المقاومة.

كما جاءت هذه الأحداث لتشكِّل علامات فارقة ومفصلية في تاريخ النزاع الدموي الدائم بين الحركة الصهيونية ممثلة بصنيعتها الدولة العبرية، وبين الأمة العربية بدأت الأسطورة تتحطم، أسطورة الدولة التي لا تُقهر. لقد حاولت إسرائيل احتواء الأزمة، وابتكرت المبررات وساقت التسويغات وشكَّلت لجان التحقيق، ولكن بعد مرور سنوات على تلك المغامرات غير المحسوبة، تبيَّن أنَّ عصر الهزائم قد ولَّى قولاً وقلباً وقالباً، وظهر واضحاً جلياً أنه لا حاجة بعد اليوم للصواريخ والقذائف، ولا للأسلحة التقليدية أو غير التقليدية.

وهكذا تقول نظرية خيوط العنكبوت: إنَّ إسرائيل هي دولة عظمى من الناحية العسكرية، ولكنَّ المجتمع اليهودي لا ينقصه أي شيء، وعليه فإنه لا يريد خوض الحروب، وبموجب هذه النظرية يقول «موشيه يعلون» وزير الشؤون الإستراتيجية الحالي: إنَّ الدولة العبرية هي مثل خيوط العنكبوت؛ فمن الخارج تراها قوية، ولكن عندما تدخلها تكتشف أنَّها ضعيفة جداً وتتفكك.

# عملية الخليل في الضفة...

# دلالات ومعانٍ

فلسطين - مجلة البيان

في الواحد والثلاثين من شهر أغسطس ٢٠١٠م، وبينما كانت كافة الاستعدادات في إحدى قاعات البيت الأبيض بواشنطن جاهزةً لاحتضان المفاوضات المباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين برعاية أمريكية، يرافقها «مأدبة إفطار» أقامتها ما تسمى قيادة المنطقة الوسطى الصهيونية لكبار المسؤولين الأمنيين في السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية، كانت كتائب عز الدين القسام الذراع العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس قد أعدَّت مأدبة لكنها مختلفة تماماً عن الأولى والثانية.

فقد أعدَّت مجموعة مسلحة صغيرة من حماس كميناً مُحْكَماً لسيارة صهيونية على أحد الطرقات التي يستخدمها المستوطنون قرب مدينة الخليل؛ فأطلقت باتجاههم النار فأرْدت جميع ركاب السيارة الأربعة قتلى، وعلى الرغم من خطورة المكان وانتشار قوات الأمن الصهيونية بكثرة في تلك المنطقة، إلا أن المسلحين نزلوا من سيارتهم وحاولوا اختطاف جثث القتلى لمبادلتهم لاحقاً بأسرى فلسطينيين إلا أنهم قرروا الانسحاب من الموقع في اللحظات الأخيرة.

وسارعت السلطة الفلسطينية إلى إدانة العملية، وتعهَّد سلام فياض رئيس وزراء الحكومة الفلسطينية في الضفة الغربية باتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بعدم تكرار العمليات، لكن كتائب القسام بعد أقل من ٢٤ ساعة نفذت عملية أخرى قرب رام الله، أصيب فيها مستوطنان بجروح خطيرة.

وقالت حركة حماس وذراعها العسكري: إن العمليتين تؤكدان على التمسك بالمقاومة كسبيل وحيد للتحرير واستعادة الحقوق وكنس الاحتلال، وأكدت على أن العملية جاءت على الرغم من الحملة الشرسة التي تشنها الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة في الضفة الغربية ضد المقاومة بشكل عام وعناصرها بشكل خاص منذ أكثر من عامين، وردَّت على تعهد فياض بقولها: «إن عملية رام الله أبلغ ردٍّ على الأبواق التي قالت: إن عملية الخليل لن تتكرر».

أما حركة (فتح) فقالت على لسان المتحدث باسمها (أحمد عساف): «تأتي العملية دعماً لموقف نتنياهو وإضعافاً للموقف الفلسطيني، وضرباً لإنجازات السلطة الوطنية في الضفة الغربية».

## مفاجأة:

قال الكاتب والمحلل السياسي صالح النعامي: (إنه على الرغم من أن المؤسَّسة الأمنيَّة الإسرائيليَّة قد أعطت انطباعاً بأن عملية الخليل أمر متوقع، وأنه كان لديها معطيات استخباريَّة تؤكِّد توجُّه حماس لتنفيذ مثل هذه العمليات، إلا أن كل المعطيات تؤكد أن هذه العملية – تحديداً – مثَّلت مفاجأة كبرى للقيادتَيْن السياسيَّة والأمنيَّة الصهيونيَّة، وأن نجاحها وما تبعها من عمليات قد جاء بعكس نقطة الافتراض الإسرائيليَّة القائلة: إن مجموعة الاحتياطات والإجراءات الأمنيَّة التي قام بها الجيشُ الإسرائيلي بالتعاون مع الأجهزة الأمنية التابعة لحكومة رام الله: كفيلةٌ بالحيلولة دون تنفيذ مثل هذه العمليات).

وأكد النعامي أن هذه العملية جاءت في ذروة حملات «تجفيف المنابع» التي تقوم بها أجهزة سلطة رام الله وإسرائيل؛ فالمخابرات الإسرائيلية الداخلية «الشاباك» تعكُفُ على اعتقال كلِّ مَن له علاقة بحركة حماس، ويستثمر «الشاباك» طاقاتٍ هائلةً في التحقيق مع المعتقلين لتحويل عمليات الاعتقال إلى لوائح اتِّهام، وفي حال فشل في ذلك يجري تحويل كثير من هؤلاء المعتقلين إلى الاعتقال الإداري، في حين تقوم السلطة بدورِها باعتقال قادة وعناصر حركة حماس.

وتؤكِّد منظمات حقوق الإنسان العاملة في الضفة الغربية أن المعتقلين يتعرَّضون لعمليات تعذيب وحشيَّة، بالإضافة إلى قيام أجهزة فياض الأمنية باستدعاء آلاف من عناصر حركة حماس وتهديدهم والتضييق عليهم، ناهيك عن محاربتِهم في أرزاقِهم؛ حيث يجري فصل كل من له أي علاقة بحماس من المؤسسات الرسمية في السلطة، وتحديداً في قِطاع التعليم وفي قِطاع الخدمات الدينية، ولم يقتصرْ دور أجهزة فيَّاض الأمنية فقط على إحباط عمليَّات المقاومة، بل انضمَّت هذه الأجهزة للجهود اليومية التي يقوم بها جيش الاحتلال لإيجاد بيئة أمنيَّة تقلِّص من إمكانية نجاح المقاومين في تنفيذ عمليات، وإذا أخذنا بعين الاعتبار القيود الهائلة التي تحدُّ من إمكانيَّات التسليح في الضفة الغربية والقدرة على الحصول على الوسائل القتاليَّة، فإن تنفيذ مثل هذه العمليَّات يبدو أمراً يتاخم المستحيل.

و بحسب النعامي فإن «عمليَّة الخليل البطولية تدلِّل بشكل لا يقبل التأويل على أن الإجراءات التي تقوم بها إسرائيل

وسلطة رام الله لمواجهة المقاومة لن تنجح في إخضاع الشعب الفلسطيني وإجباره على التعايش مع واقع الاحتلال».

كل ذلك ليس له أهمية في السياق الفلسطيني العام، إنما المهم أنه تم تنفيذ العملية بنجاح؛ حيث أسفرت عن مقتل أربعة مستوطنين من دون خسائر في المجموعة الفدائية. وعلى الرغم من أن عمليات المقاومة ضد الاحتلال يجب أن تكون هي الحال السائدة والطبيعية؛ إلا أن بعض (الإسرائيليين) لم يروا فيها مفاجأة، بعكس آخرين كُثُر تفاجؤوا بها.

ذلك أن السلطة في رام الله استطاعت أن تخلق انطباعاً بأنها (أنهت قصة المقاومة) في الضفة الغربية، وأن فصائل المقاومة في قطاع غزة نسيت (أو أُجبرت) على نسيان المقاومة ولم يبقَ لديها إلا المناكفات مع رام الله، وهو ما أفقد الناس الدافع والاستعداد للتضحية، إضافة إلى أن العملية جاءت بعد انقطاع طويل، أقل بقليل من عام على آخر عملية نفذتها المقاومة في الضفة الغربية بين مستوطنتَي شان شمرون وإيناف في الشمال؛ حيث قُتِل فيها مستوطن، في ديسمبر الماضي.

قال أبو عبيدة المتحدث باسم كتائب القسام: (تأتي العملية ضمن سلسلة عمليات ردّاً على جرائم الاحتلال في

الضفة الغربيـــة، وتأكيداً لحضور المقاومـــة على الرغم من حرب الاستئصال، وفي سياق اســـتكمال مشروعنا الجهادي في الضفة).

أما نتنياهو فكان ردُّ فعله أن طلب من قيادته العســـكرية الرد على العملية بالهجوم على غزة، وهو ما كشـــفه المراسل العسكري للقناة العاشرة التلفزيونية (الإسرائيلية). لكن قائد الجيش غابي أشـــكنازي ورئيس المخابرات (الشاباك) يوفال ديسكين رفضا ذلك قائلَين: إن الهجوم يضر بفكرة الفصل بين الضفة الغربية وقطاع غزة، فضلاً عن أنه يضر بالجهود التي تبذلها أجهزة الأمن الفلسطينية لإحباط عمليات (حماس).

وفي الصحافة (الإســـرائيلية) هناك من رأى في العملية دليـــلاً على أنه (لا تزال لدى حماس قـــدرة على المبادرة إلى عمليات مركَّبة نســـبياً، وفي مستوى تنفيذي عالٍ في الضفة، رغم الأعمال الوحشـــية لأجهزة الســـلطة ضد الحركة)، لكن (العملية لا تدل على اســـتئناف الهجوم الإجرامي في الضفة، (المقصود إشـــعال انتفاضة) مع أن الحديـــث عن ذلك يدور هناك منذ سنوات).

وشـــنت الســـلطة في رام الله حملة اعتقالات واسعة؛ إذ وصل عـــدد المعتقلين في اليومين التاليـــين للعملية إلى ٨٠٠ معتقل، وأكد محمود الرمحي نائب أمين سر المجلس التشريعي على أن ردة فعل السلطة الفلسطينية على العمليتين الأخيرتين سبقت ردة فعل إسرائيل، مشيراً إلى اعتقال أكثر من ٨٠٠ من مناصري التيار الإسلامي.

وأضـــاف أن حالات تعذيب عديدة سُـــجِّلت بعد عمليتي الخليـــل ورام الله بعد مدة من تراجع التعذيب، مشـــيراً إلى «تجرُّؤ السلطة على شـــخصيات لم تتجرأ عليها في السابق، وكأن رسالتها أن الكل مستهدف».

وأوضح نائب أمين سر المجلس التشريعي أن اعتقالات السلطة تتركز منذ ثلاث ســـنوات على الأهداف نفسها «وهو ما يدلل على اســـتنفاد سلة الأهـداف»، معـرباً عن أســـفه لوجود إجراءات مشـــتركة بين السلطة وإســـرائيل. وقال: «إنهما لا تستطيعان بالاعتقالات وقف العمليات، حســـب مـــا علَّمنا إياه تاريخ الصراع مع الاحتلال».

وهناك من رأى أن حركة حماس ســـجلت أكثر من هدف في أكثر من مرمى؛ من حيث إظهار قدرتها، وامتلاكُها الإمكانيات على استئناف العمليات العسكرية من مناطق يسيطر عليها خصومها.

### خيار المقاومة هو الذي يجب أن يبقي:

أكد الكاتب والمحلل السياســـي د. حسام عدوان على أن عمليات القســـام بالضفـــة تدلِّل على أن يد المقاومـــة قادرة فـــي كل وقت وزمان علـــى النهوض والوصول إلى المربعات الأمنية التي تُعَدُّ أكثر تحصيناً وتجهيزاً وأمناً؛ مهما بلغت محاولات «أجهزة ســـلطة فتح» لتفكيك المقاومة وإخفاء الوطنية الفلسطينية.

وقـــال عدوان: (كما أن العمليات وجَّهت رســـالة للمتفاوضـــين فـــي واشـــنطن مفادها: أن للشـــعب الفلسطيني حقوقاً حاول الحصول عليها على مدار ١٩ عاماً، ولكن حالة الابتزاز والاستقواء التي كانت تمارَس على المفاوض الفلســـطيني أدت إلى فشله وعجزه عن استرداد ولو جزء من حقوقه).

وأضاف: (وهي كذلك دليل على أن خيار المقاومة هـــو الذي يجـــب أن يبقي لا خيـــار المفاوضات، التي تُســـتخدَم ذريعة للاســـتيطان واقتلاعنـــا من أرضنا وتهويد مقدساتنا).

وتابع: «المقاومة حق للشعوب المحتلة؛ فمن حقه أن يقاوم في كل مكان مَن احتُلَّ وطُرِد من أرضه وانتُزِعَت حقوقه منه تحت تهديد الســـلاح؛ فالشعب لا يجب أن يضع للمقاومة سقفاً زمانياً ومكانياً»، مطالباً بأن يبقي العمل المقاوِم مفتوحاً في كل الجبهات، التي يوجد فيها الاحتلال من أجل تحقيق الانجازات لصالح الشـــعب الفلسطيني).

مجلة البيان

# مفكرة

١٤٣٢هـ ٢٠١١م

## جديدنا

## مفكرة البيان


الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦


Badr: 0508948947

# تسلُّط الأكثرية

إبراهيم الأزرق

**كثيرة تلك الأنباء التي تقول: تقوم جريدة (كذا الغربية)، بطرح قضية التصويت التالية: (ثم تذكر قضية دينية خاصة بالمسلمين أو بهم وبغيرهم)، ومن أمثلة ذلك حظر المآذن في سويسرا، وحظر النقاب في غير دولة غربية، وحظر الحجاب في الأماكن الحكومية وذلك في أكثر من دولة، ومما لاحظتُه على الاستطلاعات المنشورة أن نسبة التصويت العليا أو الأكثرية المطلقة عادةً ما تكون مع حظر الحرية الدينية للأقلية الإسلامية في تلك الدول، هذا مع أن بعض الأفاضل ربما أدَّاهم نظرهم المستعجل المنفعل بالقضية إلى إرسال رابط التصويت الإلكتروني عبر البريد إلى عدد كبير ممن يحسنون برأيه الظن؛ طالباً للنجدة من أجل تغيير نتيجة التصويت، وربما أحرجوا الناس بدعوى أن إرسالها إلى آخرين أمانة في أعناقهم.**

وبصرف النظر عن أثر أمثال هذه النتائج؛ فإن القرارات المتخذة في تلك البلدان تنسجم مع اختيار الأغلبية، وعادة ما تتم بوسائل برلمانية ديمقراطية؛ فَمَنْع المآذن، ومَنْع النقاب في أكثر من دولة، ومَنْع الرموز الدينية، وأشد من ذلك مَنْع الحجاب الذي لا خلاف فيه بين المسلمين كتغطية المرأة شعرها، والإذن في السخرية بالأنبياء، كل ذلك صادقت عليه مجالس تشريعية منتخبة، أو أقرَّته حكومات ديمقراطية منفِّذة لمرادات منتخبيها.

وهذه المشكلة (أعني تسلُّط الأكثرية) لاحظها دعاة الديمقراطية وأنصارها من كبار مفكري اللبراليين قديماً وحذَّروا منها، بَيْدَ أنهم مارسوها ونصروها؛ ولهذا وغيره استبعد أساطين الفلسفة الإغريقية – وهم أكثر ذكاءً وأثقب نظراً من متأخري الفلاسفة الغربيين – الذين كتبوا في الحكومة من أمثال أرسطوطاليس وأستاذه أفلاطون، استبعدوا أن تكون الديمقراطية هي النظام الأمثل للحكم بإطلاق؛ لكن في بعض الحالات، وفي بعضها الآخر قد تكون الدكتاتورية هي الأمثل، وفي حالات أخرى كثيرة اقترحوا نُظُماً أخرى معروفة لدى دارسي السياسة لم يكن بطبيعة الحال من ضمنها النظام السياسي في الإسلام الذي بحثه علماء الشريعة قديماً في السياسة الشرعية، وبحثه المعاصرون حديثاً في مؤلفات مستقلة لم يكن آخرها: (النظام السياسي في الإسلام) لستة من الدكاترة في جامعة سعودية.

وقد لاحظ كثير من منظِّري الديمقراطية من الغربيين إشكالية تسلُّط الأكثرية بعد أن أصبحت الديمقراطية التمثيلية واقعاً معاشاً في الدول الغربية، منهم جون ستيوارت ميل الذي تحدث عن طغيان الأكثرية في كتابه: (عن الحرية)، فذكر أن رجال الفكر – وهو يعني الفكر اللبرالي الغربي – يرون أن المجتمع حين يكون نفسُه هو الطاغيةَ (أي حين يكون المجتمع بجملته ضد الفرد)؛ فإن ذلك يعني أن أساليب طغيانه لا تنحصر في الإجراءات التي يمكن أن ينفِّذها عن طريق موظفيه السياسيين؛ إن المجتمع قادر على إصدار الأوامر وعلى تنفيذها بنفسه؛ فإذا أصدر أوامر خاطئة أو أصدر أوامر في شؤون يجب ألاَّ يتدخل فيها، فإنه يمارس بذلك طغياناً اجتماعياً هو أشد عتواً من كثير من ألوان الاضطهاد السياسي؛ لأنه وإن لم تدعمه عادةً عقوبات شديدة، فإن وسائل النجاة التي يتركها قليلة، وهو يَنْفُذ إلى الصميم في كثير من نواحي الحياة، ويستعبد الروحَ ذاتَها؛ لهذا كان الاحتماء من طغيان الحكام غيرَ كافٍ عنده، وكان لا بد من حماية ضد طغيان الآراء والمشاعر الشائعة.

ووَفْقَاً لرأي ستيوارت ومثله كثير من المفكرين اللبراليين، (فإن الغاية الوحيدة التي يمكن ممارسة القوة فيها بشكل شرعي على أي عضو في المجتمع المتحضر ضد إرادته، هي مَنْعُه من إلحاق الأذى بالآخرين... ولا يمكن إجباره بشكل شرعي على أن يفعل أو أن يتحمل أو يتسامح إزاء أمر لأنه أفضل بالنسبة له، أو لأن ذلك سيجعله أكثر سعادة، أو لأن ذلك سيكون – بحسب آراء الآخرين – حكيماً أو صحيحاً، بل هذه أسباب وجيهة لمجادلته أو النقاش معه أو إقناعه أو التوسل إليه؛ لكن ليست لإجباره).

وهذا المعنى أكده كثيراً في كتابه المذكور، كما ردد معنىً آخر يؤكد هذا؛ وهو أن الأفعال التي تؤذي فاعلها بشكل مباشر ولا تؤذي غيره، لا ينبغي أن تُمنَع قانونياً، ومثَّل لذلك بأشياء ليس بأعجبها الإذن في بيع السموم القاتلة (التي قد يستفاد منها على نطاق محدود) شريطة التوعية بمضارها.

وهو في نظرته هذه مقارب لعصيره هربرت اسبنسر الفيلسوف الفكتوري الشهير، وقد تأثر هذان في هذه الرؤية بفلاسفة قبلهما من أمثال جوزيف بريستلي وإرن يوشيا، وقال بما قال هؤلاء جمٌّ غفير من رموز الثقافة الغربية: كاللورد أكتون، والكسندر هملتون والفرنسي ألكسس دي توكوفيل، ولولا أن المقالة لا تحتمل البسط لنقلتُ نصوصهم بخصوص موضوعنا، ومذاهبهم معروفة عند المعنيين بها. وما يعنينا هنا هو الجواب الذي ذكره ستيوارت ميل على المسألة الجدلية: لماذا كانت هذه الديكتاتورية أخطر من الديكتاتورية الفردية؟ وحاصله أن الفرد الديكتاتور الذي يفرض سلطته على المجتمع قد يفرض دكتاتوريته على من تنالهم يده وعساكره، ومهما كانوا فَهُم قِلَّة كما يقول الفرنسي ألكسس. أما ديكتاتورية الأكثرية فيصعب أن يفلت منها أحد من الأقلية؛ لصرامة الرقابة وشدة القناعة بها، بل التعصب لها، ولهذا كان قَمْع الثورة الفرنسية الديمقراطية لمخالفيها شديدَ الوحشية، وحسبك شعارها المقزز: (اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس) وبعض ممارساتها كانت أشد تقزيزاً من الشعار.

وهذا الذي قرره ستيوارت مكرر عند أولئك الفلاسفة؛ فألكسس توكوفيل عندما عاد معجباً بالديمقراطية الأمريكية والمساواة السياسية، مع انبهاره لم يستطع أن يلغي عقله فيخفي تخوُّفه من استبداد الأكثرية، وقد نشر ذلك في ملاحظات اشتهرت بـ (الديمقراطية في أمريكا)، وقال كلاماً قريباً من كلام ستيوارت المشار إليه، وسجَّل ملاحظته الآتية على الحال الأمريكية، ولك أن تقارنها بالحال الفرنسية. قال: (إن أمريكا استطاعت أن تبيد العِرق الهندي من غير أن تنتهك مبدأً عظيماً واحداً من مبادئ الأخلاق في نظر العالَم)؛ يريد العالَم المتحضر في فهمه.

وعلى نطاق أقل خطراً يبيِّن لك خطر ديكتاتورية الأكثرية من جهة صرامة الرقابة. إذا تأمَّلتَ أحوال بعض مَنْ خُطِف منه ابنه في الغرب؛ لأنه أدَّبه أو تركه في المنزل وذهب ليقضي شأناً مهماً، أو تأمَّلتَ حال مسلمة رُفِعَت عليها قضية لأنها ارتَدَت الحجاب أو أظهرت رمزاً دينياً، أقول: إذا تأمَّلتَ أمثال هذه القضايا – وما أكثرها – وجدت أن من أسباب ذلك احتسابَ الأكثرية في المجتمع الغربي؛ من أجل حماية ما يرونه نظاماً وتراه الأقلية تحكُّماً وتدخُّلاً في شؤونهم الخاصة.

وإذا كانت مصادرة بعض الأملاك طغياناً يقوم به بعض المستبدين في بلدانهم إذا رأوا شيئاً أعجبهم، فإن هذا الطغيان يظل محدوداً جداً في كَمِّه ونوعه إذا ما قورن بطغيان الأكثرية التي يسهم مجتمعها كله في مصادرة فلذات الأكباد لمجرد اختلافٍ في وجهات النظر التربوية، ولعله نمى إلى علمك شيء من أخبار من صودر أولادهم؛ لأسباب هي في اعتقادنا تافهة إن لم تكن المصادرة خاطئة.

وحتى لا يُفهَم أن ملاحظة شناعة تسلط الأكثرية إنما سجَّلها اللبراليون الكلاسيكيون أو اللبرتاريون الأوائل، فإني أذكر كذلك أن غير واحد من ذوي الميول الاشتراكية قد أقر بالمبدأ العام؛ وهو أن طغيان الأكثرية قد يكون في بعض الأحيان ذا نتائج كارثية تفوق استبداد النظم السلطوية، وممن أشار إلى هذا

جوزيف شـــومبيتر في كتابه الشـــهير: (الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطيـــة) الذي انتصر فيه للاشـــتراكية انتصاراً وديعاً، ويبقى الأمـــر المهم الذي ينبغي أن نعيه: هو أن أشـــهر مفكري العقد الاجتماعي من أمثال جون لوك، وجان جاك روســـو ومَنْ تبعهمـــا يؤكدون على قضية الحرية، ويرون أن من وظيفة الدولة حماية الحرية ليستقيم العقد الاجتماعي.

وقد حاول كثير من الفلاســـفة المذكورين معالجة إشـــكالية طغيـان الأكثرية هـذه بعـد أن قـرروا خطرها، بتقديـس قضية الحرية واحتـــرام حدوها ودعوا لوجوب الوقوف عندها، ثم وقع الاختلاف بينهم في ترســـيم تلك الحدود، والقَدْر المخوَّل للدولة التدخل فيه، وفي تفســـير مفاهيم أساســـية ينبنـــي عليها فَهْمُ إذا كـان التشـــريع الفلاني يُنقِص من الحريـــات التي يجب أن تُكفَل أم لا؟ كمعيار الأذى المتعدي للغير – مثلاً – في تشـــريعات متناقضـــة قد تختلف في الدولة الواحدة من مقاطعة إلى أخرى اختلافاً عجيباً. وليست فرنسا التي تحظر النقاب اليوم، وتمنع تغطية الرأس في الأماكـــن الحكومية العامة، وتجرِّم التعدد، إلا نموذجاً واقعياً حيّاً بشـــعاً يمثل لك ديكتاتورية الأكثرية وإخفاق الديمقراطيـــة الغربية في علاجها، كما أنها تبيِّن من جهة أخرى درجـــة التباين في الأهواء البشـــرية والآراء الأرضية إذا قارنتَ الموقف الفرنسي بالتصريحات الرئاسية الألمانية المخالفة، بل إذا حاكمـــت قرارها هذا لمبادئها التي قامت عليها، وليس ذلك ببدَع من تناقضاتها.

فمع أن فرنســـا يتبنى دســـتورها إعـلان حقـوق الإنســـان والمواطن، وهـــو الوثيقة الحقوقية الأساســـية المعرِّفة بالحقوق الفردية والجماعية، تبنَّتها فرنسا إبَّان الثورة الدموية الفرنسية؛ فقد سحلت آلياتها القليلة (الكثيرة جداً) المتغلِّبَ عليها بمن فيهم الملك لويس الســـادس عشر وزوجته النمساوية ماري أنطوانيت، ولم ينجُ من مقصلتها حتى العلماء التجريبيون من أمثال أنطوان لافوازيـــي فضلاً عن قتل ثلاثمائة ألف إلى نصف مليون (رجعي ضد الحرية) في فنديه بطرق وحشـــية، لا تَقِل في نظري عن وحشـــية المستشـــار المنتخب ديمقراطياً الذي جاءت به صناديق الاقتراع في ألمانيا: أدولف هتلر.

وبالمناســـبة فإن هذا الرجل قال عن تصرفاته العنيفة أعظم فلاسفة ألمانيا وأشـــهر مفكري الوجودية مارتن هايدجر: (على ألمانيـــا الآن أن تحبـــط خطر هبوط الظلام علـــى العالم خارج حدود ألمانيا التي تحامي عن أســـمى إمكانات الكائن البشـــري كما جسَّدها الإغريق... فألمانيا بطاقتها الروحية الجديدة التي انتعشت في ظل الحكم النازي باتت قادرة أخيراً على الاضطلاع برسالتها التاريخية في إنقاذ العالم من الفناء على أيدي جماهير غير مكترثة في أمكنة أخرى؛ ولا ســـيما فـــي الولايات المتحدة وروسيا).

وعلى الرغم من اســـتهجان فلاسفة أمريكا ومثقفيها لموقف هايدجر هذا فإنَّا لا نزال نســـمع بين فينة وأُخرى كلمات مقاربة لكلماته من شخصيات مرموقة؛ لكن في تسويغ تدخُّلات أمريكا الديمقراطية الدموية في مناطق شـــتى، بل في تسويغ تدخُّلات إسرائيل من أجل الاعتداء على (الحرية) في عُرْض البحر.

ومـــن التناقضات أيضاً أنه لم تمنع بريطانيا فلســـفةُ جون ســـتيوارت ميل قديماً من البطش بالهنود الآسيويين في أرضهم المحتلة وكذلك الصينيين، بل من التناقضات التي ينبغي الاعتبار بها كذلك أن ستيوارت اللبرتاري كتب في تلك الحقبة يدافع عن بريطانيا التي كانت تخالفها أوروبا في سياستها القمعية؛ فحث (في مقالته الكلاســـيكية عن التدخل الإنســـاني) بريطانيا على غـــزو مزيد من مناطق الهند لتحقيق ســـيطرة أكبر على مناطق إنتـــاج الأفيون اللازم لفتح الأســـواق الصينية بالقوة وتســـديد نفقات الإمبراطورية، وقال: إن على بريطانيا أن تسلك ذلك؛ ولو نالها قَدْح وذمٌّ من الأوروبيين الرجعيين.

وليس ســـتيوارت بـــأوَّل متناقض؛ فجون لـــوك الذي أفنى الأقلام يرد على توماس هوبز تارة، ويكتب عن الحرية والتسامح أخرى، كانت له أسهمه في أكبر شركة اتجار بالرقيق، وكثير من الناس يعرف رسالته في التسامح ورسالتيه في الحكومة ويشيد بما فيهما من مبادئ الحرية والمســـاواة؛ لكنَّ ما يجهلونه أن هذا الرجل هو نفسه السكرتير الخاص لأنطوني أشلي كوبر، وشريكه في وضع أحد أســـوأ الأنظمة السلطوية الإقطاعية في كارولينا يوم كانت في قبضة الإنجليز، وهو الأمر الذي حدا ببعضهم إلى وصفه بالنفاق.

وتناقضُ هؤلاء لا ينتهي... واليوم لم يمنع فرنســـا دستورُها ولا تلك الوثيقة التي جعلت الحريات حقوقاً مكفولة لا حدَّ فيها (لحقوق الإنســـان الأول غير حقوق الإنسان الثاني) بنصِّهم، لم

يمنعهـــا اليوم من تحجير ما يراه ملهمو الثورة ومن اقتفى أثرهم حريات؛ فالحد من تعدد الزوجات حتى في نظر ســـتيوارت تعدٍّ على الحريات، فضلاً عن روسو الذي يُعَد ملهِم الثورة، وقد كانت له رؤيته المغايرة تماماً لِـمَا تبنَّته الثورة في قضية المرأة.

وكذلك الشأن في النقاب، وتغطية الرأس؛ والشعائر الدينية والحريات الشخصية التي تحاربها فرنسا اليوم بدعوى المساواة، تلك الدعوة السخيفة في مضمار اللباس، يريدون أن يقيدوا بها حرية اللباس، وحرية الممارســـة الدينية، والحجة المساواة؛ يعني إذا كنت في باريس ومر بك الطريق على حدائق بولونيا فأبصرت العراة كيـــوم وُلِدوا، فخذ الأمر بســـهولة (take it easy) كما يقول الإنجليز؛ فتلك هي الحريـــة. أما إذا كان الجو بارداً على شرقيٍّ مثلك تتدفق في عروقه الدماء الحارة فضربْتَ اللثمة، أو لبست ما تقي به وجهك تيارَ الهواء أو سَتَرته بشيء مما تُستَر به الرؤوس وكانت بجوارك زوجك المنتقبة – وفي رواية محلَّ دراسة المختمـــرة – فلا تأمن أن تمر ســـيارة هيئة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف الفرنسية متفادية أجســـاد العراة (الذين احتسبوا بالتبليـــغ عنكما حفظاً لقانون الأكثرية طبعـــاً) ويتجاوزوك أنت أيضاً ليقولوا لزوجك: اكشـــفي أو فُكِّي الخمار؛ هذا إن سلمتما من الاعتقال.

**وبَعْدُ أخي الكريم!**

أنـــا لا أُلقِي باللائمة على النظم الديمقـراطية المكرِّســـة لديكتاتوريـــة الأكثرية، المبدِّدة لأوهام الحريـــة، على الرغم من رســـالة المنظِّر جون لوك في التســـامح الديني، وعلى الرغم من أطنان الأوراق المســـوَّدة في محاولةِ معالجـــةِ هذه المعضلة التي أفرزتها الديمقراطية؛ لا لأن (نقد التســـامح الخالص) الصادر عام ١٩٦٥م لثلاثة من كبار الفلاســـفة وهم: روبرت بول فولف وهربرت ماركوزه وبارنجتون مور، لا لأنه كان مقنعاً في الرد على أمثال لوك وســـتيوارت، ولا لحجيـــة الكتابات الغربية التي ردَّت على فلاســـفة الفوضوية؛ بل لأني أعلم أنه لا حل لتلك المعضلة في ظل أنظمة خالفت شرائع السماء وبَنَت نظرتها للإنسان على ترَّهاتٍ وأهـــواءَ وأوهام، لم تعرف لِمَ خُلِـــق؟ ولماذا أتى كل هذا الوجود؟ وادِّعاء بعضهم المعرفة، لو اختبرتَه لوجدته هو نفســـه إعلان الجهل المركَّب.

والتناقـــض عند أولئـــك في التشـــريعات التفصيلية بدهي طبعي؛ لاختـــلاف الأذواق والأهواء والمشـــاعر والميول، والرؤى والآراء والأفكار والعقـــول، ولا حدود تضبط ذلك، ومن عجائب النفس البشـــرية أنه قد يؤذي أحدَهم هدفٌ يدخل في شـــباك فريقـــه وقد يموت من جرائه مشـــجع حزناً، بينما يرقص فرحاً مشـــجع الفريق الثانـــي، أحياه الـذي قتل أخاه. وتلك ســـجية البشـــرية التي لم تعتصم بعاصم أو معصـــوم؛ بل التناقض في مواقـــف الفرد الواحد – ولو كان منظِّراً كبيراً كلوك أو رســـو أو ستيوارت – طبعي متوقَّع؛ ولماذا لا يتخبط في الظلام ذكي يسير بغير نور ولا هدى ولا كتاب منير؟

بَيْدَ أني أحذِّرك – يا عبد الله – من المســـلمين الذين غفلوا عن الـــذي من أجله خُلِقُـــوا، وقادتْهم عقولهم إلـــى أنَّ الحرية المقدسة قد تتحقَّق بنظام استعباد الأقلية وإخضاعها لتشريعات الأكثرية؛ فنظريتهم دائرة بين الاستعباد وعبادة الذات، ومع ذلك يعتقدون فيها الخلاص مـــن الديكتاتورية كاعتقاد النصارى في نزول المخلِّص المزعوم، وهؤلاء خير من الذين أرســـلوها إرسالاً بدعوى حماية الأقلية؛ فشـــريعتهم هي الحريـــة، وبينهما يتردد مكرِّسو الاستبداد للإمام المعصوم أو المشؤوم.

وعلـــى قارعة الطريـــق طائفة تدعو إلى ما تســـميه حرية محكومة بدولة إســـلامية ناظرة قاضية في تشـــريعات الأكثرية وتُصِر على تســـمية هذه حريـــةً وديمقراطيةً؛ بينما تراها الأمم صاحبة الديمقراطية أســـوأَ حالاً من بعض النظم الاستبدادية القمعية التي تُصِرُّ على وصف نفســـها بأنها نزيهة ديمقراطية. وليتهـــم اعتبروا بإيران التي كان تقييمهـــا من قِبَل جهات دولية مرموقة: أنها معنيَّة بالحقوق المدنية والسياســـية؛ وهي الأسوأ بين عدد من الدول المَلَكية والنُّظم الرئاســـية الاستبدادية في المنطقة؛ ولو سَـــمُّوا الأمور بأســـمها ودعوا إلـــى توليتها أهلها لـــكان خيراً لهم من افتعال المشـــكلات الجانبية مع من أعلنوها إسلامية، ولم يروا في سوى الاستســـلام والعبودية لرب البرية مخرجاً للإنســـانية من العبودية للآراء البشـــرية: ﴿**قُـــلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـــوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلا نُشْـــرِكَ بِهِ شَـــيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْـــهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وستبدي لأولئك جميعاً الأيام عاقبة الإعراض عن مقررات حَمَلَة الشريعة الأعلام.

وإلى ذلك الحين لا بأس في أن تدافِع بمنطق القوم باطلَهم، وأن تحتجَّ عليهم بقول دهاقنتهم، دون أن تستهويك تلك الأقوال؛ فتحيدَ بها عن جادَّة الكتاب والسُّـــنة؛ فربك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

**وختامـــاً أخي اللبيب!** اعلم بأن الجيفة لا يسعَد بها سَوِيٌّ، وقد يأكلها اضطراراً آدمي؛ فإن اضطر وتعددت الجيف فليوازن بينها؛ لكن أن يدعو لها أهله وعنده الحلال الطيب، فذلك ضرب من اللؤم يمارســـه اليوم أصحاب اتجاهات شـــتى، عصمك الله منهم.

# الدراما والعبث بالتاريخ

د. خالد الغيث(*)

**مدخل:**

أُعلِن في بعض المنابر الإعلامية، عن عزم المجموعة التي أنتجت مسلسل القعقاع بن عمرو، على إنتاج مسلسل آخر في رمضان القادم، عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وقد ظهرت الأخطاء في هذا المشروع، منذ اللحظة الأُولى التي أُعلِن فيها رسمياً عن فكرته، وقد تمثَّل ذلك في صورة إعلان المسلسل، تلك الصورة التي أظهرت يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو قابض على الدرة. وهذه صورة رمزية سلبية، توحي للمشاهد أن الدرة، هي لغة الفاروق - رضي الله عنه - التي يتخاطب بها مع الآخرين!

ولا أريد استباق الأحداث، أو تغليب إساءة الظن، لكن ها هنا عدة أسئلة مشروعة، منها:

هل سيتم العبث بتاريخ الأمة في مسلسل الفاروق - رضي الله عنه - كما حصل في مسلسل القعقاع بن عمرو؟

وهل سيجري اختيار أهل الاختصاص للإشراف على المسلسل؟

وهل سيجري تشكيل لجنة ميدانية تشرف على المسلسل، حتى لا يحصل، ما حصل مع لجنة مسلسل القعقاع بن عمرو، التي حسبت أن إشرافها المكتبي على المسلسل، يبرئ ذمتها أمام الله، سبحانه وتعالى؟

وهل سيجامل منتجو المسلسل، واللجنة الموقرة النظامَ الإيراني على حساب هوية الأمة، وتاريخها؛ لا سيما أن خلافة عمر - رضي الله عنه - قد شهدت فتح فارس، وسقوط الدولة الساسانية؟

وحتى لا يتكرر ما حصل في مسلسل القعقاع، فإنني أضع بين يدي القائمين على المسلسل هذه الدراسة المختصرة.

(*) عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية.

## مسلسل القعقاع بن عمرو:

**لقد كثر الحديث عن مسلسل القعقاع بن عمرو التميمي، سلباً وإيجاباً في شهر رمضان المبارك؛ وهو ما دعاني - بحكم التخصص - لمشاهدة جميع حلقات المسلسل - وهي (٣٢ حلقة) - للحكم عليه، مع ما لشهر رمضان من الخصوصية، ولكن للضرورة حكمها. هذا وقد وقفت على جملة من الأخطاء في مسلسل القعقاع، تطلبت مني إصدار دراسة علمية بخصوصه، نصحاً للأمة، وفي ما يلي بيان بعض من أخطاء مسلسل القعقاع:**

### القسم الأول:
### المخالفات الشرعية العامة:

أولاً: تمثيل شخص أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بجوار والدها الصديق - رضي الله عنه - وهو يحتضر على فراشه، وحديثها معه في الحلقتين (٩ - ١٠).

وكذلك إظهار من يمثل شخوص الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - في جميع حلقات المسلسل.

ثانياً: ظهور أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - والخلفاء الراشدين، بسمت، وهيئة، وحال، من بنات أفكار المخرج، وهذا يُعَدُّ رجماً بالغيب، والله - تعالى - يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

ثالثاً: عندما خلت المدينة من الجند، بعد خروج بَعْث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - إلى الشام، وترصُّد الأعراب، خارج المدينة بالمسلمين، يأتي المشهد داخل المدينة ليُظهِر حواراً بين رجلين، عن خطورة الوضع؛ حيث يقول أحدهما مطمئناً الآخر: (الأقدار تساندنا) في الحلقة (٥).

رابعاً: وجود العنصر النسائي في المسلسل، بهيئة، وسَمْت، بعيدين كل البعد عن حال المرأة المسلمة، في عصر الرسالة، وعصر الخلفاء الراشدين.

خامساً: وجود الموسيقى في المسلسل، مع أن البديل الصوتي، أثبت نجاحه في كثير من الأعمال.

سادساً: أَكْل بعض الممثلين باليد اليسرى، وكأن المسلسل يحكي سيرة شخصية أوروبية، أو أمريكية، وليس سيرة عَلَم من أعلام المسلمين.

### القسم الثاني:
### البُعْد الفارسي الرافضي في المسلسل:

أولاً: عندما قرأ الراوي خطبة حجة الوداع، وذكر تحذير رسول الله ﷺ، أمته من الربا، تجاهل الراوي تصريح رسول الله ﷺ بوضع رِبا عمه العباس، في الجاهلية، في الحلقة (٢).

مع أن رسول الله ﷺ قد نص على وضع رِبا العباس؛ وذلك أنه ﷺ كان إذا أمر بأمر أو نهى بنهي كان أوَّلَ الممتثلين على خاصة نفسه وأهل بيته وعشيرته. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] هذا وجه، ووجه آخر لكي لا يستدرك عليه مستدرك، أو يقول قائل: وماذا عن رِبا عمك العباس؟

ثانياً: الإصرار على بتر حديث رسول الله ﷺ المتعلق بفضل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو قول رسول الله ﷺ لعلي - رضي الله عنه -: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، الحلقتان (١٧ - ٣١).

وفي هذا البتر المتعمَّد، محاولة قديمة متجددة، للتأسيس لعقيدة الوصي، كما تزعم الرافضة؛ أي أن علياً - رضي الله عنه - وصي رسول الله ﷺ وأحق الناس بخلافته.

في حين أن النص الكامل للشاهد في الحديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[1]، وهذا القيد، والتنبيه من رسول الله ﷺ بقوله: «إلا أنه لا نبي بعدي» جاء لحسم مادة الغلو بسيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث: (قال القاضي: هذا الحديث مما تعلَّقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقاً لعلي، وأنه وصَّى له بها. قال: ثم اختلف هؤلاء؛ فكفَّرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره، وزاد بعضهم فكفر علياً؛ لأنه لم يقم في طلب حقه بزعمهم. وهؤلاء أسخف مذهباً وأفسد عقلاً من أن يُردَّ قولهم أو يناظَر. وقال القاضي: ولا شك في كفر من قال هذا؛ لأن من كفَّر الأمة كلها والصدر الأول، فقد أبطل نقل الشريعة

(١) صحيح مسلم.

وهدم الإسلام)[1].

وعن شرح هذا الحديث يقول الإمام بدر الدين العيني – رحمه الله –: (ومعناه أنت متصل بي، ونازل مني منزلة هارون من موسى، وفيه تشبيه، ووجه التشبيه مبهَم، وبيَّنه بقوله: إلا أنه لا نبي بعدي. يعني أن اتصاله ليس من جهة النبوة، فبقي الاتصال من جهة الخلافة؛ لأنها تَلِي النبوة في المرتبة، ثم أنها: إما أن تكون في حياته أو بعد مماته. فخرج بعد مماته؛ لأن هارون مات قبل موسى – عليهما السلام – فتبيَّن أن يكون في حياته عند مسيره إلى غزوة تبوك؛ لأن هذا القول من النبي ﷺ كان مخرجه إلى غزوة تبوك، وقد خلَّف علياً على أهله وأمره بالإقامة فيهم)[2].

وعن هذا الحديث أيضاً يقول الإمام القرطبي – رحمه الله –: (فلا خلاف أن النبي ﷺ لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى – عليهما السلام – وما كان خليفة بعده، وإنما كان الخليفة يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» الخلافة، لقال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى؛ فلما لم يقل هذا، دل على أنه لم يُرِد هذا، وإنما أراد أنِّي استخلفتُك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة ربه)[3].

ثالثاً: التنقص من موقف الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة، في أثناء حوار القعقاع بن عمرو مع أسرته، في الحلقة (٢٧).

وعن بطلان هذا الزعم يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – عن سيدنا علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: (كان يقول ليالي صفِّين: يا حسن، يا حسن، ما ظنَّ أبوك أن الأمر يبلغ هذا، لله در مقام قامه سعد بن مالك [بن أبي وقاص]، وعبد الله بن عمر، إنْ كان بِراً، إنَّ أجره لعظيم، وإن كان إثماً إنَّ خطره ليسير... وتواتر عنه أنه ما كان يظن أن الأمر يبلغ ما بلغ، وكان الحسن من رأيه ترك القتال، وقد جاء النص الصحيح بتصويب الحسن؛ ففي البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فمدح الحسن، على الإصلاح بين الطائفتين. وسائر الأحاديث الصحيحة، تدل على أن القعود عن القتال، والإمساك عن الفتنة، كان أحب إلى الله ورسوله. هذا قول أئمة السُّنة، وأكثر أئمة الإسلام)[4].

رابعاً: تخصيص علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بلقب (الإمام) دون إخوته من الخلفاء الراشدين الذين سبقوه، الحلقة (٢٦).

وهذا القول يتضمن – لمن له أدنى دراية بدلالة المصطلحات – إنكاراً لشرعية خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، رضوان الله عليهم.

خامساً: إهمال دور ابن سبأ في الفتنة، الحلقة (٢٦).

مع أن شخصية ابن سبأ مُجمَع عليها في المصادر السُّنية والشيعية القديمة؛ وتعليل ذلك أن الحديث عن ابن سبأ يُعَدُّ خطّاً أحمر، في الخطاب الفارسي، والأطياف التي تدور في فلكه.

ومما يؤيد ذلك: أن الأخ الحبيب الشيخ حسن الحسيني – وفقه الله – منع من التصوير في أكثر من مكان يصل إليه التومان الإيراني، بسبب عدم انصياعه للخطوط الحمراء، التي فرض مثلها على مسلسل القعقاع بن عمرو[5].

سادساً: الانحناء لعلي – رضي الله عنه – انحناءً كاملاً من قِبَل اثنين من رجالاته، الحلقة (٢٧). وهذه عادة من عادات عبودية الفرس لأسيادهم الأكاسرة، وهي من الأمور التي نبذها الإسلام، وحذر منها.

سابعاً: عندما تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – حقناً لدماء المسلمين، أظهرت اللقطة وجه الممثل الذي يقوم بدور معاوية – رضي الله عنه – وقد ارتسمت عليه ملامح التشفي، والشماتة؛ جراء صنيع الحسن، رضي الله عنه. الحلقة (٣٢).

وهذه رسالة رمزية للنيل من معاوية – رضي الله عنه – تغني عن عشرات المؤلَّفات، والمحاضرات التي ألَّفها الرافضة للطعن في معاوية، رضي لله عنه[6].

(١) شرح صحيح مسلم: ١٥ / ١٧٤.
(٢) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري: ٢٤ / ٣٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١ / ٢٦٧.

(٤) ابن تيمية، منهاج السُّنة: ٨ / ٩٩.
(٥) للتوسع عن دور ابن سبأ انظر رسالة ماجستير بعنوان: (استشهاد عثمان – رضي الله عنه – ووقعة الجمل) لكاتب هذه السطور، وهي موجودة على الشبكة العنكبوتية.
(٦) حقيقة الأمر مبسوطة في رسالة دكتوراه بعنوان: (مرويات خلافة معاوية، رضي الله عنه)، وهي موجودة على الشبكة العنكبوتية.

**القسم الثالث:**

## التنقُّص من معاوية وعمرو بن العاص، رضي الله عنهما:

أولاً: إن الممثلَين اللذين قاما بدور الصحابيين الكريمين (معاوية، وعمرو بن العاص) - رضي الله عنهما - كانا أقرب سمتاً وهيئةً لقراصنة الكاريبي، أو زعماء المافيا. وليس إلى صحابيين كريمين تربيا وتخرجا من مدرسة رسول الله ﷺ، ولكن يبدو أن المخرج لا يفرِّق بين الدهاء من جهة، وبين الغدر والخيانة من جهة أخرى، وهذه بصمة فارسية جليَّة[1].

ثانياً: عدم ذكر اشتراك معاوية - رضي الله عنه - في قتل مسيلمة الكذاب عند الحديث عن رِدَّة بني حنيفة الحلقة (٧)، مع أن معاوية - رضي الله عنه - كان قد اشترك في قتل مسيلمة الكذاب، عندما اقتحم الصحابة - رضوان الله عليهم - حديقة الموت، التي يسميها بنو حنيفة، حديقة الرحمن.

ثالثاً: إظهار معاوية - رضي الله عنه - بالشخص المغرور المنعَّم المترَف الحريص على الدنيا، من خلال لبسه، ومشيته، ومجلسه، مع أنه - رضوان الله عليه - كان متأثراً بشخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما أنه كان أقرب إلى الزهد منه إلى الترف، وفي ذلك يقول التابعي الثقة يونس ابن ميسرة: (رأيت معاوية في سوق دمشق على بغلة له، وخلفه وصيف قد أردفه، عليه قميص مرقوع الجيب وهو يسير في أسواق دمشق)[2].

رابعاً: إظهار معاوية - رضي الله عنه - بمظهر الرعديد، الجبان، الذي طار قلبه، عند محاولة اغتياله، من قِبَل الخارجي البرك بن عبد الله، الحلقة (٣٠).

وهذه رسالة رافضية رمزية أخرى، هدفها الحط من منزلة معاوية - رضي الله عنه - ذلك الصحابي الكريم، الذي دوَّخ الأرمن والروم، قبل الخلافة وبعدها. إنه الرجل الذي أسس البحرية الإسلامية، وحاصر القسطنطينية عاصمة الروم. ولكن هذه الفرية ينطبق عليها المثل القائل: رمتني بدائها وانسلَّت.

(١) وللتوسع في شأن معاوية - رضي الله عنه - انظر رسالة الدكتوراه سابقة الذكر (مرويات خلافة معاوية، رضي الله عنه).
(٢) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق: ٢٥/ ٥٣.

**القسم الرابع:**

## التنقُّص من خالد بن الوليد، رضي الله عنه:

أولاً: التعريض بخالد بن الوليد - رضي الله عنه - عند مسيره من العراق إلى الشام، عبر بادية السماوة، وأنه عرَّض جيش المسلمين للتهلكة بسبب ندرة الماء في الطريق، الحلقة (٩).

وهذا افتراء على خالد - رضي الله عنه - حيث إنه طبَّق في مسيره من العراق إلى الشام عبر بادية السماوة، خطة في غاية الذكاء؛ ذلك أنه حول الإبل التي معه إلى خزانات للمياه، بعد أن أعطشها ثم جعلها تشرب الماء حتى تضلعت، فتحولت إلى خزانات وصهاريج ماء متنقلة... إلخ، وتفاصيل هذه الخطة المشهورة تجدها في المصادر التاريخية.

ثانياً: التعريض بخالد بن الوليد - رضي الله عنه - من جهة اتهامه بوضع السيف في أهل دمشق، وأن أبا عبيدة بِشِقِّ الأنفس أقنعه بالصفح عنهم، الحلقة (١١).

وهذه مغالطة؛ لأن قسماً من مدينة دمشق قاوم الجيش المسلم، وهو المواجه لجيش خالد بن الوليد، فقاتلهم - رضي الله عنه - والقسم الآخر استسلم لأبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - دون قتال. وهذا من الأمور المشهورة في فتح دمشق.

**القسم الخامس:**

## الأخطاء التاريخية العامة:

وتتراوح بين الأخطاء البدائية، والساذجة، التي أخرجها مُخرِج المسلسل من كيسه، مثل قول مسيلمة الكذاب عن نفسه: (من مسيلمة رسول الله إلى...) في حين أنه من المعلوم أن رسول الله ﷺ، هو الذي صغَّر اسم هذا الكذاب، لكن اسمه الذي يناديه به أنصاره هو (مسلمة الحنفي)، ثم أصبحوا ينادونه (مسلمة رسول الله) بعد ادعائه النبوة.

هذا وقد تركت بقية الأخطاء منعاً للإطالة، والله - تعالى - أعلى وأعلم.

# الثوابت والمتغيرات في تاريخ البلاد الإسلامية الاقتصادي

**عنوان الكتاب:** الثوابت والمتغيرات في التاريخ الاقتصادي للبلاد الإسلامية.

**المؤلف:** عادل عبد المهدي.

**الناشر:** الدار العربية للعلوم، بيروت، طبعة أُولَى، ٢٠٠٩م.

**عدد الصفحات:** ٤٦٠ صفحة.

هشام منور(*)
hichammunawar@gmail.com

تتسم الدراسات الاقتصادية العربية المتناولة للتراث بالبحث والسبر والتحليل - غالباً - باستعارة الأدوات والمفاهيم العلمية المستخدَمة في تلك البحوث: من حضارات ومجالات غريبة عن مواطن البحث؛ وهو ما قد يفضي إلى نتائج لا تنسجم مع المعطيات المبحوثة أو تصدير تقييمات بعيدة عن الحقيقة والواقع. ويحاول كتاب (الثوابت والمتغيرات في التاريخ الاقتصادي للبلاد الإسلامية) تقديم رؤية تحاول صياغة منهج بديل لذلك، بالاستعانة بأدوات ومفاهيم ورؤى تُعَدُّ من نتاج التجربة الداخلية للمجتمعات الإسلامية.

يناقش المؤلِّف عدة مفاهيم يعتبرها من الثوابت المكوِّنة لهوية الاقتصاد السياسي للمجتمعات العربية؛ فيرى أن البيئة والموقع الجغرافي يمثلان أحد تلك الثوابت؛ إذ تتميز منطقتنا بمناخ متوسطيٍّ مع صيف حارٍّ طويل عموماً وشتاء قصير نسبياً. كما أن إحاطة الجبال بالأراضي المنخفضة توفِّر للمنطقة أنهاراً لها أهميتها الخاصة: كالنيل، ودجلة، والفرات، ونهر الأردن. وهذه السمات منحت المنطقة وسكانَها طابع التوسط والاعتدال، في لون بشرتهم وسلوكهم وواجباتهم ورؤيتهم لواجباتهم وأنماط تفكيرهم. وإذا كانت الوديان هي مراكز المنطقة ومستقراتها، فإن الصحارى والبوادي شكَّلت مسارح الأقاليم وامتداداتها.

فالبادية أصل العمران، والأمصار مدد لها؛ كما يقول ابن خلدون؛ إذ دون أن يُعطَى سكان الواحات والبوادي مرتبة اقتصادية واجتماعية وخُلُقية وسياسية متقدمة وراقية، ستبدو الحواضر والمدن معزولة عن امتداداتها ومسارحها الطبيعية. وهذا ما يفسر أن المقصود بالعمران هو (العمران البدوي) و (العمران الحضري)، وكيف أن أرقى مراحل التاريخ الإسلامي وأكثرها عطاءً وازدهاراً قد تشكلت عندما اتحدت البداوة والحاضرة جغرافياً وسكانياً؛ لهذا يرى ابن خلدون أن (الجيل الأول في العمران الحضري هو أكثر الأجيال عطاءً؛ لأنه يحافظ على البداوة ويتعلم صنائع الحياة).

ومن الثوابت المطروحة: الظروف المحيطة؛ وتتمثل في كون المنطقة الإسلامية تقع وسط العالم وفي قلبه، وتعتبر المنطقة عقدة المواصلات الدولية بما يخدم التجارة والغزوات وانتقال الشعوب. لكنَّ ذلك لا يعني أنها أرادت أن تكون مجرد ممر أو جسر لكونها لم تكن تستطيع أن تلعب هذا الدور دون أن تكون قد أسست هي - أصلاً - دائرتها الداخلية التي اتسعت عبر الأجيال؛ فالفراعنة والفينيقيون والآشوريون وغيرهم طوَّروا التجارة ووسائط النقل البرية والمائية لحاجاتهم هم، كما أن بلاد الجزيرة العربية شهدت تطور الأسواق وطرق المواصلات التجارية.

وللتدليل على كون الدور العالمي الذي لعبته المنطقة هو

(*) كاتب وباحث.

بالأســـاس نتيجة ازدهار وتنامي الدور المحلي، نجد – مثلاً – شريعة حمورابي خصصت ١٢٠ مادة للتجارة ومعاملاتها، منها ٢٦ مادة للشـــركات ونقل البضائع والصيرفة وإيداع الأموال. وبنـــاءً على ذلك فإن المنطقة مـــا كان لها أن تلعب دور المركز العالمي والوسيط الدولي؛ لولا أنها سبقت ذلك بإقامة دائرتها الداخليـــة ونواتها الصلبة التي التفَّـــت حولها مكوِّنة كياناتها وهويتها الذاتيـــة؛ دون أن ننفي الدور اللاحق الذي لعبته بين الأمم والشعوب والحضارات في تطوير شخصيتها وتكوينها.

ثم ينتقل الكتاب لبحث رابطة الدم معتبراً إياها واحدة من الثوابت الاقتصادية؛ إذ يقسِّم علماء الاجتماع والأنثربولوجيا الجماعات الإنســـانية إلى جماعات تقوم على رابطة الإقليم أو على رابطة الدم والنســـب. وتـــرى معظم الأبحاث الغربية أن التشـــكيلات الأوروبية استطاعت مع نمو المُلْكية الفردية الرومانيـــة والجرمانيـــة تحطيم رابطة الـــدم، وأخذت تميز خـــط تطوُّرها عن خـــط تطوُّر بقية المجتمعـــات؛ وذلك بنمو الملكية الفردية وبتشـــكيل الجماعات من خـــلال الفرد على قاعـــدة الموقع والإقليم. إلا أن رابطة الدم بقيت أكثر اجتذاباً نظراً لطبيعتها العفوية والفطرية في المجتمعات الإســـلامية؛ فالعائلة والعشـــيرة والقبيلة هي الوحـــدات الاجتماعية التي وُجِد الإنسان ضمنها تلقائياً؛ فهي مثَّلت المفهوم الفطري الأول للجماعة والاجتماع.

لكن المشـــكلة من وجهة نظر المؤلِّـــف لا تكمن في إثبات قوة رابطة الدم وتشـــكيلها شرطاً مسبقاً للتنظيم الاجتماعي في تاريخ البلاد الإســـلامية، بل تعود إلى مغالاة بعضهم في الـــدور التاريخي لهذه الرابطة؛ إذ جعلـــوه المدخل الوحيد أو الأساسي؛ كما هو الحال في تفسير التاريخ الإسلامي استناداً إلى النظرية الخلدونية التـــي ترى العصبية بوصفها الرابطة الأساســـية التي ضمنها تتكون دوافع الحركـــة، أو من نظرة أخرى تغالي في رؤية هذا الثابت لتصل إلى استنتاجات تؤدي إلى تبرير الاستعمار، من خلال تفســـير التاريخ استناداً إلى (النظرية البنيانية) وبما أن القبيلة في أوروبا اعتُبِرَت مرحلة متخلفة، والمنطق الغربي يعمـــم خصوصيته؛ فلذلك اعتُبِرَت البنية الأساسية للمجتمعات الإسلامية بنية قَبَلية، رُبطَت بها صفة التخلف وصارت ذريعة للاستعمار.

ويرى المؤلف أن تشـــكيلات رابطة الدم ظلت تمثل شرطاً مســـبقاً وثابتاً: اقتصادياً وسياســـياً واجتماعياً وعســـكرياً وتنظيمياً.

فعلى الصعيد العسكري، شكلت العشيرة والقبيلة الوحدة الأساسية في التجنيد. وفي المجال الاقتصادي كانت القبيلة والعائلة وحـدات إنتاج وتوزيـع قادرة على ســـد الاحتياجات الذاتية و (تصديـــر) الفائض للجماعات الأخـــرى، والقيام بالتبـادل والبيـع والشـــراء وَفْـقَ مصالحها ومتطلباتها. وهو ما يفسِّر أن احتواء رابطة الدم لرابطة الإقليم في المجتمعات الإسلامية يعود في أحد أسبابه إلى أن مَواطِن العيش لم تكن تتوسع في المنطقة بشـــكل حلزوني، بل بالقفز من مكان إلى آخـــر؛ وهو ما جعل من رابطة الدم – كتنظيم فطري – يلعب دوراً في الإبقاء على وحدة الجماعة التي لم تســـتطع رابطة الإقليم الإبقاء عليها.

ويرى المؤلف أن النزعـــة القوية للجماعة في المجتمعات الإسلامية – سواء في ممارسة العقيدة والدين، أو في الحياة الاقتصادية والاجتماعية – تمثِّل ثابتاً آخر؛ فتلقائية المجتمع واســـتمراريته تضغطان في اتجـــاه الجماعة بعكس النـــزعة الفردية في البلدان الأوروبية التي تطوَّرت على أساس النزعة الفردية. فكانت (الثورة) تعني في أوروبا إحلال الملكية العامة باللجوء إلى دكتاتورية (الطبقة) أو (الدولة)؛ لتحطيم المُلْكية الخاصة وإحلال الاشـــتراكية التي فشلت أمام ضغط القوى العفوية والقديمة لعودة الفردية.

ويحـــاول المؤلف التدليـــل على هـــذه النزعة من خلال دراســـته لمؤسســـة الوقف؛ حيث تتخذ هذه المؤسسة أشكالاً معيَّنة في المجتمعات غير الإسلامية، لكنَّ شيوع الأوقاف بما يحمله من دلائل لنزعة الجماعة قد أصبح إحدى الممارسات المميِّزة للمجتمعات الإســـلامية؛ إذ لعب الوقف دور الأسلوب المقاوم لمنع طغيان الاســـتيلاء الفردي على الممتلكات العامة، وحماية الحق الخاص باللجوء إلى الحمايات العامة أو الدين.

وشـــاع اللجوء إلى الحبس أو الوقف انطلاقاً من العهد الأموي؛ فأُنشـــئ للأحباس ديوان مستقل عن بقية الدواوين، وبلغـــت ذروتها في العهـــد العثماني؛ إذ شـــكلت في مجال الأراضي الزراعية منتصف القرن التاســـع عشـــر ما يعادل ثلاثة أربـــاع أراضي تركيا، ونصف الأراضـــي المزروعة في الجزائر. إلا أنه جرى تحطيم الوقف مباشرة من قِبَل القوى التي اســـتعمرت هذه البلدان بعدد مـــن الذرائع، لتعبر عن مركزية أوروبية أساسها النزعة الفردية واستغلال المنطقة.

ومن الثوابت المطروحة أيضـــاً: نزعة التنظيم والانتظام في المجتمعات الإسلامية؛ فثمرة هذه النزعة يلخصها مفهوم الولاية بالحقوق والواجبات التـــي يمثلها، والمفاهيم الملازمة

لها كالخلافة والإمامة وما يعكسه كل ذلك من تنظيمات وبُنَى فكرية. فأساس الدولة تاريخياً في الغرب تطور من المُلكية الإلهية ثم المطلقة التي تعتبر الرعية عبيداً، إلى فكر التعاقد الاجتماعي كما عند جاك روسو، أو إلى علاقات اجتماعية بين قوى متناقضة متحدة تقوم على رابطة الإقليم والمواطنة.

وقد جرت دراسة مفهوم الدولة بهذا المفهوم كأداة مفاهيمية دون أن تغطي تجربة رابطة الدم التي لم تدمَّر لمصلحة رابطة الإقليم؛ حيث إن المفهوم الرئيس للإنسان تنظمه أساساً روابط العقيدة أو الولاء للجماعة (دينية أو قبلية) بغضِّ النظر عن الثروة والموقع الاجتماعي، ثم إن هذه الرؤية كانت عاجزة عن إدراك وجود تنظيمات بجانب الدولة قد تتقدم عليها، كمؤسسات الوقف وحقوقها أو تنظيمات القبائل.

أما العوامل الرئيسة التي تدفع باتجاه نزعة التنظيم والانتظام فهي عديدة، منها: أن الطبيعة الصحراوية وأوضاعها الصعبة تتطلب اللجوء إلى تنظيم دقيق بسبب ضيق مجالات العيش وضرورة التعاون للاشتراك في مصادر محدودة.

يؤكد المؤلف بالمقابل، على ندرة الدراسات التي اعتبرت نزعة الشرع والدين من أهم النزعات التي طبعت الحياة الاجتماعية والعقلية والمسلكية؛ ففي مجتمعات ما بين النهرين قبل الإسلام – على سبيل المثال – نجد قِدماً وتواصلاً في التاريخ التشريعي هو – بلا شك – من أكثرها تقدُّماً على الصعيد العالمي: كشريعة عشتار أو حمورابي؛ فالمنطقة كانت مهبط الديانات السماوية الثلاث التي انتشرت لتشمل قارات المعمورة دون استثناء، وهذه ليست مصادفة أو حقيقة عابرة. وارتباط الشرع الديني بالغيب والتجريد لا يجعله غير واقعي كما يقول أصحاب النظرية الوضعية؛ بل أكثر علمية وعقلانية وواقعية وإنسانية إذا تمَّت ملاحظة مواقع كلية وعامة وإنسانية؛ فالنزعة الوضعية تنطلق من زمن فردي آني ومن العفوية والغريزة مباشرة، في حين تنطلق نزعة الشرع من زمن جماعي طويل ممتد ومن العقل والحكمة.

ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى بحث المتغيرات، فيجد أنها تتمثل في العوامل التي تتكامل مع عوامل الاستمرارية التي تمثلها الثوابت، لتشكل: إما عناصر تأكيد وتعجيل لها أو عنصر عرقلة وصدام، وهي التي تتولد من عمل الثوابت والرغبة في إعادة صياغتها أو بسبب ظهور حقائق جديدة تتأتَّى من عامل خارجي بأوسع معانيه، وهو ما قد يعيد صياغة الثابت ويخل بالتوازن العام بينها ويعيد صياغة الوضع من جديد.

ويضرب مثالاً على ذلك بنزعة الشرع من حيث استنادُها إلى مصادر ثابتة كالقرآن الكريم والسُّنة الشريفة، ولكنها أخذت تواكب أيضاً التطور والتغيير من حيث الممارساتُ والاجتهاداتُ الشرعية التي فرضتها سنن الحياة المتشعبة المتجددة، أو ما تتعرض له نزعة رابطة الدم أحياناً من روابط تحاول الإحاطة بها وإخفاءها: كرابطة القومية والأقاليم.

من وجهة نظرنا، يمكن اعتبار الكتاب محاولة جادة لتأسيس مدخل جديد لدراسة تاريخ البلاد العربية والإسلامية من ناحية الاقتصاد السياسي؛ وذلك عبر محاولته دمج الأبعاد الثقافية والحضارية في حقل العلوم الاقتصادية، وليس كما تسلكه اليوم بعض الدراسات والأبحاث أثناء دراستها لتاريخ المنطقة؛ إذ تنطلق من الأفكار الليبرالية في تفسيرها لطبيعة علاقات الإنتاج والتوزيع والتجارة؛ خاصة بعد فشل نظريتها عن (نمط الإنتاج الآسيوي) التي أظهرت – كما يرى إدوارد سعيد – ماركس بوصفه أستاذاً من أساتذة المستشرقين القدامى؛ وهو الأمر الذي بدأ يتجلى في دراسات بعض الباحثين العرب ممن ينتمون إلى ما يمكن تسميته (الليبرالية الجهادية)، وهم الذين يرون أنه لا يمكن فهم دور (مكة) التاريخي إلا بوصفها تشبه إلى حد كبير هونغ كونغ.

كما أن الكتاب يحاول تصحيح مسار اتجاهٍ آخر يدعو بعضُ كتَّابه لتطبيق الرؤية الإسلامية في مجال الدراسات الاقتصادية. ولا تعكس هذه الدعوة (إرادة معرفة)، بل (إرادة أيديولوجيا) تسعى إلى تصفية حساباتها مع الآخر (الغربي) دون توضيح لأسس وثوابت رؤيتها؛ لتساهم في خلق مناخ من (سِحْر القول في الاقتصاد الإسلامي) الذي هو بحاجة ماسَّة الآن إلى تأسيسه لمدرسة تساهم في تمتين وتأصيل رؤاه الاقتصادية انطلاقاً من بُعْد إنساني؛ كون رسالة الإسلام في عمقها رسالة إنسانية، تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ وخاصة للواقع الذي تمر به جامعاتنا العربية التي وصل بها حد التسطيح الفكري والسذاجة إلى حد اعتبار الزكاة مجرد ضريبة دخل.

ويبقى أن يجري تعميق هذه الدراسات ورفدها بمزيد من الأبحاث التي تنهل من التاريخ الإسلامي دون أنْ تحاول تأطيره أو أدلجته، وأنْ تراكم المعرفة التي أسس لها الكتاب ومؤلِّفه، وأن يجري دعمها من قِبَل مؤسسات بحثية علمية تقارب المنهج الذي تبنَّاه الكتاب.

# الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

# الازدواج الفكري

عبد اللطيف بن بريك الثبيتي
nmnm15@gmail.com

هناك أمور كثيرة يُعتبَر التوسط فيها ضرباً من الخيال؛ فمثلاً لا يمكن الوقوف على مسافة واحدة بين الإيمان والإلحاد، فلا يمكنك أن تكون نصف مؤمن ونصف ملحد، أو أن تكون صادقاً كاذباً، أو تقياً فاجراً. هذه متناقضات تناقضَ الموت والحياة.

وينعدم اللون الرمادي في مثل هذه الأمور: فإما أن تختار الأبيض فتكون رافضاً للأسوَد، أو الأسوَد فتكون رافضاً للأبيض.

إنه لَضَرب من العبث أن تحاول الجمع بين الاثنين، تماماً كمن يستخدم القسمة ليحصل على ناتج الضرب، أو يعمل عمل أهل النار ويريد دخول الجنة.

لا يمكن أن تحمل الولاء لمبدأين متضادين فترة طويلة، وإذا حصل ذلك فأنت تخادع نفسك.

لا يمكن أن تكون مسلماً بما تعنيه كلمة مسلم، وليبرالياً بما تعنيه كلمة ليبرالي.

لا بد أنك تخادع في أحدهما؛ لأنهما ببساطة لا يجتمعان، والأسوأ أن تكون مخادعاً في كليهما.

إن اختيار مسارٍ بين المسارين في مثل هذه الأمور لا يَقِل سوءاً عن اختيار المسار السيئ، بل قد يكون أسوأ؛ فالمنافقون - مثلاً - في الدرك الأسفل من النار.

أحياناً لا يكون لدى المرء تناقضات أو تضادات أساسية لكن يكون لديه خَلْطٌ في ترتيب مبادئه؛ فيحدث خلل عند التطبيق؛ فكل فرد منَّا - على سبيل المثال - لديه عدة ولاءات: لدينه، ووطنه، وقبيلته، ونفسه... إلخ.

وإذا لم يكن لديه ترتيب لهذه الولاءات، فإنه يكون عُرضة لقرارات خاطئة، ولو كانت ولاءاته مرتبة لَمَا حدث لديه إشكال في التطبيق؛ فالولاء للدين - مثلاً - يجب أن يقدَّم ويكون حاكماً على ما سواه.

إذا تمكَّن المرء من ترتيب مبادئه والتخلُّص من أي ازدواج فيها، يكون قد خطا خطوة كبيرة في سبيل تحقيق الانسجام الفكري والنفسي لديه؛ والفرق شاسع بين بناء فكريٍّ منسجم، وآخَرَ ما هو إلا كومة من المبادئ والسياسات المتناقضة: الأول قوي يمكن لصاحبه الاعتماد عليه، والآخرُ ضعيف، وأي بناء عليه يعني ركاماً أكثر تعقيداً.

وبقدر انسجام مبادئ المرء تكون راحته النفسية، وتكون قوة طرحه.

وبقدر قبوله بالمتناقضات يكون اضطراره للتسطيح وتكون أعماله غير معبِّرة عمَّا يحمل أو يود أن يحمل من قيم.

لكل ذلك رتِّب مبادئك، وتخلَّص من أي ازدواج فيها، وتذكَّر أن أيَّ ازدواج في اتجاه الرؤيا يعني حَوَلاً في النظر، وأيَّ ازدواج في المبادئ يعني حَوَلاً في التفكير.

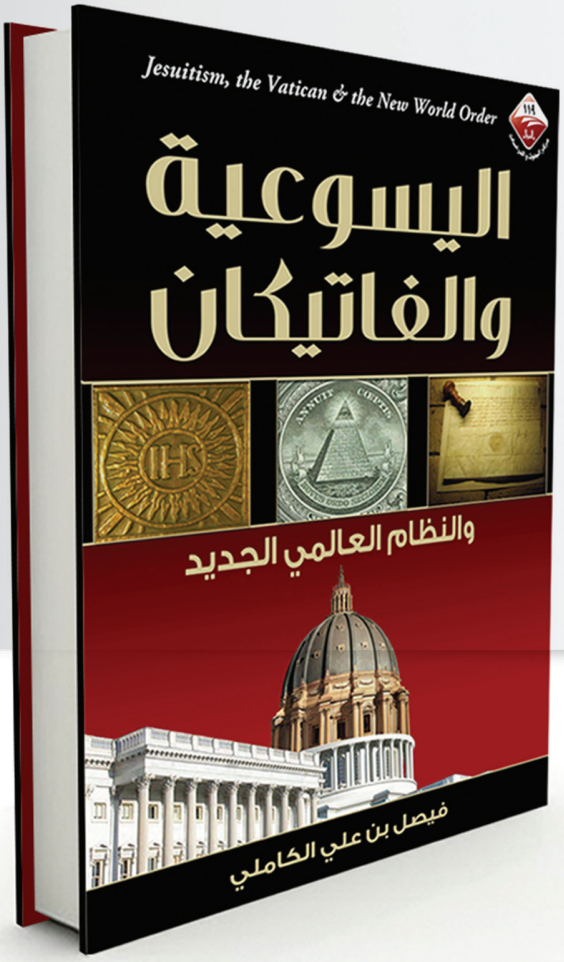


# اليسوعية والفاتيكان

## و النظام العالمي الجديد.

**جديدنا**

**اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !**

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن (( أصحاب الأيكة )) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

**وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب**

**(( اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!**

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

# أبو بطين...
## الفقه والاحتساب

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

لئن كان العلاَّمـــة عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين[1] (ت ١٢٨٢هـ) من علماء الدعوة السلفية (التي جددها الشيخ الإمام محمـــد بن عبد الوهاب)؛ إلا أنه يُعدُّ أنموذجاً فذّاً في ســـيرته وقضـائه وفقهـه، وجهـــوده العلميـة؛ فلا غـرو أن يلقَّـب آنذاك بـ «مفتي الديار النجدية»؛ فكان في الفروع «إذا سئُل عن مسألة واضحة لا تخفى على أدنـــى طَلَبَته تأنَّى في الجـواب حتى يظـن الجاهـــل أنه لا يعرفها، والحال أنه يعـــرف مَن نقلها، ومَن رجَّحها، ومَـــن ضعَّفها، ودليلَهـــا، وأما اطلاعه على خـــلاف الأئمة الأربعة وغيرهم من السلف والروايات والأقوال المذهبية فأمر عجيب»[2].

فمن مزاياه أنه ألَّف رســـالة في تجويد القرآن، وهذا يندر عند علمـــاء نجد في ذلك الوقت، ثم إنه في أصول الدين صاحبَ تقرير بديع، وردٍّ متين كما هو ظاهـــر في مؤلَّفاته وفتاويه. ومن ذلك: أن الذين يطلبون الشـــفاعة من الأموات، يقولون: إن النبي ﷺ أُعطِي الشـــفاعة، ونحن نطلبه ممن أعطاه إليه. فأجاب العلاَّمة أبو بطين عن هذه الشبهة قائلاً: «إطلاق القول بأن الله ملَّك المؤمنين الشفاعة خطأٌ؛ بل الشفاعة كلها لله وحدَه، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وأثبت - سبحانه - الشفاعة بإذنه، وأخبر النبيُّ ﷺ أن الأنبياء يشـــفعون، والصالحون يشـــفعون، وعلى هذا فمن أَذِن الله له في الشـــفاعة يصح أن يقال: إنه مَلَك ما أُذِن لـــه فيه، لا ما لـم يؤذن له فيه؛ فهـو تمليك معلَّق علـــى الإذن والرضى لا تمليك مطلَق... وسـيد الشفعاء - صلوات الله وسـلامه عليه - لا يشفع حتى يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسْمَع، واشفع تشفَّع»[3].

ولما احتج الخصوم بحديث: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب» على عدم وقوع الشرك في جزيرة العرب. ردَّ أبو بطين هذا الاستدلال فقال: «في الحديث نسبة اليأس إلى الشيطان مبنيـــاً للفاعل، لم يقل: (أُيِّس) بالبناء للمفعول، لو قُدِّر أنه يئس من عبـادته في أرض العـرب إياسـاً مسـتمراً؛ فإنما ذلك منـه وتخمين لا عن علم؛ لأنه لا يعلم الغيب، وهذا غيب لا يعلمه إلا الله... كما أن أكثر العرب ارتدُّوا بعد وفاة النبي ﷺ؛ فكثير منهم رجعوا إلى الكفر وعبادة الأوثان، وكثير صدَّقوا مسيلمة في دعواه الكاذبة للنبوة، ومَن أطاع الشـــيطان في نوع من أنواع الكفر فقد عبده؛ لا تختص عبادة الشيطان بنوع من الشرك، كما أن المصطفى ﷺ أخبر أن هذه الأمة تفعل كما فعلت الأمم قبلها: اليهود والنصارى وفارس والروم»[4].

ومـــن تقريراته التي تـــدل على تحقيقه ورســـوخه، أن تعقَّب صاحب تيســـير العزيز الحميد - الشيخ ســـليمان بن عبد الله آل الشـــيخ - في قوله: «إن الطاعة ملزومـــة للعبادة»[5]؛ حيث قال أبو

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر ترجمته في: السحب الوابلة لابن حميد: ٢/٦٢٦، وعلماء نجد للبسام: ٤/٢٢٥.

(٢) السحب الوابلة: ٢/٦٣١.

(٣) تأسيس التقديس، ص ٨٢.

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية: ٤/٤٨٢ - ٤٨٧ = باختصار، وانظر: ٢/١٧٨.

(٥) تيسير العزيز الحميد، ص ٦٥٦.

بطين: «قوله: ملزومة للعبادة... غير صحيح؛ فليس كل مطاع معبوداً كالنبي ﷺ، وأولي الأمر»[1]. فهذا كلام نفيس دلَّت عليه النصوص الشرعية؛ فالعبادة حق لله - تعالى - وحده، وأما جنس الطاعة فهي لله ورُسُله - عليهم السلام - كما أن العبادة غاية الحب وغاية الذل، بخلاف الطاعة للملوك؛ فقد تكون خضوعاً ظاهراً فقط[2].

وأما عن احتسابه فقد ظهر جليّاً في احتسابه السياسي وَفْقَ تقريرات علمية ومواقف عملية، ولما ورد عليه هذا السؤال: «إن قال بعض الجهال: من شرط الإمام أن يكون قرشياً، ولم يقل عارضياً؛ يشير إلى أنه قد ادَّعاها من ليس من أهلها، يعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ومن قام معه وبعده بما دعا إليه، وأيضاً أن البغاة يحل دماؤهم دون أموالهم، وقد استحل الأموال والدماء من العلماء وغيرهم؛ فما الجواب؟».

فأجاب - رحمه الله -: «إذا قال بعض الجهال ذلك، فقل له: ولم يقل: تركياً، فإذا زال الأمر عن قريش؛ فلو رجع إلى الاختيار لكان العرب أَوْلَى به من الترك؛ لأنهم أفضل من الترك؛ ولهذا ليس التركي كفواً للعربية... وهذا الذي يعظمه الناس تركي لا قرشي، وهم أخذوها بغياً على قريش، ومحمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ما ادَّعى إمامة الأمة؛ وإنما هو عالم ودعا إلى هدى وقاتل عليه، ولم يلقَّب في حياته بالإمام، ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود، ما كان أحد منهما يسمى إماماً في حياته، وإنما حدث تسمية من تولى إماماً بعد موتهما. وأيضاً فالألقاب أمرها سهل، وهذا من صار والياً في صنعاء سمِّي إماماً، وصاحب مسقط يسمى إماماً، وقتال الشيخ محمد بن عبد الوهاب مَنْ قاتله ليس لكونهم بغاة، وإنما قاتلهم على ترك الشرك وإزالة المنكرات وعلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والذين قاتلهم الصديق والصحابة - رضي الله عنهم - لأجل منع الزكاة، ولم يفرِّقوا بينهم وبين المرتدين في القتل وأخذ الأموال...»[3].

فيلحظ قوة حجة أبي بطين، ورسوخ تحقيقه، ومراعاة الواقع والحال، وعدم الاشتغال بالرسوخ والألقاب، والتفريق بين قتال البغاة، وقتال الممتنعين عن شرائع الإسلام الظاهرة كما جاءت به الأدلة الصحيحة.

وأما مواقفه العملية فقد كان - رحمه الله - حاضراً ومؤثراً في الواقع السياسي آنذاك، كما في هذه الموقفين الآتيين:

أولهما: أن قوماً من أهل القصيم خرجوا على الإمام فيصل بن تركي سنة ١٢٦٥هـ، فقامت وقعة «اليتيمة» بين الفريقين، وهُزم أهل القصيم، وقُتل منهم كثير، ثم إن أمير بريدة حضَّ الناس على القتال مرة أخرى، فجاءه العلاَّمة أبو بطين - وكان قاضي القصيم - وقال له: «يا هذا! اتقِ الله، واربأ بنفسك؛ فإن البلد ليست لك ولا بيدك، وأمرها بيد أهلها، وليس لك فيها أمر ولا نهي، وهم يريدون إصلاح أنفسهم مع الإمام فيصل، فإن أردتَ أن تكون كذلك فافعل»[4]. فصدع أبو بطين بالحق، وحث على الصلح مع الإمام فيصل لأجل الاجتماع وحفظ الدماء، ثم إن الذين أشعلوا الفتنة والحرب ضد فيصل بن تركي، ندموا على ما صنعوا، وخافوا من سطوة الإمام فيصل وبطشه، فطلبوا من العلاَّمة أبي بطين أن يسعى في الصلح وإزالة غضب الإمام، فركب أبو بطين إلى الإمام فأكرمه وأجابه إلى ما طلب وعفا عنهم[5].

وأما الموقف الثاني: فإن أهل عنيزة لَمَّا عزموا على إخراج أميرهم جلوي بن تركي سنة ١٢٧٠هـ وحاصروه في قصره، فبادر الشيخ أبو بطين فنصح أهل عنيزة بأن لا يُخرِجوا جلوي بهذه الطريقة، وقال: «أنا كفيل لكم بأن أركب إلى الإمام فيصل بن تركي وأطلب منه أن يعزل أخاه «جلوي»، وينصب بدله أميراً ترضونه» لكنهم أصروا على إخراجه، فغضب الشيخ أبو بطين، وخرج إلى بريدة[6].

فالشيخ أبو بطين اتخذ مسلكاً وسطاً متوازناً (يتفق مع أصل الاجتماع وقاعدة المصالح)؛ فنصح أهل عنيزة أن لا يُخرِجوا أميرهم بهذا الأسلوب، ثم إنه وعدهم بأن يسعى إلى تنصيب أمير بدله.

وأخيراً: فإن الناظر إلى سيرة العلاَّمة أبي بطين ونظرائه لَيَتذكَّر مقالةً جامعةً للإمام الشعبي؛ حيث يقول: «إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمع فيه العقل والنُّسُك»[7]. ولقد اجتمع لأبي بطين العقل والنُّسُك، ومع أنه أدرك نهاية الدولة السعودية الأُولَى، واضطراباً في عهد الدولة السعودية الثانية إلا أنه كان راسخاً مسدِّداً، ثابتاً موفَّقاً في فتاويه ومواقفه؛ فقد حباه الله - تعالى - عقلاً رشيداً ورأياً راجحاً، فولي القضاء في نجد والحجاز وعُمان، فأحسن القضاء بين الخصوم، وأجاب عن مسائل مشكلة في الفقه والاعتقاد (كما هو مبسوط في فتاويه) وشارك في معالجة نوازل واقعة، كما سبق القول. ثم إنه صاحبُ تعبُّد وسَمْت، وصدقة وإحسان؛ فقد كان «ساكناً وقوراً، دائم الصمت، قليل الكلام في كل شيء كثير العبادة والتهجُّد، مواظباً على درسَي وعظٍ بعد العصر وبين العشائين في المسجد الجامع»[8].

وقد ورد في الأثر: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات».

---

(١) ملخص من شرح التوحيد لأبي بطين (مخطوط في دار الملك عبد العزيز) ق ٢٩/أ.
(٢) انظر: السبعينية، ص ٥٠٣، وجامع الرسائل لابن تيمية: ٢/ ٢١٩.
(٣) مجموعة الرسائل والمسائل: ٢/ ١٧٠.
(٤) انظر: عنوان المجد: ٢/ ٢٦٧.
(٥) انظر: عنوان المجد: ٢/ ٢٦٨، وعلماء نجد للبسام: ٤/ ٢٤٠.
(٦) انظر: الأحوال السياسية في القصيم للسلمان، ص١٩١.
(٧) السير للذهبي: ٤/ ٣٠٧.
(٨) السحب الوابلة لابن حميد: ٢/ ٦٣١.

# الآن

الآن

فعل اشتراكك في جوال

# البيان

ضمن شبكة zain

أرسل رسالة فارغة إلى ٧٠٤٠٤٧

للاشتراك أرسل رسالة فارغة إلى

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

رسائلنا تحكي أهدافنا

DESIGN: 0551795955